نظارةٌ طبيةٌ لذاتِ الضفائر
-فاطمة، أرجوكِ دعيني أنقل الأسئلة من كراستك؛ فأنا لا أستطيع رؤية الأسئلة من فوق السبورة قبل أن ينتهي وقت الامتحان.
قالتها (سنا) برجاء ابنة التسع سنوات والتي كانت تدرس بالصف الثالث الإبتدائي..
فاطمة بصوتٍ جهوري:
- أستاذة مني، هذه الفتاة تريد أن أتركها تغش من كراستي!
انتبه لصوت فاطمة جميع التلاميذ ونظروا لسنا بازدراء وسخرية، اقتربت المعلمة من الفتاتين وقالت بغضب:
- قفي يا سنا
وقفت الصغيرة ذات الضفيرتين وهي تنظر للأرض في حرجٍ والدموع مقبلة علي مقلتيها، أردفت المعلمة قائلةً:
- ألا تعلمين أنَّ مَن غشنا ليس منا؟!
لم ترد سنا علي قولها بل وقفت بصمتٍ كأنها صنم، وكانت في تلك اللحظة كل الأنظار ترمقها بسخريةٍ وهي تشعر كأنها سهام ترشق داخل جسدها..
المعلمة بترهيبٍ:
- لابد أن تعاقبي علي فعلتك هذه حتي لا يكررها تلميذٌ آخر، مدي يدك يا سنا
مدت الصغيرة كفها الرقيق، رفعت المعلمة العصا البلاستيكي وهوت به علي كفها فشعرت الصغيرة أن قطعةً من الجمر المشتعل سقطت علي يدها، ورفعت العصا ثانية وهوت عليها بضربة أخرى، ورغم ألم يدها لم تنبس ولم تبكِ ولم تحاول الدفاع عن نفسها، فألمها النفسي كان يفوق ألمها الجسدي بأضعاف، بعد أن انتهت المعلمة من عقابها جلست سنا وقالت المعلمة بصوتٍ جهوري شارعة العصا أمام وجهها:
- ألا يكفي غباءك وبلادتك في كل المواد وتصرفاتك الحمقاء؟ بل تودين سرقة مجهود التلميذة المتفوقة؟!
أردفت (فاطمة) بصوتٍ جهوري والتي شعرت أنَّ الفرصة سنحت لها لتشكو كل تصرفات هذه الفتاة تجاهها:
- أستاذة منى، إنها تفعل معي في كل المواد مثلما فعلت اليوم، وفي كل درس تود نقله من كراستي، إن هذه الفتاة تضايقني كثيرًا بإلحاحها وكثرة سؤالها وتصرفاتها.
المعلمة بغضب:
- قد زاد الوضع عن حده، وليس من المجدي بقاؤك بين التلميذات المتفوقات لتضايقيهن بأفعالك وتصرفاتك الحمقاء، ولابد من عقابٍ رادع.
ثم صمتت لحظة وقالت:
- ستجلسين هناك في مقعدٍ بمفردك آخر الصف.
ودت سنا أن تتحدث للمعلمة فقالت بصوت مختنقٍ بالبكاء:
- أستاذة منى...
أردفت المعلمة بغضبٍ:
- شش فلتصمتي، كفى غباءً وعبثًا وتصرفاتٍ حمقاء، هيا عودي لآخر الصف كما أمرتك لقد أضعت وقت زميلتك دون جدوى.
قامت الصغيرة من مكانها بأمرٍ من المعلمة وجلست علي مقعدٍ آخر الصف بمفردها، انتهي وقت الا متحان والكل سلم كراسته للمعلمة إلا هي، دق جرس الفسحة وخرجت المعلمة ، قام التلاميذ من أماكنهم والتفوا جميعهم حول تلك المنبوذة في الخلف وضربوا أيديهم فوق الـ (ديسك) الذي أمامها وقالوا بصوتٍ عالٍ:
- الغشاشة أهي الغشاشة أهي!!.

حاولت أن تخرج من بينهم، حاولت أن تبعد أيديهم لكنها لم تستطع، اقتربوا منها جميعًا، قاموا وبدأوا بضربها علي وجهها ورأسها فصرخت وصرخت والكل يضحك بسخريةٍ واستهزاء، بكت بين أيديهم بقهرٍ وهوان وضعف واستضعاف لعلهم يتركوها، عادت المعلمة مرةً أخرى وكان الجميع قد عاد لمقاعده وكأنَّ شيئًا لم يحدث، كتمت الصغيرة بكاءها وشهقاتها أمام المعلمة والتزمت الصمت خوفًا من عصاها، وضعت المعلمة الكراسات أمامها فوق المنضدة الخاصة وبدأت في النداء بأسماء التلاميذ، وكان الاسم الأول للتلميذ الذي نال أكبر درجةٍ في كل المواد، وكانت المعلمة أثناء نداءها تقول:

- فلان يستحق التصفيق لأنه حصل على أكبر درجة

والثاني والثالث حتي نهاية كل التلاميذ، وكان الذي يرسب في الاختبارعقابه من المعلمة أن تجعل الفصل يقول بأكمله وينادي عليه بالـ (راسب) حتى يبكي وتسيل دموعه، ولم يرسب في امتحان آخر الشهر إلا هي، فأمرت المعلمة التلاميذ أن يذهبوا لمقعد سنا وينادونها بـ (راسب)، فعلوا ما أمرتهم المعلمة به واقتربوا منها يتدافعون إليها ليسخروا منها، والجميع بصوتٍ واحد:

-راسب راسب يييييي!!

أي عقاب هذا من إنسانةٍ بلا رحمة؟! كم كانت تشعر الصغيرة بالهوان في تلك اللحظة!.. كم تمزقت!!.. كم مرة بكت في اليوم الواحد!!.. ولم يكن هذا أول يوم تبكي فيه بل كان بكاؤها متكررًا سواءً كان أمام الأعين أو في الخفاء، انتهي اليوم الدراسي وعادت سنا للمنزل الذي لم يفرق كثيرًا عن المدرسة، دخلت تلك الحجرة الصغيرة وأخرجت الكتب من الحقيبة، وقامت بتمزيقها جميعًا، خرجت من الغرفة وصرخت في وجه أمها ببكاءٍ من القلب، ربما كانت روحها تحترق وقالت بصوت عالٍ وكلمات متقطعة من شدة البكاء:

- لن أذهب لتلك المدرسة أبدًا بعد اليوم، قلت لك إنني لم أستطع رؤية الكلام من فوق السبورة والجميع يسخر مني ويضربني.

كانت تنتظر من والدتها أن تحتضنها وتربت عليها وتستمع لشكواها، ولكن والدتها ضربتها بكفٍ علي وجهها وقالت:

- لا أود سماع صوتك، وستذهبين ورجلك فوق رقبتك.

دخلت سنا للحجرة ثانيةً وانكمشت علي نفسها وظلت تبكي وتبكي حتي غطت في النوم وهي ترتجف من شدة البكاء، في صباح اليوم التالي مرت عليها فتاة تسكن بنفس شارعها لكنها تدرس بالصف الثاني، كانت سنًا تسبقها بعامٍ دراسي واحد، دلفت عليها الغرفة وقالت:

- أما زلتِ نائمة أيتها الكسولة؟ هيا لنذهب إلى المدرسة

تثاءبت سنا ولم ترفع وجهها من تحت الغطاء، وبعد صمت قالت بصوت متحشرج:

- اذهبي يا (هبة)، أما أنا فلن أذهب اليوم إلى المدرسة

هبة:

- لماذا يا سنا؟ هل أنت مريضة؟!

سنا بغضب:

- لست مريضة، ولكني لن أذهب اليوم ولا غدًا ولا بعد غدٍ لتلك المدرسة، لن أذهب أبدًا أبدًا..

جاء صوت والدتها وهي ترفع الغطاء من فوق وجهها:

- بل ستذهبين وإلا جعلت شقيقك يقوم بحبسك في الغرفة المظلمة حتي يقضم الفأر قدمك ويأكل الصرصار وجهك!.

وما إن سمعت سنا تلك الكلمات حتى قامت بفزع وألقت الغطاء بعيدًا، وارتدت مريول المدرسة وحملت حقيبتها وكتبها الممزقة بداخلها، ومضت بجانب هبة قاصدين المدرسة، مضت لآخر الصف في طابور الصباح لتقف مبتعدةً كعادتها لا تتحدث مع أحد ولا تلقي تحية الصباح على أحد، الجميع لا يحبها ولا أحد يريد مصادقتها لأنها بليدة وكثيرة السؤال، انتهي طابور الصباح ودلف التلاميذ لداخل الفصل، وجلس كل تلميذ علي مقعده بجانب زميله الذي يشاركه نفس المقعد، ومضت هي نحو مقعدها الفريد المتفرد آخر الصف تفكر ماذا ستقول للمعلمة عندما

تسألها عن الكتب؟ كانت تضع يدها علي قلبها وهي تنظر لباب الفصل المفتوح مترقبة وصول الأشكيف -المعلمة كما كانت تسميها سنا- مضي وقت طويل ولم تدخل المعلمة الفصل، هاج الفصل وماج ظنًا من التلاميذ أنَّ المعلمة لم تأتِ اليوم، بعد قليل ظهرت تمضي لداخل الفصل يتبعها شابٌ تبدو علي وجهه الطيبة ينفرج ثغره بابتسامة ودودة وحانية، عم الصمت ووقف التلاميذ فور دخول المعلمة ومن خلفها ذلك الشاب، وأحست سنا أنَّ دقات قلبها اقتربت أن تتوقف، نفخت داخل كفها لتهيئته للضرب المبرح من الأشكيف، تعلم أنها لن ترحمها، وضعت المعلمة عصاها فوق المنضدة الخاصة بها في الأمام وقالت وهي تشير للشاب الذي يقف بجوارها:

- هذا هو الأستاذ (مالك)، معلم جديد سيدرس لكم مادة اللغة العربية فقط، وباقي المواد سأدرسها لكم أنا كما هي، نظرالأطفال جميعهم لذلك الشاب الوسيم الذي تبدو علي وجهه الطيبة ملامح الطيبة والرحمة، مالك تخرَّج العام الماضي من كلية تربية قسم اللغة العربية ولم يلق صعوبة في الالتحاق بوظيفة المدرس لأنَّ عمه مدير المدرسة الإبتدائية في هذه القرية، مالك بابتسامة حانية:

- صباح الخير أيها التلاميذ

رد التلاميذ تحية الصباح في صوتٍ واحد:

- صباح النور علي البنور!

المعلمة التي تود كسب ود مالك لأنه ابن أخ المدير قالت للتلاميذ:

- عرفوا أسماءكم للأستاذ مالك يا أولاد بالدور.

قام الذي يجلس أول مقعد بالصف الاول وعرف نفسه والثاني كذلك والثالث كذلك، إلى أن انتهي الصف الأول والثاني، وكان الصف الأول والثاني يجلس فيه الصبيان والصف الثالث كانت تجلس فيه للفتيات فقط، جاء دور الفتيات وقامت فاطمة وعرفت نفسها لأنها كانت تجلس في أول مقعد في صف الفتيات، وقامت صفية وعرفت نفسها والتي كانت تجلس بجانبها علي نفس المقعد، كانت المعلمة تقول أثناء نطق التلاميذ والتلميذات بأسمائهم فلان هذا متفوق وهذا متوسط، وفلانة هذه متفوقة تمدح وتثني علي من تراه من وجهة نظرها متفوقًا، عرفت الفتيات أسماءهن وانتهي الصف ولم يبق إلا تلك الفتاة التي تجلس بمفردها آخر الصف وهذا ما جذب انتباه مالك، نظرت سنا للأرض ولم تنبس ولم تعرف اسمها كباقي زميلاتها..

المعلمة:

- والآن بعد أن انتهيتم بتعريف أسمائكم اجلسوا يا أولاد.

مالك:

- هناك فتاة تجلس بمفردها لم تعرف اسمها

مني:

- أين هي؟

مالك:

- تلك الفتاة التي تجلس بمفردها آخر الصف

أردفت المعلمة بامتعاض:

- سواءً عرفت نفسها أو لم تعرف لا قيمة لمعرفة اسمها ولا قيمة لوجودها في المدرسة، ليت أهلها يبقونها في البيت ويريحوننا من عناء غبائها وبلادتها.

صمت مالك قليلًا ثم مضي بين صف التلاميذ والتلميذات حتى وصل للمقعد الذي تجلس فيه سنا وقال لها برفق:

- ما اسمك؟

نظرت سنا للمعلمة بخوف وقلق والتي كانت تنظر لها بتوعد، ونظرت للمعلم الجديد ولم تنبس..

مالك مرةً أخرى:

- ما اسمك؟ ولماذا تجلسين هنا بمفردك؟
جاء صوت تلميذ من الصف المجاور وهو يقول:
- أنا أخبرك أيها المعلم، تجلس بمفردها لأنها غشاشة، كانت تريد أن تغش من فاطمة لأنها بليدة وغبية والمعلمة عاقبتها بأن تجلس بمفردها آخر الصف.
نظر مالك للتلميذ الذي يتحدث وقال:
- لا يوجد تلميذ بليد، ولكن ربما يصعب عليه الفهم بطريقة الشرح المعتادة.
مني:
- لا فائدة من تلك الفتاة أستاذ مالك، لا تضع وقتك معها هناك من يستحق وقتنا كاملًا.
مالك:
- طالما أنها تلميذة في هذا الفصل فلها الحق في الوقت كأي تلميذ أو تلميذة.
منى:
- أستاذ مالك سنتناقش في هذا الأمر لاحقًا، الآن لدي حصة في فصل 3-4
ونظرت للتلاميذ وقالت:
- كما أوصيتكم يا أولاد، لا تزعجوا أستاذ مالك وانصتوا له جيدًا.
حملت منى عصاها وكتابها وخرجت من الفصل متوجهة لفصل آخر لتفترس ضحيةً أخرى..
مالك كرر السؤال على سنا:
- ألن تخبريني ما اسمك ياذات الضفائر؟
تعلق نظر سنا بمالك وشعرت بالاطمئنان لصوته، ازدردت ريقها وقالت باستحياء وبصوت بالكاد يسمع:
- اسمي سنا
مالك:
- اسمك جميل ياسنا
ابتسمت سنا في وجهه، مضى مالك نحو السبورة وقال:
- اخرجوا كتاب اللغة العربية.
أخرج التلاميذ جميعًا كتبهم وأما هي جلست في صمت ، لاحظ مالك جلوسها وهي تعقد يديها حول نحرها ولا يوجد كتاب أمامها فمضى نحوها مرة أخرى وقال لها:
- لماذا لم تخرجي كتابك ياسنا؟
نظرت للأرض محرجة، لم يكرر لها السؤال مرة أخرى بل أمسك يدها واصطحبها لمقعد زميلتها التي كانت تجلس في المقعد الذي أمامها مباشرة وقال للتلميذة الأخرى:
- هل تسمحين لزميلتك أن تجلس بجوارك اليوم حتى تقرأ معنا الدرس الذي سنقرأه الآن؟ يبدو أنها نسيت كتابها في البيت.
(منار) بخوف من المعلم الجديد أومأت بالإيجاب، رغم نظرتها المزدرية لسنا أجلستها بجانبها رغم أنها لا تريد ذلك، سنا كانت ترى في جلوسها بمفردها راحة وعدم مضايقة، بدأ مالك في شرح الدرس وكان ينظر لها من حين لآخر يجدها لا تنظر للكتاب وغير منتبهة لما يقول، انتهت حصة مالك وخرج من الفصل ودلف لحجرة المعلمين، وبعدها دق جرس الفسحة خرج التلاميذ لحديقة المدرسة ولم تخرج هي من الفصل بل عادت وجلست في مقعدها الخلفي، جلس مالك يفكر في الخوف الذي استشعره في صوت الطفلة ونظراتها، وشعر أن خلفهما معاملة سيئة وتنمر، خرج من غرفة المعلمين ثانية يتفقد وجوه الأطفال التي كانت تلهو وتلعب بمرح بحثا عنها لكنه لم يجدها من بينهم، اقترب من الطفلة التي أجلسها بجانبها وقال لها:
- أين زميلتك التي أجلستها بجوارك اليوم؟
قالت وهي تقفز:
- ستجدها بداخل الفصل تجلس في مكانها آخر الصف.
قال بتعجب للطلفة:

- ألن تخرج للهو معكم أثناء الفسحة؟
الطفلة:
- لا لا هي لا تخرج أبدًا من الفصل إلا عندما نعود للبيت.
فكر مالك قليلًا في انزواء تلك الطفلة ووحدتها، ثم دلف لداخل الفصل وجال بنظره وسط المقاعد الفارغة، إلى أن وجدها تجلس منكمشةً فوق المقعد الذي اصطحبها منه، مضي نحوها وجلس في مقعد أمامها وقال مبتسمًا:
- لماذا لم تخرجي من الفصل مع زميلاتك أثناء الفسحة؟
نظرت له تلك النظرة الحزينة الخائفة المترقبة فلاحظها مالك في عينيها ثانية فزاد لديه الفضول ليعرف ما سر تلك النظرة، أو ربما رق لحالها، نهض من مكانه واقترب منها وقال لها:
- اخبريني مم تخافين؟
نظرت إليه في صمت فأردف:
- تكلمي ولا تخافي
لم تنبس ولكنها كأي طفلة تخرج حزنها المكتوم في بكائها بكت بحرقة، ولا تعرف لماذا بكت أمامه، ربت علي ظهرها بحنان وقال لها:
- هل لديك شقيق أكبر؟
أومأت بالإيجاب وهي تشهق ، قال:
- وما رأيك أن يكون لك شقيق آخر يحبك كما يحبك شقيقك؟
قالت بارتجاف:
- ولكن شقيقي لا يحبني!.
صمت بتعجب أمام كلمتها، فما مفهوم الحب عند الأطفال؟ نظر لها مبتسمًا وهتف بحماس:
- ما رأيك أن أكون شقيقك الذي يحبك؟
- شقيقي!!
قالتها بتعجب..
- ولكن أمي لم تلدك!
ضحك مالك من كلمتها وقال:
- ليس بشرط أن تلدني أمك حتى أكون شقيقك، المهم أن تخبريني أين كتابك ولماذا لا تخرجي للهو في الفسحة مع صديقاتك؟
قالت وما زال البكاء عالق في صوتها:
لم يكنَّ صديقاتي ولا أحب أي واحدة منهن.
- لماذا لا تحبينهن أخبريني؟
- لأنهن لا يحبونني ويلقبونني بالبليدة.
سكت مالك قليلًا وقال لها:
- هل تحفظين الحروف الأبجدية؟
- نعم أحفظها، ففي السنة الأولى من المدرسة كنت أرى الحروف جيدًا فوق السبورة.
مالك بحماس:
- إذن اعيدي سماعها إليَّ
وقفت سنا من مكانها وقرأت الحروف الأبجدية كاملة دون أن تخطئ في حرف..
مالك:
- وهل تستطيعين كتابتها أيضًا؟
سنا:
- نعم أستطيع
- فلتكتبيها

أخرجت من حقيبتها قلمها الرصاص وكراسة فارغة وكتبت سنا الأحرف كاملة ، قال لها:
- إلى أي عدد تستطيعين العد؟
قالت:
- واحد اثنان ثلاثة....
أتمت العد حتي العدد ثلاثين، قال لها:
- وهل تستطيعين كتابتها؟
قالت:
- نعم
ابتسم مالك وقال:
- أنتِ متفوقة يا سنا
دق جرس الفسحة وخرج مالك من الفصل ودلف التلاميذ ومن خلفهم منى، أردفت قائلة:
- اخرجوا كتبكم وكراساتكم.
وبدأت الكتابة فوق السبورة مع شرح ما تكتب بطريقة سريعة، كانت سنا تجلس سعيدة تفكر بكلمات مالك التي قالها لها .."أنت متفوقة".. ترددت في أذنها تلك الكلمة غير منتبهة لوجود المعلمة إلى أن أفاقتها من شرودها ضربة عصا فوق المقعد الذي أمامها ومنى تنهرها بصوت عال:
- أنت.. ألا تسمعين أيتها الغبية؟ لماذا لم تخرجي كتابك وكراستك؟!
وقفت ذات الضفائر مرتعبة لا تعرف بم ترد، في لحظة مجنونة مزقت كل كتبها أو ربما في لحظة فاض بها من ذلك التنمر الذي تتعرض له وتلك الطريقة التي تعامل بها، كل شيء جعلها تكره العلم والتعلم والكتب وكل شيء يذكرها بالمدرسة..
المعلمة بغضب:
- هل ستقفين كثيرًا دون أن تتكلمي يابجم؟!
وشرعت المعلمة العصا للأعلي لتخيفها فوضعت سنا يدها علي وجهها من الخوف، أتى في تلك اللحظة مالك الذي جذبه صوت منى العالي من الخارج، وكأنه شعر أن الأمر يخص ذات الضفائر، طرق على باب الفصل وقال:
- هل تسمحين لي بالدخول أستاذة منى؟
منى التي يبدو أنها أصبحت معجبة بمالك الشاب الوسيم:
- تفضل بالتأكيد
مضى إلى أن وصل لآخر الصف للمكان الذي تقف فيه المعلمة والفتاة الصغيرة، أحست سنا وكأن يدًا امتدت من السماء لتنقذها في تلك اللحظة من الأشكيف، طاقة نور انفتحت عندما رأته، مالك بهدوء:
- هل لي أن أسال ماذا يحدث هنا أستاذة منى؟
تغيرت نبرة منى الرقيقة إلى نبرة غاضبة:
- هذه الفتاة تثيرغضبي دائمًا وأبدًا أستاذ مالك
مالك:
- ماذا فعلت حتي تنهريها بذلك الصوت المرتفع؟
مني مبررة فعلها:
- قلت للتلاميذ اخرجوا كتبكم، فأخرج جميع التلاميذ كتبهم وكراساتهم وجميعهم كتبوا الدرس وهي جالسة كالمقعد الذي تجلس عليه، لا تفعل شيئًا ولم تكتب الدرس، واللوم يقع علينا نحن في النهاية كمدرسين بشأن هؤلاء الأغبياء الذين يلقوهم علي عاتقنا ومن المفترض أن نصنع منهم عباقرة.
مالك لم يعجبه أسلوب مني في التصرف أمام مشكلة الفتاة، بعد صمت أردف قائلًا:
- هل تسمحين لي أن أسالها؟

المعلمة:
- تفضل ورغم أنه لا فائدة من سؤالها، هذه الفتاة خسارة أن يوجه لها سؤال خسارة إضاعة الوقت معها.
مالك:
- لماذا لم تكتبي الدرس يا سنا مثل زملائك؟
نظرت للمعلمة بخوف ونظرت لمالك، همست بصوت بالكاد يسمع:
- لأنني لا أستطيع رؤية الكلام من فوق السبورة
المعلمة بغضب:
- ها هي بدأت حججها وأعذارها، أنتِ فتاة كاذبة، اخرجي من الفصل ولا تعودي إلا بولي أمرك غدًا.
انفجرت سنا في البكاء بقوة لأنها إن عادت للبيت وقالت هذا الكلام لوالدتها حتمًا ستضربها وربما تحبسها.. أردف مالك:
- أستاذة منى، لا أود التدخل في عملك، ولكنني أطلب منك أن تدعيها اليوم وسأرى الأمر بنفسي.
وافقت المعلمة بعد تفكير وقالت:
- من أجلك فقط أستاذ مالك، كما ترى هي دائمًا علي هذا الحال مثل البجم تقف دون أن تتحدث، ولا تفعل شيئًا سوى أنها تجلس كالمقعد الذي تجلس عليه.
مالك قال بصوته الرقيق:
- اجلسي يا سنا.
جلست الصغيرة ودموعها تسيل في صمت، مضت المعلمة نحو السبورة ومضي خلفها مالك وسألها:
- هل انتهيت من الدرس؟
المعلمة:
- نعم انتهيت
مالك بهدوء:
- أريد أن أتحدث إليك إن كان ليس لديك مانع
منى بسعادة:
- ليس لدي مانع بالتأكيد
مالك:
- سأنتظرك في حجرة المعلمين
دلف مالك حجرة المعلمين ولحقت به منى، هتف قائلًا:
- أعتذر أولًا عن تدخلي في عملك
منى:
- لا تعتذر، نحن زملاء أولًا وآخرًا ونعمل كأسرة واحدة
مالك:
- جيد، إذن الآن أستطيع التحدث إليك
منى:
- تفضل
تنهد مالك بعمق وقال:
- هؤلاء الأطفال كالبراعم الصغيرة، إن وجدوا الاهتمام والرعاية سيشتد عودهم ويصبحوا سيقان قوية، وإن لاقوا الإهمال واللوم والتقليل والتحبيط والقسوة والتنمر عليهم سواءً في الكلمات أو بالأفعال سينشئوا ضعفاء هاشين أي شئ يكسرهم ويحطمهم، لا يصح أبدًا أن نعاقبهم دون أن نعلمهم.

منى:
- الحقيقة لا أفهم ماذا تقصد.
مالك:
- أقصد أنه لا يصح أن نوقع عقابًا على الطفل دون أن نبحث عماهي مشكلته؟ ما الذي لا يجعله مثل باقي زملائه؟ ما الذي يؤخر فهمه؟
منى:
- وهل لدي الوقت لأستمع لشكوى أربعة وأربعين طفلًا؟ وما دخلي بمشاكلهم؟ لست مسؤلة عن ذلك، مهمتي هنا التعليم فقط، البيت الذي يخرج منه الطفل هو الملزم بحل مشاكله، أنا لست إخصائية اجتماعية.
مالك:
- أعتقد أنك حاصلة علي معهد خدمة اجتماعية عامين، ومن المفترض أن تكوني الأقرب للأطفال في المعاملة ومحاولة التحدث معهم في أية مشكلة تواجههم.
منى وبدأت تشعر بالضيق:
- لكني لم أعمل هنا كإخصائية اجتماعية، أنا معلمة فصل، أدرس لهم كل المواد من قبل أن تأتي أنت، ولك أن تتخيل حجم تلك المسئولية التي على عاتقي.
قال مالك محادثًا نفسه..
"الذنب ليس ذنبك، الذنب ذنب الذي وضعك في هذه المسئولية التي يبدو أنها أكبر من حجم تفكيرك"..
أردف قائلًا:
- أعتذر مرة أخريى لتدخلي في عملك.
منى:
- لا داعي للاعتذار.
انتهي اليوم الدراسي ودق جرس انتهاء اليوم والخروج من المدرسة، تدافع الأولاد والبنات في الخروج من باب المدرسة، جال مالك بنظره بحثا عن سنا، بعد بحث قصير رآها تخرج من باب المدرسة فلحق بها لخارج المدرسة واستوقفها وقال لها:
- أين كتبك يا سنا؟ اتفقنا أن تعتبريني شقيقك الأكبر وتقصي لي كل شيء
قالت وهي تنظر للأرض:
- مزقتهم بالأمس
مالك الذي انحنى حتي أصبح وجهه يوازي وجهها:
- ولماذا فعلت ذلك؟
- لأنني لا أحبها ولا أريد أن آتي لهذه المدرسة مرة أخرى
تنهد مالك بعمق ثم قال:
- لماذا تكرهين المدرسة ياسنا؟ تكلمي دون خوف
قالت بعفوية الأطفال:
- الأستاذة منى لا تحبني، ولا أحد هنا يحبني
مالك:
- بل إنها تحبك، هي تغضب من أجلك، تريدك أن تكوني أفضل فتاة
سنا بعفوية وابتسامة بلهاء:
- أحقًا؟!!
قال:
- نعم حقًا.. انتظري هنا لحظات
دلف لداخل المدرسة التي أصبحت خالية من المدرسين والتلاميذ، وذهب لحجرة العم (حسين) فراش المدرسة، ألقى عليه السلام وقال:

- عم حسين، هل لديك مفتاح غرفة الكتب؟
حسين: بتساؤل:
- لماذا يا أستاذ مالك؟
مالك:
- لا يوجد لدي كتاب أدرس منه للتلاميذ ياعم حسين، اعطني المفاتيح كما أوصاني عمي قبل ذهابه اليوم.
سمع حسين كلمة (عمي) -وعم مالك المدير- فقام وسحب مفاتيح غرفة الكتب وأعطاها لمالك، دخل مالك الغرفة وأغلقها من خلفه وأخذ يبحث في طوابير الكتب الشاهقة عن الكتب التي تخص الصف الثالث، عثر عليها جميعًا بعد عناء، خرج من الغرفة وأغلقها ووضع الكتب جانبًا وسلم المفاتيح للعم حسين، حمل الكتب وخرج من المدرسة، كانت ذات الضفائر تنتظره بالخارج، انحني لقصر قامتها وقال:
- وها هي الكتب ياذات الضفائر
ورغم أنها أخبرته منذ قليل أنها تكره الكتب والمدرسة إلا أنها قفزت بسعادة واحتضنت الكتب بحب، رأي مالك في عيني سنا نظرة اطمئنان وأمان وسعادة دون مبالغة وقال محادثًا نفسه: "الطفل تسعده كلمة وتكسره كلمة، ويحيه تصرف ويميته تصرف، حتي نظرة العين الحانية تؤثر بداخله"..
سألها مالك قبل أن تعود لمنزلها: في أي شارع تسكنين؟
قالت ببراءة: لا أسكن في الشارع!
ضحك مالك مقهقهاً وقال: أقصد أي شارع يوجد فيه بيتك؟
قالت ببراءة أخرى: ليس لدي بيت
قال متعجبًا: ليس لديك بيت؟!
قالت: نعم
قال: أين تنامين؟ أين تسكنين؟
قالت: أسكن في بيت أمي وإخوتي
مالك: بيت أمك وإخوتك هو بيتك أنت أيضًا
قالت: حقًا؟!
قال: نعم
قالت: لماذا أمي لا يعلو صوتها علي إخوتي مثلما يعلو عليَّ؟
فكر قليلًا ثم قال: أهذا الذي يجعلك تشعرين أنَّ بيت أمك وإخوتك ليس بيتك؟
هزت ضفائرها وقالت: نعم، كلما فعلت شيئًا أو نقلت أي شيء من مكانه، أو حتى لعبت في ردهة البيت علا صوت أمي عليَّ؛ لذلك فكرت أنه ليس بيتي وليس من حقي اللعب فيه.
تنهد مالك بعمق وقال: أمك تريد أن تعلمك الأشياء الجميلة، ولو أنك أطعتها فيما تريده و توقفت عن العبث لن يعلو عليك صوتها مرة أخرى.
سكتت قليلًا ثم قالت: هل أمي كالمعلمة تريدني أن أكون أفضل فتاة؟.
مالك: نعم أمك تحبك كثيرًا جدًا.
ضحكت سنا ضحكة عريضة، قد تغيرت كل مفاهيمها الصغيرة في لحظة واحدة بكلمة واحدة، ولكن هل ما يحاول مالك بثه داخلها هو حقيقة؟ نظرت لمالك وقالت:
- اعطني كفك من فضلك.
قال بتساؤل: لماذا؟
قالت: أود أن أمسك به حتى أعود للبيت، من أي جهةٍ ستمضي أنت؟
قال لها: من هذه الجهة.
قالت: وأنا أيضًا.

أمسكت سنا بكف مالك ومضيا قاصدين العودة للبيت، سألته آلاف الأسئلة وهما يمضيان الطريق، وانتهت بهذا السؤال:
- هل لديك بيت؟
قال لها: نعم لدي بيت.
قالت: وهل لديك أخ؟
- نعم لدي أخوان وأختِ، وأنتِ الأخت الصغيرة.
سكتت قليلًا ثم قالت: وهل لديك زوجة؟
ضحك مالك وقال لها: أنتِ كثيرة السؤال.
وقفت في وجهه وقد كررت سؤالها: هل لديك زوجة؟
قال لها: لا لم يكن لدي زوجة.
قالت: هيييييه أنا سعيدة جدًا!!.
نظر لها متعجبًا من فرط سعادتها التي ظهرت في عينيها وسألها: ولماذا؟
قالت: لأنني عندما أكبر سأتزوجك وتشتري لي الكثير من الحلوى واللعب، وستتركني ألعب في ردهة البيت.
صمت مالك ولم يرد أمام براءتها الطاغية في الكلام، وصلت لمنزلها وأشارت لمالك وقالت:
-هذا هو بيت أمي وإخوتي.
قال لها: ألم أقل لك إنه بيتك أيضًا؟ وبيتك قريبًا من بيتنا، وأنا أعرف إخوتك جميعهم، لديك أخ اسمه (محمد).
قالت: نعم
فسألته: أين هو بيتك؟
قال: بعد بيتك بشارعين، يعني شارع الصيدلية، أتعرفينه؟.
قالت: نعم بيت خالتي هناك.
قال: إذن إن احتجت أن تفهمي أي شيء في الكتب تستطيعين أن تأتي إلى البيت.
أومأت بسعادة وعادت لمنزلها مسرعة، دخلفت لداخل البيت وذهبت لأمها مباشرة وقالت لها:
-أمي، أنا أحبك كما تحبينني، سأسمع كلامك في كل شيء حتي لا تغضبي مني مرة أخرى.
تعجبت الأم ولم ترد عليها، لكنها ربتت على ظهرها، تركتها سنا ودخلت تلك الحجرة التي تنام داخلها، استبدلت مريول المدرسة بملابس البيت وأخرجت الكتب الجديدة التي أعجبتها أغلفتها اللامعة، وأحست أنها مميزة لأنها تمتلك كتبًا جديدة، كان العام الدراسي ما زال في بدايته ولم يدرسوا من الكتب إلا بعض الدروس القليلة، لكنها لم تتذكر أي شيء منها فلم تكن تنتبه من قبل لأي شيء مما كانت تشرحه المعلمة؛ لأنها كانت تكرهها..
مالك ألقى السلام علي والدته وشقيقيه وشقيقته التي ستتزوج بعد أيام قليلة، استقبلته والدته بحب وترحاب فمالك ولد بار بأمه وهو الأكبر من بين إخوته، توفي أبوه منذ خمس سنوات وترك لهم إرثًا كبيرًا يتمثل في أرض زراعية تكفيهم للمعيشة وأمه تدخر منها الفائض..
(نوال): مالك، أريد أن أتحدث إليك في موضوع ضروري.
مالك بأدب: تفضلي يا أمي.
نظرت نوال حولها وقالت: من الأفضل أن نتحدث داخل غرفتك.
مالك: تفضلي يا أمي للداخل.
دلف مالك لداخل غرفته ودلفت والدته من خلفه، وأغلقت من خلفهما الباب، ضحك مالك وقال:
- يبدو أن الأمر خطير يا أمي؟!
نوال التي تبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا أردفت بابتسامة عريضة:
- بل الأمر سعيد!.
مالك: خيرًا إن شاء الله يا أمي؟
ربتت نوال علي ظهره وقالت: اجلس يا مالك.

جلس مالك وبجواره والدته، تنهدت بعمق وأردفت قائلة: مالك، تخرجت وتعمل الآن مدرسًا، وتعلم أن أختك ستتزوج بعد أيام وهي التي تقوم بأعمال المنزل كلها، وأنا لم تعد لدي صحة لأقوم بأعمال البيت.
مالك: سأساعدك يا أمي بقدر المستطاع، لا تحملي هم ذلك.
الأم: لم أقصد هذا يا مالك، أقصد شيئًا آخر.
مالك: لا أفهم يا أمي ما الذي تريدين قوله؟
- صراحة أريد أن أقول لك الآن لا شيء يمنعك من الزواج، المال موجود والعمل موجود، ها ما رأيك؟.
تذكر مالك كلمة سنا عندما قالت له "سأكبر وأتزوجك".. ثم قال لوالدته:
- وهل وجدتِ لي عروسًا بتلك السرعة؟
قالت: نعم، ابنة عمك (منصور)، وإن لم تعجبك ابنة منصور (زينب) ابنة (كمال) أو (منى) التي تعمل معك بنفس المدرسة، وأرى أن منى مناسبة لك؛ إنها متعلمة مثلك وتعمل معك بنفس المدرسة.
مالك قام من مكانه ونظر من النافذة وقال لها: أمي، لا أفكر الآن في هذا الموضوع.
نوال: ومتي تفكر يا مالك؟ البنات ياولدي لا تنتظر أحدًا وأخشى أن تتزوج الجميلات ولا تبقى إلا القبيحات.
ضحك مالك وقال: يا أمي عمري اثنان وعشرون عامًا فقط، لم هذه العجلة؟
نوال بنفاد صبر: لأنني كلما تحدثت إليك في هذا الموضوع قلبت الموضوع لموضوع آخروتهربت من الحديث فيه.
مالك: اقترح عليك حلًا يا أمي، زوجي (إسلام) فهو متعجل علي الزواج ولم يبق له إلا عام واحد وسوف يتخرج.
نوال نفخت في الهواء وخرجت من غرفة مالك وهي تردد: لا فائدة من الحديث معك.
مدد مالك جسده فوق السرير بعد أن استبدل ملابسه، نظر لشجرة التين التي تتدلي فروعها فوق نافذته وتنتشر رائحة التين الطيبة داخل غرفته، بعد قليل طرقت والدته الباب ودخلت تحمل صينية طعام وقالت له:
- فكر يا مالك فيما قلته لك.
ثم تركته وخرجت، تناول مالك بعض الطعام القليل وهيأ نفسه للنوم، كان يفكر في كلمات ذات الضفائر فيقهقه ضحكًا، طرقت والدته باب الغرفة فقال: تفضل.
نوال: بل اخرج أنت.
قام مالك من مكانه وفتح باب غرفته، وإذا بها تنظر إليه بقامتها القصيرة جدًا لطوله الذي يضاعف طولها ثلاث مرات أو أربعة قالت له:
-أهذه أمك يا أستاذ مالك؟
قال مبتسمًا: نعم
قالت: هي تقول يا مالك وليس (الأستاذ مالك) مثلنا، هل تسمح لي أن أقول مثلها يا مالك؟.
تعجب مالك وقال لها:
- ما الذي أتى بك الآن؟
قالت: أنت تستطيع القراءة لأنك كبير؟
قال: نعم أستطيع.
قالت: وأنا لا أستطيع القراءة لأنني صغيرة، وأريد حل هذه الكتب حتي أصبح فتاة متفوقة وتحبني الأستاذة منى.
نوال: ابنة من أنتِ يافتاة؟
سنا أردفت قائلة: ابنة (صالح) وأخي (محمد) وأخي (عاطف) وأمي (ليلى).
نوال: اممم، ولكن يوم الدراسة قد انتهى ما الذي أتى بك إلى هنا؟

زفرت سنا في حنق وقالت: ليتني ما أتيت، كم مرة أكررها؟ أتيت لمالك ليقرأ لي هذه الدروس!!.
مالك الذي يكتم ضحكاته أمسك يدها وقال لها: اجلسي واعطني كتبك.
ابتسمت والدة مالك رغم عفوية الطفلة ودلفت للمطبخ ،أتت (عزة) شقيقة مالك وسلمت على سنا قالت لها سنا: ما اسمك؟.
قالت لها: اسمي عزة.
فقالت لها سنا: أنت جميلة ياعزة.
عزة مبتسمةً: وأنتِ أجمل ياصغيرتي.
وتركتهم عزة ومضت، مالك: افتحي كتبك وكفاك كثرة كلام.
فتحت سنا كتاب الحساب أولًا لأنها المادة التي تكرهها كثيرًا ولا تفهم منها شيئًا غير العد وأشكال الأعداد، قالت لمالك: أريد حل هذه المساءل كما تقول الأستاذة منى.
قال لها: هل تستطيعين قراءة هذا العدد؟.
نظرت للعدد وقالت: اثنين خمسه واحد.
قال: هذه الأعداد تقسم لثلاث خانات، الخانة الأولى تسمي خانة الآحاد والخانة الثانية تسمى خانة العشرات، والخانة الثالثة تسمى خانة المئات، العدد اثنان هنا يقع في خانة الآحاد وينطق كما هو (اثنان) لأنه يمثل اثنين فقط، وكل عدد يأتي في هذه الخانة ينطق كما هو، والعدد خمسة يقع في خانة العشرات وينطق خمسون لأنه يمثل خمس عشرات من الأعداد، وكل رقم يقع في هذه الخانة يمثل عدده من العشرات، يعني لو كان عدد أربعة ينطق أربعون، أما العدد واحد هنا يقع في خانة المئات ويمثل مائة وكل رقم يقع في خانة المئات يمثل عدده من المئات ، أي لو وقع في هذه الخانة العدد اثنان سنقرأه مائتين.
وكرر لها هذا الشرح ثانية علي رقم مختلف وقال لها: الأعداد تبدأ قراءةً من الشمال إلى اليمين، يعني أننا سنقرأ هذا العدد كذلك نبدأ بقراءة المئات أولًا ثم نذهب لخانة العشرات ونقرأ العدد الذي بها وننطق آخر عدد هو عدد العشرات.. انتبهي جيدًا سأقرأ لك العدد الآن كاملًا، ونبدأ بالعدد الأول من ناحية الشمال، مائة خانة المئات.
وأشارعلي العدد الأخير من ناحية اليمين خانة الآحاد وقال: اثنان.
وأشار علي العدد الذي يقع في المنتصف خانة العشرات وقال: وخمسون ،مائة اثنان وخمسون، هل فهمتِ ما أقول؟.
أومأت سنا رأسها وقالت:
- نعم مائة واثنان وخمسون.
وهي تشير بإصبعها فوق كل خانة،مالك: سأكتب لك عددًا آخر.
كتب لها مالك عددًا آخر أخطأت في خانة واحدة منه، فكتب لها عددًا آخر قرأته صحيحًا بأكمله، وكلما قرأت الأعداد بصورة صحيحة شجعها وأثنى عليها، انتهي درس الحساب وفتحت كتاب القراءة اللغة العربية، سألها: هل تستطيعين قراءة هذه الكلمة (ذهب)؟.
قالت: ذا ها با.
قال: لا بأس مع تكرار القراءة ستتعلمين القراءة جيدًا ، هل تعرفين الفرق بين اللام القمرية واللام الشمسية؟
نظرت له في صمت فقال لها: الفرق بين اللام الشمسية واللام القمرية، اللام الشمسية تكتب ولا تقرأ يعني لا تظهر في الكلام ككلمة الصباح، أما اللام القمرية فتكتب وتقرأ ككلمة المساء.
قالت: وكلمة مالك بها حرف اللام.
ابتسم وأردف قائلًا: سأكتب لك الآن كلمات وتعيدين قراءتها في البيت وتكتبينها مرة أخرى.
سنا بسعادة: سأفعل.
كتب مالك عددًا من الكلمات في كراسة فارغة وقرأها عليها أكثر من مرة حتى التصق نطقها في ذهنها، مالك أردف قائلًا: انتهينا اليوم.

لملمت سنا كتبها في حقيبتها وقالت: سأعود الآن قبل أذان المغرب لأنني قلت لأمي سأذهب وأذاكر مع (زينة) ابنة عم (رمزي)، وأعود قبل المغرب.
مالك: ولماذا لم تخبريها بالحقيقة؟.
سنا: هي كانت الحقيقة أنا كنت أنوي أن اذهب لزينة ولكنني ووجدت نفسي اسأل عن بيتك.
ابتسم مالك وقال: إذن لابد أن تخبريها بالحقيقة عندما تعودين للمنزل يا ذات الضفائر.
مضت سنا للخارج وعادت ثانيةً وقالت له: لماذا تقول لي يا ذات الضفائر؟
ضحك مالك وقال: لأن شعرك منقسم لضفيرتين جميلتين.
قالت له بحزن: أخي يقول لي عنهما (قرنين).
ثم تركته وذهبت، اتبعها بنظره وهو يقف بجانب الباب حتى اختفت في الشارع المنحدر، عادت للمنزل وأخبرت والدتها بما حدث فقالت لها والدتها: كيف تذهبين للمدرس في بيته؟ ماذا يقول علينا؟.
سنا بثقة أردفت: هو الذي قال لي إن احتجت شيئًا تعالي إليَّ في البيت.
وتركت والدتها ودلفت للحجرة وأخرجت الكتب وراحت تردد الأعداد وتحاول قراءة الكلمات بتهتهة لكنها لم تيأس، مرَّ الليل وجاء الصباح ذهبت سنا إلى المدرسة في نشاط وحماس، دلفوا لداخل الفصل وجلست هي في مقعدها بآخر الصف، بعد قليل دخلت الأستاذة منى، تذكرت سنا الكلام الذي قاله مالك لها أن منى تريدها أفضل فتاة؛ فلم تخف من دخولها تلك المرة وهي المرة الأولى التي ابتسمت فيها لدخول مني ، مني بصوت عال: اخرجوا كتبكم.
أخرجت سنا بهمة كتابها وكراساتها، وبدأت منى في الكتابة على السبورة، تبقى مشكلة سنا كما هي فإنها لا ترى الكلام من فوق السبورة، مالت علي وقالت لـ (منال) التي تجلس بالمقعد الذي أمامها: هل تسمحين لي يا منال أن أنقل منك ما تكتبه الأستاذة منى فوق السبورة؟.
منال بغرور: لا لا لن أسمح لك، ولو تحدثت ثانية سأقول للأستاذة منى.
سنا ببكاء: لكنني لا أستطيع أن أرى الكلام فوق السبورة!.
منال: لا يعنيني ذلك.
سنا مدت يدها وخطفت كراسة منال من أمامها دون تفكير، منال بذعر: اتركي كراستي.
ولكن سنا قبضت عليها بقوة فجذبتها منال من يدها بقوة فانشقت الكراسة لنصفين، فانفجرت منال ببكاء عالٍ ونظر لها جميع التلاميذ والتلميذات، ونظرت لها منى واقتربت منهم لتفهم ما الذي يبكيها، أردفت قائلة: لماذا تبكين هكذا يا منال؟.
منال ببكاء: هذه الفتاة مزقت كراستي أستاذة منى دون أن أفعل لها شيئًا.
نظرت منى لسنا وغضب العالم يطل من نظرتها، أردفت قائلة وهي تجز على أسنانها: لا فائدة ولا توقف عن تصرفاتك الحمقاء..
ثم قالت بصوتٍ عال: مدي يدك أيتها الغبية لم أعد أحتمل تصرفاتك تلك حقًا.
وهوت على يدها بعشر ضربات متتالية بالعصا البلاستيكية حتى أحست سنا أنها فقدت يدها لم تعد تشعر بكفها المحترق، لم تبك مطلقًا.. يا لها من فتاة صبورة!! لكن روحها كانت تتمزق ونفسها تحترق، لم تكتف المعلمة بعقابها ضربًا بل ألقت بكتبها على الأرض وجعلت منال تمزق لها كراستها وأخرجتها من المقعد وجعلتها ترفع يدها فوق السبورة ساعة كاملة..
دق جرس الحصة الثالثة فلملمت المعلمة حاجياتها وأمسكت بعصاها وهمت بالخروج، كانت سنا ما زالت ترفع ذراعيها مولية وجهها نحو السبورة، دلف مالك في تلك اللحظة قبل خروج المعلمة، ألقى السلام فردت المعلمة السلام بابتسامة ووقف الأولاد احترامًا لدخول مالك، انتبه مالك لوجود تلميذة تقف بظهرها وترفع يديها على السبورة، رأي الضفيرتين المتدليتين فوق أذنيها فعرفها، تنهد بعمق وأردف قائلًا: أستاذة منى لماذا تقف هذه التلميذة بهذا الشكل؟.
منى بامتعاض: لأنها تهجمت على زميلتها وشقت كراستها.
تعجب مالك من كلامها وقال: أهي فعلت ذلك؟!.
منى باستفسار: أتقصد أنني أكذب عليك؟! الفصل جميعه شاهدًا علي ما أقول!.

لم يولِ لكلام المعلمة اهتمامًا واقترب من سنا وقال برفق: انزلي ذراعيك يا سنا.
أنزلت سنا ذراعيها وهي ما زالت تتجه نحو السبورة تشعر بالحرج من النظر إليه ولزملائها، رآها وهي تمسح دمعة فرت من عينيها وكأنها كانت تجاهد نفسها في ألا تبكي، مالك بصوت يحمل الكثير من الرفق: انظري إليَّ يا سنا.
لفت الصغيرة جسدها ونظرت للأرض وهي تحاول كتمان شهقاتها..
- هل حقًا تهجمت علي زميلتك وشققت كراستها؟.
لم تنبس ولكنها انفجرت في بكاءٍ حار ورفعت يدها تخبئ وجهها، فلاحظ مالك زرقة كفها من أثر ضرب قاس تعرضت له، فقال بغضب: هل أنتِ حقًا تهجمت على زميلتك وشققت لها كراستها؟ تكلمي يا سنا.
منى بتساؤل: أستاذ مالك أتشك في صدق كلامي أم ماذا؟!.
نظر مالك لمنى وقال بعد صمت: عفوًا أستاذة منى لا أشك في صدق كلامك لكن ربما للأمر وجهة أخرى نحن لا نعرفها.
منى أشارت لمنال أن تأتي وقالت لها: قصي ما حدث بالضبط للأستاذ مالك.
مازالت سنا تضع يدها فوق وجهها وبكاؤها لم يتوقف لحظة واحدة، مالك: قصي يا منال ما حدث بالضبط ولا تخافي.
منال والتي أوشكت على البكاء هي الأخرى قالت بخوف: سنا طلبت مني أن تنقل من كراستي ما كتبته الأستاذة منى فوق السبورة، وأنا رفضت ذلك وقلت لها أنني سأخبر الأستاذة منى لو طلبت مني ذلك ثانية لأنها كانت تشغلني عن الكتابة، وفجأة قامت وخطفت الكراسة من أمامي دون أن أسمح لها بذلك فحاولت أن آخذها منها ولكنها رفضت فأمسكت بالكراسة وحاولت جذبها فجذبتها هي أيضًا فانشقت بيننا، هذا كل ما حدث .
وبكت هي الأخرى قال لها مالك: لا تبكي ولاتخافي ياصغيرتي، وعودي لمكانك الآن.
عادت منال لمكانها وأمسك مالك بكفي سنا وأزاحهما من على وجهها فأشحات بوجهها خجلًا منه، خجلًا من أنها أصبحت فتاة سيئة في نظره، قال لها: لماذا فعلت هذا يا سنا؟.
رفضت أن تتكلم وزاد بكاؤها حتى أحمرت عيناها وتحشرج صوتها، كان مشهدها مشهدًا محزنًا حزن له قلب التلاميذ رغم تنمرهم عليها، أردفت المعلمة: إنها فتاة كاذبة وكل زميلاتها تأذين منها.
قام مالك من مكانه وقال بصوتٍ عال: منال لماذا طلبت منك سنا أن تنقل من كراستك؟
منال بصدق الأطفال قالت: لأنها تقول أنها لا تري الكلام من فوق السبورة.
نظر مالك لمنى وقال لها: أستاذة منى أريد التحدث معك بعض الدقائق.
وخرج مالك لحجرة المعلمين وتبعته منى، قال لها: أستاذة منى نحن قبل أن نكون معلمي مواد علمية نحن معلمو إنسانية ورحمة أولًا، وما فعلته بتلك الطفلة وما تفعلينه بالأطفال لا يبت للإنسانية ولا يجوزأن يفعل في مكان لطلب العلم، كان من الواجب عليك بدلًا من أن توقعي بها هذا العقاب القاسي اسأليها لماذا تتصرف هكذا، ابحثي عن المشكلة التي تعاني منها.
منى بغضب: أنا لا أسمح لك أن تتحدث معي بهذه الطريقة أستاذ مالك!.
كان مالك منفعلًا فهتف بغضب: أيحق لك أن تحاسبي طفلة على ارتكاب خطأ خلفه مشكلة دون أن تبحثي ما سبب تصرفها؟ ما وراء هذا التصرف؟ لقد تكرر تصرف الفتاة ورغم ذلك تكررعقابك لها بنفس القسوة، أنت هنا لتبني نفوسًا لا لتهدميها وتحطميها.
منى بصوت غاضب: كفى، هناك مدير للمدرسة يأخذ لي حقي.
ومضت من أمامه باكية، وعاد مالك للفصل ثانية، وجدها تخبئ نفسها بجانب الباب وكفيها على وجهها وما زالت تبكي بكاءً متواصل ، تركها علي حالتها ووقف بمنتصف الفصل، تنهد بعمق وقال: زميلتكم ارتكبت خطئًا كبيرًا لأنها أخذت كراسة زميلتها بدون استئذان، ولكن هل سأل أحد منكم نفسه لماذا تتصرف زميلتكم مثل هذه التصرفات؟ لماذا تلح على من يجلس بجانبها أن تنقل من كراسته ما يكتب على السبورة؟ ورغم قالت السبب قبل ذلك وقالته لزميلتها، إنها لا

ترى الكلام جيدًا من فوق السبورة، شيء خارج إرادتها، طلبت من زميلتها لأنها لا تستطيع رؤية السبورة جيدًا وتحتاج للمساعدة، ألم يعلمكم أحدٌ أن تساعدوا المحتاج عندما يحتاج لكم؟ زميلتكم تحتاج لكم فكيف تتخلون عنها ولا تمدوا لها أيديكم؟!.

وأمسك مالك بكف سنا الذي كسته الزرقة: أتريدون لأنفسكم أن يعاقب منكم واحد مثل هذا العقاب القاسي لأنه فقط يحتاج لمساعدة زميله؟!.

تأثر التلاميذ رغم صغرعمرهم بكلام مالك، مالك:

- وأنت يا (فاطمة)، وأعلم أنك فتاة بمستوى جيد وعلى خلق، هل حقًا أرادت سنا أن تغش منك؟.

قامت فاطمة وقالت ببكاء: طلبت مني أن تنقل الأسئلة.

مالك: إذن كانت تحتاج منك فقط أن تنقل الأسئلة ولم تقل لك أريد حل الأسئلة؟

فاطمة: نعم طلبت ذلك فقط.

مالك: ولماذا لم تخبري الأستاذة منى بذلك؟.

صمتت فاطمة ولم ترد..

- اجلسي يا فاطمة.

قالها مالك، قام أحد التلاميذ واسمه (علي) وهو تلميذ متفوق وقال: هل تسمح لي أستاذ مالك أن أكتب لسنا كل الدروس من فوق السبورة بعد أن انتهي من الكتابة في كراستي؟

مالك بسعادة: أشكرك على هذا الشعور الطيب ياعلي!.

وقام تلميذ آخر وكرر الكلام ذاته، وقامت تلميذة أخرى وطلبت من مالك أن تجلس سنا بجانبها وستجعلها تنقل من كراستها، سعد مالك بشعور التلاميذ وتغيرهم المفاجئ، لم يظن أنه سيكون لكلماته أثر في نفوس هؤلاء الأطفال بهذه السرعة، لكن حقًا هم أطفال كلمة واحدة تغير قلوبهم ونفوسهم، اقترب من ذات الضفائر وقال: سنا اعتذري لمنال عما فعلته.

فاطمة: هل تسمح لي أستاذ مالك أن أعتذر أنا أيضًا لسنا؟

مالك اومأ بالإيجاب في سعادة، فخرجت فاطمة وقالت لسنا: اعتذرلك، اجلسي بجانبي في الأمام حتى تستطيعي رؤية الكلام المكتوب فوق السبورة.

كانت سنا قد أخرجت ما تختزله من بكاء وقهر وهدأت ثورتها، لكنها كانت في حالة صمت تام كالذي يسكت عندما يتعرض لصدمة قوية، قطع ذلك المشهد دخول الأستاذ (منصور) مدير المدرسة وعم مالك أيضًا، والذي يبلغ من العمر سبعة وخمسين عامًا ، قال بهدوء: أستاذ مالك تفضل لغرفة المعلمين.

ذهب مالك خلفه ودلفوا لغرفة المعلمين التي كانت تجلس بداخلها منى، جلس منصوروظل مالك واقفًا، يعلم أن منى قد اشتكته ..

منصور: مالك، تعجبت كل العجب أن الاستاذة منى اشتكتك من أول أسبوع تلتحق فيه بالعمل بالمدرسة، لو أنها اشتكت أي معلم آخر لما عجبت وأنا أعلم أدبك ووقارك وعدم تدخلك في شؤون الغير!.

مالك: أعتذر أستاذة منى أولًا، وثانيًا أظن يا أستاذ منصور أن أسلوب الضرب في المعاقبة حرم من قبل وزارة التربية والتعليم، وأنتم هنا مازلتم تطبقونه وبقسوة.

حرك منصور نظارته وقال: ماذا تعني يا مالك؟.

مالك: انتظر يا أستاذ منصور..

ذهب مالك للفصل واصطحب سنا من بين زميلاتها اللاتي التففن حولها، وذهب بها لغرفة المعلمين ، ومد كفها أمام الأستاذ منصور وقال: أستاذ منصور، أترى هذه الزرقة التي تكسو يد الفتاة؟ هي أثر عقاب قاسٍ من الأستاذة منى لهذة الفتاة.

منصور: ألهذه الدرجة كان عقاب الطفلة أستاذة منى؟

ازدردت منى ريقها وقالت: عاقبتها على فعلتها الكبيرة.

وقصت للمدير ما حدث وقص مالك أيضًا ما حدث، فكان حكم المدير عدم تدخل مالك في عمل منى، وتقبلت منى عذر مالك لأنها معجبة به، وقد سمعت من إحدى أقاربها أن والدة مالك ذكرت اسمها في المرشحات للزواج منه، انتهى اليوم الدراسي وسنا مكتسبة تعاطف كل زملائها أولاد وبنات، كانت ما تزال تشعر بالصدمة رغم كل ما حدث القرب بعد الاساءة والكسر لا يدواي المشاعر بتلك السرعة، كانت حزينة ووجهها شاحب ترتسم عليه علامات كسرة النفس ، وضعت سنا حقيبتها خلف ظهرها ومضت منتصف الطريق، لحق بها مالك وقال: ألم تقولي بالأمس أنك ستعودين معي كل يوم؟.

وقفت ونظرت للأرض وقالت: أتراني الآن فتاة سيئة؟!.

رفع وجهها بيده وقال: لماذا تقولين ذلك ياصغيرتي؟!.

سنا وخفضت وجهها مرة أخرى: أقول لما حدث اليوم وما حدث قبل ذلك.

مالك: هل أسالك سؤالًا وتجيبني بالحقيقة؟

- نعم.

- لماذا لا تستطيعين رؤية الكلمات فوق السبورة؟

صمتت سنا طويلًا وقالت: كل الأشياء البعيدة لا أستطيع رؤيتها.

مالك: هل أخبرت والدتك وإخوتك بهذا؟

- نعم، قلت لوالدتي وكررت لها هذا الكلام عشرات المرات.

مالك: وماذا فعلت؟

سنا وهي تمد خطواتها: لا شيء.

مالك: ألم تعرض عليكِ أن تذهب بك إلى الطبيب؟.

سنا: طبيب، وما الطبيب؟!.

مالك: الطبيب شخص طيب يكشف علينا عندما نشعر بألم ويقوم بعلاجنا.

سنا: ولكنني لا أشعر بألم!.

مالك: ولكنك لا تستطيعين رؤية الكلام من علي بعد.

- وهل يستطيع هذا الطبيب أن يجعلني أرى من فوق السبورة.

مالك: لنذهب إليه أولًا ونرى.

قالت: ولكن أمي لن ترضى أن تذهب بي لهذا الطبيب الذي سيجعلني أرى الكلام فوق السبورة.

مالك: هل لديك بطاقة صحية تابعة للمدرسة؟.

- نعم استلمت من المدرسة كراسة حمراء وقالوا لنا إنها البطاقة الصحية حافظوا عليها.

قال لها مالك: وهل ما زالت موجودة معك أم مزقتها؟

- لا لم أمزقها، أحتفظ بها في خزانة أمي.

مالك بعد تفكير: غدًا اجلبيها معك، اتفقنا؟.

سنا: اتفقنا.

فكر مالك قليلًا وقال: "من المفترض أن الغد ستقام حفلة في المدرسة بمناسبة افتتاح العام الدراسي الجديد، هذه فرصة ولكن عليَّ أن أستأذن من أهلها أولًا بأي طريقة"..

مالك هتف بحماس: سنا سأذهب معك للبيت!.

سنا بسعادة مكسورة: حقًا؟!.

قال: حقًا.

وذهب مالك مع سنا لمنزلهم وقال لها:

- لن أستطيع الدخول إلا إذا سمح لي أخوك أو والدتك. فدلفت سنا للداخل ووقف مالك في الخارج وطرق الباب بأدب، جذبت سنا والدتها من ثوبها وقالت:

-أمي هناك شخص يريد أن يدخل بيتنا ولكن قال لن ادخل قبل أن تسمح لي والدتك.

خرجت والدتها خلفها وهي تقول:

- من هذا الشخص يا آخر صبري؟!!.

والدة سنا نظرت خارج الباب فوجدت شابًا ينظر للأرض في أدب وحياء، أردفت قائلة: من أنت يا ولدي؟
رد مالك بأدب وقال: أنا مالك معلم سنا في المدرسة.
أم سنا: أأنت مالك؟ إنها لم تكف عن الحديث عنك طيلة ليلها ونهارها، فلتتفضل بالداخل يا ولدي.
مالك: شكرًا سأقول شيئًا وأذهب يا خالتي، المدرسة تقدم كشفًا طبيًا مجانًا للأطفال، فهل تسمحين لي باصطحاب سنا للكشف غدًا؟
الوالدة: ولكن ابنتي لا تشتكي من شيء!.
فكر مالك قليلًا وقال: هذا الكشف ضروري لكل الأطفال، والطفل الذي يكتشف الطبيب لديه أي مرض أو عرض يكتب له الدواء مباشرة مجانًا.
والدة سنا: لتذهب وما يضرنا من ذلك؟
سعد مالك بموافقة والدة سنا وقال: أشكرك، ولا تنس ياسنا أن تجلبي معك البطاقة الصحية.
سنا قالت بسعادة: حاضر!.
واقتربت منه وأمسكت بيده وقالت: تعال إلى الداخل يا مالك لترى بيتنا وغرفتي.
مالك بحياء: وقت آخر.
والدتها: يا قليلة الحياء أتنادي معلمك باسمه دون لقب؟!.
سنا ببراءة: لأن والدته تناديه مالك فقط!.
استأذن مالك وعاد لمنزله، واستبدلت سنا ثيابها ونامت وهي تحلم بالطبيب الذي سيجعلها ترى الكلام فوق السبورة، كان في هذا الوقت حلمها الأكبر والأعظم أن ترى الكلام الذي يكتب فوق السبورة وتستطيع قراءته كباقي زملائها، أشرق الصبح واستيقظت سنا متلهفة وأيقظت والدتها وتلك هي المرة الأولى التي تستيقظ فيها قبل والدتها، استبدلت ثيابها وارتدت مريول المدرسة ولم تذهب للمدرسة بل ذهبت وجلست أمام بيت مالك رغم برودة الجو، بعد مضي وقت أحست سنا أنه دهر كامل خرج مالك فوجد جسدًا صغيرًا يجلس أمام البيت وينكمش على ذاته، اقترب منها وقال متعجبًا: سنا ما الذي جعلك تجلسين هنا؟!.
سنا بصوت مرتعش: أنتظرك حتى تخرج ونذهب للطبيب.
أمسك مالك كفها الذي أصبح كلوح ثلجي، فرق لحالها ونفخ داخلها فأحست بدفء يدها قليلًا، قالت بعجلة:
- لنذهب الآن يا مالك.
مضى وهو يمسك بيدها حتى وصلا لطريق القرية الذي يصل للجسر، كانت تحمل الحقيبة الممتلئة بالكتب والكراسات وتمسك بيدها البطاقة الصحية، فكانت تشعر بالعناء من حمل الحقيبة في طول الطريق الذي يمضونه، مالك الذي أحس بنهج أنفاسها وهي لم تكف السؤال والحديث لحظة واحدة منذ خروجهم:
- اعطني تلك الحقيبة أحملها عنك، لماذا أتيتِ بها؟
سنا التي فرحت دائمًا مالك ينقذها من الأشياء الصعبة والمتعبة وقفت وأنزلت الحقيبة من فوق ظهرها ومدتها لمالك، ضحك مالك وقال لها:
-أتحملين حقيبة أكبر من حجمك؟
قالت له: أتعلم لماذا أقول لك يامالك خارج المدرسة؟
وصلوا للجسر بعد عناء ووقفوا ينتظرون سيارة تقلهم للمشفى العام حتى يكشف عليها الطبيب، قالت له: أقول لك لماذا أقول لك يامالك؟
قال لها: أنت فتاة ثرثارة وتكررين الكلام ذاته!.
- وما معنى ثرثارة؟
- تعني كثيرة الكلام.

سكتت قليلًا ثم قالت: أقول لك، لأنني أرى زوجة أخي تنادي أخي باسمه دون أستاذ، ولأنني سأتزوجك عندما أكون طويلة مثل حجمك، أقول لك مالك..

أتت سيارة دلفوا لداخلها وأجلسها مالك بجانبه، كانت تنظر بسعادة حولها للجسر ولكل شيء وتشعر أنها ذاهبة لرحلة لا للكشف، وصلوا للمشفى ودلفوا للداخل، قدم مالك بطاقتها الصحية في القسم الخاص بطبيب النظر، قالت له الممرضة:

- انتظر قليلًا، بالداخل كشف سيخرج الآن.

سنا كانت تنظر حولها يمينًا وشمالًا للمشفى الكبير والمرضى الكثيرين المتواجدين، قالت لمالك:

- أكل هؤلاء الناس لا يرون الكلام فوق السبورة؟

ضحك مالك مقهقهًا وقال لها: هيا سندخل للطبيب.

دلفوا لداخل غرفة الكشف وألقى مالك السلام على الطبيب، وقص له مما تشكو به سنا، قام الطبيب بإجراء الكشف علي عينيها واختبر قوة نظرها، سأل الطبيب مالك:

- أهي أختك؟

أجاب مالك: نعم.

الطبيب تنهد بعمق وقال: كان يجب أن تعرضها على طبيب منذ عام على الأقل.

مالك: أخبرني أيها الطبيب مم تعاني؟

الطبيب: تعاني من حالة استجماتيزم سببت لها نقصًا في درجات النظر، والمشكلة الأكبر أن النظر يظل في تناقص في هذه الحالة لدرجات عليا إن لم يتم علاجه.

مالك بخوف: أيوجد له علاج؟

الطبيب: أولًا سترتدي نظارة طبية لتعالج نقص النظر الذي أصابها ويحافظ أيضًا على ما تبقى من نظرها، وعندما تكمل ثمانية عشر عامًا من عمرها تستطيعون إجراء عملية ليزك لعينيها وستعود للرؤية الطبيعية، أما الآن لابد أن ترتدي النظارة.

دون الطبيب قياس نظر كل عين في خانة وسلمها لمالك، وقال له:

- المكان الذي يصنع النظارات الطبية ليس ببعيد من هنا، ستجده خلف المشفى مباشرة.

خرج مالك يحمل حقيبتها ويمسك بيدها وذهب للمكان الذي وصفه له الطبيب، نظر الشخص المسئول عن تلك النظارات للقياس وقال:

- لمن هذه النظارة؟

قال مالك: لهذه الفتاة.

نظر لها الرجل وقال: وجهك صغير جدًا، لنرى ما الشمبر الذي سيناسب وجهك.

كانت سنا سعيدة جدًا بكل شيء يحدث، وضع الرجل عدد من الشنابر على وجهها، أخبر مالك بأنه لا يوجد شنبر بمقاس وجهها ولذلك هذه النظارة لن تكتمل إلا غدًا، قال مالك:

- لديها ولدي مدرسة ولا نستطيع أن نأتي غدًا.

قال: إن أردتها على عجل عليك أن تدفع قيمة أكبر.

مالك: أدفع ولكن انتهِ من عملها اليوم أرجوك.

قال الرجل: انتظراني هنا سأعود.

وغاب الرجل وقتًا طويلًا ثم عاد وأخرج نظارة صغيرة الحجم من علبة وقال لسنا:

-ارتديها لنرى

التقطتها سنا بسعادة وارتدتها وهي تحملق نظرها، قالت بسعادة:

- مالك، أنا أرى الأشياء واضحة!! هناك مكتوب على اليافطة حرف (ا).

سعد مالك لسعادتها ودفع ثمن النظارة من ماله الخاص، وعندما عاد أخبر والدتها أنَّ المدرسة تكفلت بعمل النظارة لها، وأكد عليها أن تحافظ على نظارة سنا لأنها ستحفظ نظرها من النقص، كما أنَّ أطفال المدرسة كلهم سيرتدون نفس النظارة، شكرت والدة سنا مالك وألحت عليه

بالدخول ولكنه رفض، وعاد لمنزله يفكر في كل كلمات سنا البريئة.. "ما هذا الجنون يامالك؟ تفكر بكلام طفلة، بل ويكون كفيل بإسعادك!"..

مضى اليوم وجاء اليوم التالي، ذهب مالك للمدرسة وذهبت سنا ترتدي نظارتها وكأنها استبدلت لإنسانة أخرى تنظر لكل شيء من حولها بسعادة، ترى مالم تشعر أنها كانت تراه قبل ذلك، نظر لها الأولاد والبنات والكل يريد أن يرتدي نظارة مثلها، جلست في الأمام بجانب فاطمة وكان مالك عليهم الحصة الأولى، كتب مالك موضوع الدرس، رأته سنا فأحست بسعادة، كان مالك ودودًا طيبًا مع كل التلاميذ والتلميذات، انتهى اليوم ومضى أسبوع وأسبوع آخر، التف التلاميذ حول مالك في هذه المدة القصيرة، أما منى كانت تحاول كسب ود مالك فخفت من حدتها وقسوتها في التعامل مع التلاميذ، تقدم وضع سنا الدراسي بمساعدة مالك، أعجب المعلمون والمعلمات بأسلوب مالك ولينه ومعاملته الطيبة للتلاميذ..

بداية التيرم الدراسي الثاني، لعلك الآن عزيزي القارئ تتخيل التقدم الذي وصلت له ذات الضفائر، لقد رضيت عنها منى بعد أن كفت عن سؤال أحد، وأصبحت فتاة متفوقة لا لأنها تتمتع بذكاء فائق بل لأنها استعادت ثقتها بنفسها، لأنها أصبحت تشعر أنها مثلها مثل باقي الفتيات لا تنقص شيئًا عنهن، ترى بالنظارة البعد الذي يرونه، أصبحت تجلس في الأمام وتقرأ الكلمات المكتوبة فوق السبورة وتكتب من فوق السبورة، (*_*) رسمت هذا الوجه وكتبت تحته مالك الذي يبتسم في وجهها دائمًا وأبدًا وفي وجه كل التلاميذ، كان هدفه يعلمهم لا يأمرهم ويعاقبهم ، أوصى المعلمين بتخفيف معاقبة الأطفال واقترح عليهم أن يكون العقاب مفيدًا لهم، أن يتعلموا بدلًا من أن يضربوا فالذي يخطئ لا يتم ضربه أو صلبه مرفوع الذراعين فوق السبورة، بل اقترح أن يكون عقاب الطفل تصحيح الشيء الذي أخطأ فيه نفسه أن يأتي اليوم الثاني ويجيب عن نفس السؤال، من المعلمين من طبق هذا العقاب ومنهم من تمسك بطريقة العقاب بالضرب، اقترح مالك أن تقام أنشطة أيضًا بجانب الدراسة للترويح عن الأطفال مثل إقامة مباريات كرة قدم بين فصل وفصل آخر والذي يفوز يحظى بجائزة بسيطة، وإقامة مسابقات فنيه وتمثيلية وكانت لا يتم هذا إلا بأخذ آراء المعلمين، تمت الموافقة على بعض منها ووجد أيضًا المعلمون فيها ترويحًا عن أنفسهم، كانت تقام الأنشطة بعد انتهاء اليوم الدراسي أو أثناء وقت الفسحة، لم تؤثر تلك الأنشطة الإضافية على وقت الدراسة الأصلي، كان أثر مالك يظهر يومًا بعد الآخر، ما يفعله لاقى ترحيبًا كبيرًا من التلاميذ، اقترح أيضًا على إدارة المدرسة أن تقوم برحلة لأي مكان، وخاصة أن العام الدراسي اقترب على الانتهاء ولا يوجد ما يمنع إقامة رحلة يوم الجمعة، وافقت إدارة المدرسة على اقتراح إقامة رحلة لأي بلد والاختيار وقع على مدينة الأقصر، أبلغت إدارة المدرسة التلاميذ لكل من يرغب الذهاب في تلك الرحلة يدفع خمسة عشر جنيهًا مصاريف للرحلة، صباح اليوم الثاني جلب معظم التلاميذ المال المطلوب للذهاب للرحلة، أما سنا فكانت حزينة مكظومة، انتهي اليوم الدراسي ومضت سنا للخارج دون أن تنتظر مالك، لحق بها في نهاية الطريق واستوقفها وقال لها:

- يبدو أن صغيرتي ليست على ما يرام، مالي أرى علامات الحزن تكسو وجهها؟

قالت: مالك، أكرهك.. أنا اكرهك ولا أحبك!.

وقف مالك متعجبًا وقال لها: أنتِ فتاة جريئة للغاية لكن لماذا يا ذات الضفائر؟

- لانك وقفت اليوم تتحدث مع منال.

ضحك مالك وقال: وما المشكلة في ذلك يا صغيرتي؟!

أردفت سنا:

- لا أعرف ولكني تضايقت من ذلك فلا تكررها.

مالك متعجبًا: تحدثيني بلسان فتاة بلغت من العمر اثنين وعشرين عامًا لا فتاة تسع سنوات!!.. اسمعي يا سنا، كما قلت لك من قبل إنني أحبك جدًا مثل أخوك، وأحب منال وفاطمة وسمر وناهد أيضًا كذلك.

وقفت سنا صامتة فقال لها: ألن تذهبي للرحلة مع زميلاتك؟

قالت: أمي رفضت وأنا لا أود الذهاب.
وهو يعلم أنها تريد الذهاب ولكن والدتها رفضت أن تعطيها المبلغ، قال لها:
- المدرسة ستتكفل بمصاريف الطالب الذي سيحصل على الدرجات النهائية في اختبار الشهر الحالي.
مضت من أمامه بنظارتها دون أن تتحدث بكلمة واحدة، عند قراءة تلك السطور ستظن عزيزي القارئ أن سنا قد أحبت ذلك الشاب منذ طفولتها، علي أن أوضح لك أنها كانت قبل أن تراه في حرمان عاطفي وفي حرمان من الاهتمام ومن الحب ومن نظرة العطف، فما بالك أن تجد إنسانًا يمنحها كل هذه المشاعر دفعة واحدة، مالك ملأ شيئًا من فراغ مشاعرها، ربما تقول أيضًا وهل للطفل مشاعر؟ وهل يشعر بحرمانها ونقصها؟ أقول لك نعم، بل أن الطفل يمتلك مشاعر مضاعفة أكثر حساسية من البالغين، يتجه دون تفكير ممن يهتمون به ويرعونه فيحبهم بلا تكليف وبلا تفكير، على كل الآباء والأمهات أن يملأوا تلك المساحة الفارغة من قلوب أطفالهم، وأن يحتووا مشاعرهم قبل أن تخرج للغرباء لحاجتهم للإحساس بالحب والاهتمام، لم تكف سنا عن حل المسائل ولا عن حفظ المعاني طوال الليل، وليلة اليوم الذي بعده حتي جاء يوم الاختبارات، كانت قلقة، الأمر لم يتعلق فقط بالنجاح.. الأمر يتعلق بذهابها للرحلة؛ خاضت الاختبارات بقلب قلق مرتجف ، منى لملمت الكراسات وجلست تعلمها في صمت دون أن تفصح عن أي نتيجة، دق جرس الفسحة وخرجت منى وبيدها الكراسات، انقضى وقت الفسحة ودخل التلاميذ فصولهم ودخل مالك الفصل وكتب الاختبار فوق السبورة، نقله التلاميذ وبدأوا في حله، الكل انتهي من الحل وسلم كراسته لمالك ما عدا سنا لم تنته بعد، انتهى اليوم الدراسي وخرج التلاميذ وهي ما زالت تجلس مكانها ومالك ينتظرها، مالك: ألم تنته بعد من حل الاختبار يا سنا؟
قالت بامتعاض: لقد انتهيت من حله أول واحدة.
تعجب مالك: ولماذا لم تسلميني كراستك؟!
قالت: أخشى أن أكون مخطئة.
قال متعجبًا: وإن كنت مخطئة ماذا سيحدث؟!
قالت: سأفقد درجات ولن أذهب إلى الرحلة.
قال لها: أن تنجحي وتثبتي تفوقك هذا أفضل إنجاز.
قامت من مكانها وسلمته كراستها وقالت له بابتسامة:
- أنا لا أفهم نصف كلامك، تأخرت علي العودة، اليوم زواج ابنة خالتي التي تقطن بنفس شارعكم.
وأمسكت بحقيبتها وأسرعت المشي في ساحة المدرسة، قال لها:
- أنتظرتك وأنت الآن تتركيني!
قالت: هاه نسيت!
وعادت وجذبت يده بقامتها القصيرة جدًا، ومضت مسرعة للخارج ومالك يتبعها بضحك وسخرية من قصرها، إنها تبدو في الحضانة، لا تبدو تلميذة بالصف الثالث، وصلت لبيتها، تركت يد مالك ودلفت مسرعة للداخل، حل المساء فتزينت والدتها وألبستها جلبابًا كانت قد حاكته لها تلك الخياطة التي قامت بحياكة ملابس العروس وهذه القطعة قد فاضت من ثوب من أثواب العروس، كانت سنا سعيدة بارتدائه فإن لونه الأحمر مبهج وكم هي تحب اللون الأحمر في الملابس، زينت والدتها ضفائرها بشرائط حمراء من نفس الثوب فكم كانت تبدو بريئة وجميلة، ذهبت سنا مع والدتها لفرح ابنة خالتها التي ستتزوج اليوم، وكان الفرح يقام أمام بيت العريس الذي يسكن أيضًا بنفس الشارع، العريس والعروس يجلسان تحت جدران بيت العريس على كرسيين مزينين والمزمار يدق أمامهما، السيدات تجلسن في المنزل والرجال يجلسون في صوان خارج البيت، صعدت سنا مع الفتيات إلى سطح المنزل لترى العرس وترى الرجال وهم يتراقصون بالعصا لفا حول بعضهم، ورأته يجلس فوق دكة يشاهد فنزلت مسرعة وكان لا

حرج عليها إن خرجت فهناك فتيات كثيرة صغيرة تشاهد من الشارع ذاته لا من أعالي أسطح المنازل ، ذهبت سنا لمالك وقالت له بصوت عالٍ حتى يسمعها مالك:
- ما رأيك في فستاني الجديد؟
نظر لها في صمت دون أن يرد ، قالت له وتذكرت الاختبار:
- كم كانت درجتي في الاختبار يا مالك؟.
مالك: اذهبي مع الفتيات فوق سطح للمنزل.
سنا: سأجلس هنا بجانبك.
مالك وقد احتد عليها بعض الشيء: اذهبي مع الفتيات قلت ولا تكثري من حديثك.
ذهبت سنا وجلست فوق السطح في مكان مقابل له، وكان كلما نظر للأعلى أشارت له بيدها فيضحك من تصرفاتها ويقول محادثًا نفسه "لو كانت هذه ابنتي لكانت أفقدتني صوابي"!..
كان الفرح جميلًا والليلة سعيدة، اصطحب العريس عروسه وانتهت الليلة وباتت سنا ووالدتها في بيت خالتها لتعد الصباحية غدًا بعد صلاة الجمعة ، أشرق الصبح، لم تستيقظ سنا بعجل بل استيقظت متأخرة علي رائحة الرقاق وتحمير الحمام الذي سيذهب لبيت العريس، انتهوا من إعداد الصباحية، وقفت سنا بإعجاب تنظر للحمام والرقاق وأصناف الطعام المختلفة التي ستذهب لبيت العريس، خالة سنا كانت تحبها جدًا فأمسكت بحمامة كبيرة وقالت:
- هذه لك وحدك يا سنا.
رفضت والدتها ولكن خالتها أصرت على ذلك وقالت لها: اذهبي إلى هناك والتهميها.
أعجبتها رائحتها ولكنها لم تأكلها بل وضعتها في كيس وخرجت ومضت نحو بيت مالك القريب من هنا، وطرقت الباب ففتح لها هو بنفسه قالت: حمدًا لله أنك أنت من فتحت الباب لا أعرف ماذا كنت سأقول لو أن والدتك هي من فتحت الباب.
قال: ماذا تريدين يا سنا؟.
قالت: أريد أن نأكل هذه سويا!.
نظر للحمامة التي يغلفها كيس بلاستكي وقال: من أعطاكِ هذه؟
قالت: خالتي وقالت لي لتأكليها بمفرك وأنا لا أستطيع أن آكلها بمفردي ففكرت مع من اقتسمها فلم أجد إلا أنت.
ضحك مالك وقال: أتظني أني ابن تسع سنوات الذي سيلهو معك ويقتسم معك الطعام؟ لا أعرف كيف يفكر الأطفال حقًا؟
وقفت سنا لا تدرك ماذا يقول مالك..
- سنا، عودي لبيت خالتك وكليها هناك كما طلبت منك.
قالت: لا لا ..
قال: اسمعي الكلام يا سنا واذهبي.
قالت وهي تضرب الأرض بقدميها بحركات طفولية: إن لم تأكل معي لن آكل أنا أيضًا وسأرميها للكلاب.
مالك: إني ذاهب الآن لأرى أرضنا الزراعية وليس لدي وقت.
قالت له: سأذهب معك سأذهب وأخبر أمي
قال لها: لا تذهبي وتخبريها، فأنا لن آخذك لأي مكان.
قالت: ولكني سأذهب معك سواء وافقت أو لم توافق، وللعلم إنني أذهب كثيرًا لأرضنا مع أخي.
قال لها مالك: هذا أخوك تذهبي معه لكن أنا...
قالت: ماذا أنت؟.
نفخ في الهواء بحنق وقال: لن أخرج اليوم للأرض، ارتحتِ؟.
قالت بسعادة: أنا سعيدة!.

وجلس مالك على مدخل الباب الذي يشبه السلالم الرخامية، وجلست بجانبه ذات الضفائر وأخرجت الحمامة واقتسمتها، وأصرت عليه أن ياكل، نظر مالك من حوله وتناولها بسرعة ونسي أنه كان ذاهب للأرض، وجلس يتحدث معها كأنها فتاة كبير وراشدة، قامت من جانبه وقالت:

- سأعود لبيت خالتي لأذهب معهم في الصباحية.

مالك كان يضحك من ثرثرتها عن اللعب والأشياء التافهة التي قصتها له قبل قليل، اقترحت عليه أن يلعب معها الغميضة والعسكري، إنها تجتره لعالمها الطفولي الغريب، أيترك نفسه يعيش هذا الوهم؟.. جاء السبت ولم تكن سنا بقلق الخميس، لم تهمها النتيجة، سلمت منى الكراسات، وضعت سنا كراستها هي في الحقيبة دون أن تنظر لها، ذاعت منى أسماء التلاميذ الذين حصلوا على درجات عالية ولم يكن من ضمنهم اسم سنا، لم تكترث سنا لأن مالك قال لها أن النجاح أهم من الرحلة، وقبل أن تنتهي الحصة قالت منى:

- وحصلت سنا على الدرجة النهائية!.

لم تصدق سنا، كانت الكلمة بمثابة صدمة قوية لها، هذه أول مرة تحصل فيها علي الدرجة النهائية أو تحصل على درجات أصلًا، قالت منى:

- جيد يا سنا، لقد تقدم وضعك في الدراسة كثيرًا.

لم يتغير جفاء منى في الحديث كثيرًا، انتهت حصتها وخرجت من الفصل ودخل مالك، تحدث عن الرحلة قبل أن يبدأ في شرح الدرس، قال:

- الرحلة ستقوم الجمعة القادمة كونوا علي استعداد يا صغاري، من منكم يود الذهاب للرحلة ولم يحصل من والديه على المصاريف؟ أريدكم أن تتحدثوا إلي بدون حرج أو خوف.

قام تلميذ وقال بحرج: والدي لم يعطني سوى عشرة جنيهات فقط.

اقترب منه مالك وقال: اعطني العشرة جنيهات واستعد للرحلة.

وقام آخر وفتاة قالوا لمالك إنهم يريدون الذهاب للرحلة لكنهم لا يملكون المال، لذلك فتحمل مالك مصاريف ثلاثة أطفال، لم يسلم كراريس الاختبار لهذا الشهر حتى بعد إلحاح التلاميذ، قال لسنا: كوني مستعدة للرحلة.

أما سنا لم تقم من مكانها ولم تكترث لما قاله ولم تتحدث، ومضى ذلك الأسبوع ولم تعد معه كما تعودت أن تعود برفقته لبيتها، جاء يوم الرحلة، التلاميذ الذين دفعوا المصاريف استعدوا بعد الفجر مباشرة للرحلة من فرط سعادتهم، وصلت الساعة السادسة حافلة كبيرة ووقفت أمام المدرسة، توافد التلاميذ بسعادة وكان مالك وباقي المعلمين والمعلمات في استقبال التلاميذ، والأستاذ (وائل) نادى أسماء التلاميذ الذين دونت أسماؤهم من قبل ودفعوا المصاريف ليثبتوا حضورهم، وكان آخر اسم يناديه سنا صالح، الأستاذ وائل بعدما نادى باسمها أكثر من مرة يبدو أنها لم تأت..

مالك: انتظرني بضع دقائق.

ذهب مالك لبيت سنا وطرق على بابه فخرجت والدتها وألقت تحية الصباح في تعجب، قال لها:

-أين سنا نحن نؤخر الرحلة بسببها الآن.

الأم متعجبة: رحلة ابنتي لم تدفع المصاريف الرحلة!.

مالك في عجالة: المدرسة منحتها رحلة مجانية لأنها حصلت على الدرجات النهائية في اختبار هذا الشهر.

والدتها قالت: إن كانت مجانية فلتذهب!.

دخلت وأيقظتها بصعوبة وقالت لها: أستاذ مالك ينتظرك في الخارج يا سنا ويقول هيا حتى لا تتأخري عن الرحلة.

قفزت من تحت الغطاء وقالت: مالك.. الرحلة!..

استبدلت ثيابها في أقل من دقيقتين وارتدت حذاءها وخرجت وقالت بلهفة: هل أنا حقًا سأذهب الرحلة؟.

جذبها من يدها دون أن يتحدث وادخلها الحافلة وأجلسها على كرسي وجلس هو، وتحركت الحافلة، كان غناء الأطفال متواصلًا طيلة الطريق سعداء بتلك الرحلة، وأخيرًا وصلوا مدينة الأقصر السياحية ذات الأعمدة الشاهقة والبنايات الصفراء، جابوا المعابد والحدائق وشوارع الأقصر، والمعلمين والمعلمات كانوا حريصين على سلامة الأطفال جميعًا، لم تفلت سنا يدها من يد مالك طوال الرحلة وهي تسأله وتثرثر بكثير من الكلمات، الأطفال تعترف بحبها دون تكليف وتفكير، وقفت سنا أمام مالك وقالت ببراءة:

- مالك، أنا أحبك يا مالك.. أحبك كثيرًا!.

أمام التلاميذ، كما اعترف له عدد آخر من التلاميذ بعد ذلك بحبهم لمالك، انتهى يوم الرحلة التي اعترفت فيه سنا بحبها لمالك، ومضت أيام كثيرة بل ومضت سنوات، انتقلت سنا للمرحلة الإعدادية ويا له من حظ عجيب، انتقل أيضًا مالك للتدريس بالمدرسة الإعدادية بعدما ترك بصمة من الرحمة والإنسانية في المدرسة الابتدائية، قام مالك بخطبة فتاة بعد محاولات أمه المتكررة، وسنا لم تصبح الطفلة التي كانت تلازم مالك في الرواح والمجيئ وتذهب له في المنزل وأحيانًا تخبئ له أجزاء من طعامها، بل كبرت الآن وأصبحت تشعر بالخجل عند رؤيته ولم تحاول التحدث إليه أبدًا طوال تلك الفترة التي انتهت، لكنها لم تنته بعد من داخله، هل تتذكرها؟ ما الفائدة؟ "علي أن اطوي تلك الصفحة من حياتي الآن"..

كانت هذه آخر كلمات كتبها مالك في مدونته قبل أن يقوم ويضع المدونة في الخزانة الخاصة به، دخلت عليه أمه وقالت: ألم تجهز نفسك حتى الآن يا مالك؟ لا أصدق أن أخوك الذي يصغرك بعدة سنوات سنذهب اليوم لنخطب له، ناهيك عن أخيك الذي بعدك تزوج ولديه طفل الآن، وأنت تطيح بالفتيات من حياتك واحدة تلو الأخرى!!.

مالك تنهد بعمق وقال: سأنتقل للعيش في بيتنا القديم فور أن يتزوج (محمود) يا أمي.

نوال: لماذا يا مالك؟ لا يوجد أحد غريب بيننا، زوجة (إسلام) هي ابنة خالك وتربت معنا، والتي ستكون زوجة أخوك تربت على يدك أنت، ألا تتذكر عندما كانت تأتيك بضفائرها وهي صغيرة؟ أصبحت الآن عروسًا وسنذهب لخطبتها، ألا تتذكر سنا؟!.

مضى مالك من أمام والدته وهو لا يدري إلى أين سيذهب، جرته قدماه ليلقي نظرة أخيرة على ذكرياتهما معًا، وقف أمام باب المدرسة القديمة التي أغلقت منذ خمس سنوات لأن جدرانها قد تصدعت وأوشكت على الانهيار وأنشأت بدلًا منها مدرسة أخرى، ويبدو أن الذكريات أيضًا تصدعت مثلها وأوشكت على الانهيار، وقف يجتذب من خبايا قلبه ذكريات مرت عليها عشر سنوات كاملة، وكأنها تمر أمامه الآن، مد كفه في الفضاء وقال "هنا وقفت أمامي وهنا جذبت يدي، هنا ضحكت في وجهي، مضينا ذلك الطريق سويًا مرات عديدة، وقفنا عند منحدر ذلك الدرب وهي تجذب يدي بقوة، في هذه البقعة وقفت تلومني لماذا تحدثت لمنال قلت لها انني أحب منال مثلما أحبك، ولكنني كنت كاذبًا فإنها استحوذت على قلبي بمفردها منذ أن رأيت ضفائرها وعينيها البريئتين، كان حزنها يضني قلبي وكانت سعادتها تشرق الحياة في عيني، يا لها من حياة ساخرة!!.. عشر سنوات مضت وكأنها لم تمض على قلبي، في ذلك اليوم الذي اعترفت لي بحبها وهي فتاة التسع سنوات، همستُ داخل روحي وأنا أحبك أيضًا وأنتظرك هناك في المستقبل البعيد، لم أفصح لك بذلك أبدًا حتى لا يشغلك شاغل عن دراستك، كنت أظن أنك ستبقين على عهد الطفولة لأنك تشعرين كما أشعر، تشعرين أن روحي معقودة بروحك في زمن آخر ولا يستطيع أحدنا حل هذه العقدة بل سنكملها عقدًا، كنت أشعر أنك مني ولي، والآن ماذا حدث؟ ستكونين قريبة وستعيشين في بيتنا ولكن غريبة عني، حتى أنني لا أستطيع النظر إليك، لا أستطيع أن أمسك بكفك وأنفخ داخلها من برودة الشتاء، ولا أحمل عنك ما يثقل عليك، إنها النهاية أتت حتى لتاخذ مني ذكرياتي معك،كيف أهرب منك؟ كيف أهرب من نفسي التي تحيا بك؟ أصبحت الآن في الثانية والثلاثين من عمري وأصبحت أنتِ في التاسعة عشر من عمرك، أنهيتِ عامك الأول من دراستك في الجامعة، كنت فخورًا بك بيني وبين نفسي، كانت روحي تقول ها هي زهرتك يامالك خرجت من برعمها واشتد ساقها وفردت أوراقها للحياة وتنتظرك

لتقتلعها جذورها من أرضها وتضعها في أرضك لتصبح شجرة تستظل بها فيما تبقى من عمرك، ولكن هيهيات هيهات لما حلمت يا مالك.. سيقتلعها غيرك ولكن سيزرعها في أرضك وستكون محرمة عليك اشتمامها أو حتى لمسها، كان أهون علي ياصغيرتي أن ترحلي مع غريب لآخر البلاد فلا أراكِ أبدًا، تنقطع بيننا الأخبار فضلًا أن تكوني أمامي ولا أعرف عنك شيئًا، أن تصبحي قريبة غريبة عني، بجانبي ولكن يفصل بيننا حد لا نهاية له، اختارك أخي من بين ملاين الفتيات ليأخذك زوجة له، ليته يأخذك من روحي ومن نفسي، ليته يقتلعك من داخلي حتى لا أشعر أنني أخونه"....

ورمق باب المدرسة بنظرة حزينة مودعة، الباب الذي يحوي بداخله قصته، وقال.. "هنا بدأت القصة والآن ستنتهي، سأقتلعك وأقتل روحك بداخلي حتى وإن رحلت معها روحي، وداعًا ذات الضفائر"..

جاء صوت محمود من خلفه:

- لست أعرف حقًا يا مالك ما سر هذا المكان؟ كلما بحثنا عنك وجدناك تجلس أو تقف أمام باب المدرسة المهجورة، أشعر أن جنية تحدثك من داخلها!..

ابتسم مالك رغم الألم وأردف محمود بحماس:

- وهل هذا وقت للوقوف هنا هيا يا رجلي ويا أخي ويا أبي لقد تأخرنا علي أهل العروس.

ربت مالك علي ظهر محمود بحب واحتضن ذراعه وقال: هيا بنا يا أجمل عريس.

مروا على البيت وكان الجميع جاهزين ينتظرون كبير هذه العائلة، نوال بسعادة يغلفها حزن لحال مالك، إلى متي سيظل مالك على هذا الحال؟ قالت:

- نحن جاهزون يا مالك، أليس من الأفضل أن نخبر عمك حتى يأتي معنا؟

مالك بهدوء: لم يفتني هذا يا أمي، لقد أخبرته وهو سيلحق بنا.

ثم أردف قائلًا: قم بتجهيز السيارة أنت يا إسلام.

خرج إسلام وجهز السيارة التي يمتلكونها والتي ابتاعوها من ثلاث سنوات، صوت صفير السيارة يأتي من الخارج، خرج مالك وخلفه محمود وخلفه شقيقته وزوجة أخيه أيضًا ليبدوا رأيهم في العروس التي سيتزوجها محمود، كان لدي أم سنا علم بمجيئهم فقد أخبرتها أختها بذلك فور أن فاتحتها نوال في موضوع سنا، دلفوا للمنزل، كان (محمد) و(عاطف) أشقاء سنا في استقبال الرجال وأخذوهم لقاعة الضيوف، وكانت (ليلى) والدة سنا في استقبال النسوة وأخذتهن لقاعة أخرى خاصة بالنساء، مالك على معرفة جيدة بمحمد، تقابلا كثيرًا أثناء الدراسة من قبل، رحب بهم محمد وكان من الواضح في الوجوه القبول، عائلة مالك تعرف في البلدة بالخلق والحسب والنسب وسعيد الحظ من يحظى بنسبتهم، فاطمة التي أصبحت فيما بعد أقرب صديقة لسنا ودخلا نفس الجامعة ونفس القسم وسكنوا بنفس الغرفة في السكن الجامعي كانت تزين وجه سنا ببعض الزينة الخفيفة التي لا تلاحظ ، نظرت سنا في المرآة وقالت بتوتر: كفى، سأغسل وجهي، لا أستطيع الخروج هكذا أمامهم.

فاطمة بحدة: إياكِ ياسنا أن تضيعي مجهودي، لا يوجد شيء ملحوظ أيتها الغبية فلم تخافين؟.

سنا بتوتر: أشعر أن أخي سيلاحظ كل شيء وسيحرجني أمامهم.

فاطمة: أخوك سيتلهى في وضع شروط الزواج والفرح والمهر.. إلخ.

سنا: أتظنين ذلك؟

فاطمة بعد لحظات: لكن أتعرفين ياسنا ما الجميل في الأمر؟ أننا سنرى الأستاذ مالك مرة أخرى!.. كم سنوات مرت ولم نره؟ يالها من أيام!.

تنهدت سنا بعمق وكأن كلمة (مالك) أصابت داخلها شيئًا، جزء خفي داخل روحها، مسحة خفيفة من الحزن بدت على وجهها، فقالت لها فاطمة:

-أما زلت كلما ذكرتك بالماضي تقفين بحزن هكذا؟ لقد كبرت يافتاة وستتزوجين بعد أيام!

أخرجت سنا نفسها من عبق الذكريات وقالت:

- لا أريد زواجًا إلا بعد أن أنهي دراستي يافاطمة، قلت لأخي يجعلها خطوبة فقط حتى انتهي من الدراسة.
فاطمة: معظم الفتيات متزوجات وتدرس أيضًا ما المشكلة في ذلك؟.
دلفت والدة سنا عليهم الغرفة وقالت: أمازلت تتحدثين والجميع ينتظرك بالخارج؟ انجزي ياهانم ستسلمين على النساء ومن بعدها لو أمر شقيقك ستذهبين وتسلمين على العريس وعمه وإخوته الرجال.
أحست سنا بتوتر وارتباك لاحظته فاطمة فقالت لها: هيا ياسنا وكوني واثقة فأنت ستتزوجين مهندسًا زراعيًا يا بنت المحظوظة!..
ونظرت لوالدة سنا وقالت: عفوا خالتي!!.
ضحكت والدة سنا وقالت: أتمنى أن أراكِ عروسًا قريبًا يا ابنتي أنتِ أيضًا.
هبطت والدة سنا ممسكة بيد سنا المرتبكة، ودلفت بها لداخل القاعة التي تجلس داخلها النساء، ألقت سنا عليهم السلام واقتربت منهن وسلمت علي كل واحدة منهن بخجل وحياء، وبعد أن انتهت من السلام عليهن جلست في آخر مقعد تنظر للأرض خجلًا وعيون النسوة متجهة إليها تتفحصها بدقة..
نوال بابتسامة عريضة: لقد كبرت، أذكر عندما كنت تأتين لمالك في صغرك ويدرسك، وكم كان مهتمًا لشأنك ويذكر ثرثرتك الكثيرة معه.
خفق قلب سنا، لقد أزاحت نوال دون أن تقصد ما تبقى من غلاف على ماضٍ ظنته قد ولى، أردفت نوال متمة لحديثها: وها قد مضت الأيام سريعة والآن أصبحتِ عروسًا جميلة.
وتبعتها عزة بالثناء على سنا وهي تقول: وأي جمال هذا يا أمي!.
أحست سنا بالحرج من كلامهن، أردفت نوال: يسعدني يا ابنتي أن تكوني واحدة من أهل بيتي، وأن تقبلي بمحمود ولدي زوجًا لك.
ضربت الدماء وجه سنا وأحست أنَّ أطرافها شلت، أردفت والدة سنا بود: ويسعدنا نحن أيضًا.
في قاعة الرجال الأستاذ منصور عم مالك تنحنح وهتف قائلًا: جئنا اليوم يا أبا خالد لنطلب يد أختك الكريمة ابنة الأكارم لولدنا محمود، فلم نجد أصلًا مثل أصلكم ولا نسبًا اشرف من نسبكم.
اتكأ محمد على جنبه وقال: أهلًا ومرحبت بكم في بيتنا ويسعدنا ويشرفنا نسبة رجال مثلكم، ولكن لابد من مشورة أخوالي وباقي عائلتي والرد يصلكم بعد شهر من الآن.
محمود الذي كان متلهفًا على الزواج قال: يا أبا خالد شهر بعيدة جدًا، وأنا جاهز وكل شيء وتحت أمركم فيما تطلبون، فلتكن المدة أسبوعًا واحدًا.
هتف منصور أيضًا: يا أبا خالد لماذا كل هذه المدة؟ أعتقد أنكم في غنى عن السؤال عنا فأنتم تعرفوننا جيدًا.
حك محمد ذقنه وفكر قليلًا ثم أردف قائلًا: وهو كذلك، سيصلكم الرد بعد أسبوع.
منصور مبتسمًا: هل لنا أن نرى العروس؟
محمد: الآن لا.. عندما نعرف علام سينتهي الموضوع .
منصور: إن شاء الله سينتهي بفرحة وسعادة يا ابن الشيخ (صالح)، والدك كان من أعز أصدقائي رحمه الله.
محمد رد بأدب: أطال الله في عمرك يا أستاذ منصور.
منصور: إذن فلتنادي لابنتنا نسلم عليها.
خرج محمد وبعث ابنه الصغير لوالدته في قاعة النسوة يدعوها للخروج، خرجت ليلى وقالت له: -ها ماذا حدث؟
قال: قلت لهم الرد سيكون خلال شهر، ولكن يبدو أنهم متعجلون، العريس متلهف جدًا يا أمي.
أردفت ليلى قائلة: أختك لا تريد زواجًا الآن، هي تريد خطوبة فقط حتى تنتهي من دراستها الجامعية.

محمد بحدة: خطوبة حتى يخرج معها من وراء ظهورنا ويتحدث إليها في الهاتف ليلًا، وأنا لن أسمح بذلك، هم يريدون زواجًا مباشرة وأنا موافق ولا أريد نقاشًا في هذا الموضوع، ولا داعي أن تدخل عليهم ابنتك الآن، فلن تدخل عليهم إلا بعد الاتفاق.

أومأت ليلى بالإيجاب فهي لا تستطيع مخالفة أوامر ولدها الكبير، دلفت للقاعة مرة أخرى وجاءت بعد قليل زوجة محمد تحمل صينية العصائر وصينية أخرى تحملها زوجة عاطف ممتلئة بأطباق حلوى من شتي الأنواع، سعدت نوال بمقابلة والدة سنا لها وأحست بالقبول في تصرفاتهم، مضى وقت تبادلوا أطراف الحديث، كان مالك يجلس صامتًا كأنه في عالم آخر يسأل نفسه: أهو آتٍ اليوم بنفسه يخطب لأخيه الفتاة التي أغرم بها منذ نعومة أظافرها؟!.

أخرجه صوت محمد وهو يقول له: نريد أن نفرح بالأستاذ الكبير أيضًا، معلم الأجيال.

ابتسم مالك دون رد وأردف محمود قائلًا: معلم الأجيال يبدو أن جنية تسحره وتمنعه من النظر لأي فتاة.

منصور: كف يا محمود عن المزاح والمشاكسة، ستتزوج وتصبح مسئولًا عن أسرة.

ضحك الجميع وضحك مالك متخطيًا ما به، سلمت سنا على النسوة وصعدت للأعلى تنظر من نافذة البيت لتراهم وهم يمضون للخارج، خرج مالك من البيت أولًا بينما وقف منصور وإسلام ومحمود يتحدثون في أمر ما، نظرت سنا من النافذة بحجابها الأزرق فرأته يقف ويسند ظهره على السيارة، أحس مالك فجأة أن شعاع شمس يداعب وجهه فنظر للأعلى فتلاقت الأعين بالأعين وتلاشى المكان والزمان من بينهما، وعاد للخلف عشر سنوات ووقفت تبتسم في وجهه ذات الضفائر فيبتسم لها، لكنها لحظة خاطفة من الزمن لن تتكرر اعادته في ماض سحيق وأخرجه منها صوت محمود شقيقه وهو يقول بسعادة: لم يتبق الكثير ياحلوتي وآخذك من هنا.

لكزه إسلام وقال: أنت متعجل دائمًا وأبدًا!.

دلف مالك لمقعد القيادة وجلس النسوة داخل المقعد الخلفي للسيارة يثرثرن بسعادة وفرحة، ويمدحن الحفاوة التي استقبلتهم بها والدة العروس، كان مالك ينتظر أن تعترض أو أن ترفض لكن حتى وإن حدث لقد أصبحت محرمة عليه طالما عين أخيه نظرت إليها ،عادوا للمنزل ومازال يشعر أنه سقط داخل مقلتيها، قال محادثًا نفسه "أهذا الوعد الذي قطعته على نفسك يا مالك؟.. لا يحق لك الآن حتى التفكير بها"..

نهض من مكانه وأخرج مدونته وكتب سطورًا لا نهاية لها عارضًا فيها حال مشاعره تجاه ذات الضفائر، تلك السطور فقط هي التي كانت تخفف عنه وتعزيه وتواسيه؛ فلا يستطيع أن يذكر حقيقة مشاعره إلا بين هذه السطور، كأنها الصديق الذي يشكو إليه، مضى الأسبوع وجاءهم المرسال ببشرى موافقة أهل العروس، ذهبوا وتم الاتفاق على كل شيء، سيدفع محمود مهرًا غاليًا وقائمة عالية جدًا، ولكن لا يهمه فمنذ أن رآها للمرة الأولى أحس أنه مفتون بها، مالك ومنصور وإسلام وبعض رجال آخرين ذهبوا ليحضروا الاتفاق، وبعد أن تم الاتفاق خرج بقية الرجال وبقي الإخوة فقط..

ليلى: لا تتصرفي بقلة عقل ولا تتحدثي كثيرًا.

سنا: حاضر يا أمي.

-ولا تجلسي مرتبكة كما أنتِ الآن، ولا تقتربي من عريسك ولا تجعليه يلمس يدك، سلمي عليه من بعيد واجلسي بجوار شقيقك.

سنا بنفاد صبر: حاضر!.

خرج محمد من القاعة وقال لها: تعالي ياسنا، سلمي على عريسك.

خفق قلب مالك بشدة، وأراد أن ينهض ليترك العريس والعروس بمفردهما، لكن محمود المتوتر أيضًا أشار له بالجلوس، دخلت عليهم بفستانها الوردي، ألقت السلام وهي تنظر للأرض بخجل، وقف محمود أمامها ومد لها كفه فمدت على استحياء له كفها، قتلت مالك تلك اللحظة، لم يظن أنها ستمد كفها يومًا لشخص غيره، محمود قال لها: سلمي على أخي ومعلمك مالك.

رفعت بصرها نحوه فقال محمد: اذهبي وسلمي على معلمك.

مضت نحوه وقلبها يكاد يقفز من داخلها، ومدت كفها، كان يود ألا يمد كفه لها فإنه حرم هذا الكف على نفسه، ولكن خشية أن يحرجها أمام الناس مد لها كفه دون أن ينظر لها، فأحست أن كفها وجدت مكانها في يده.. ولكن سرعان ما سحبتها ومضت من امامه وجلست بجوار شقيقها كما أمرتها والدتها، تحدث إليها محمود فتحدثت إليه باستحياء، اجتر محمود معها الحديث وابتسمت في وجهه، كان مالك دون قصد يراقب وجهها وعينيها، رأى ابتسامتها ونظرتها المطمئنة لأخيه واسترسالها في الحديث معه، كان عمرًا كاملًا يحترق بداخله، قاسٍ عليه ولكن مضطر أن يسكت ويصمت، وأيقن أنه كان يعيش وهمًا بمفرده لا تعرف هي عنه شيئًا، فلا لوم إلا لوم نفسه، مالك تنحنح وتردف قائلة: الزفاف سيكون بعد شهر من الآن إن شاء الله يا أبا خالد.

محمد: ولم هذه العجلة؟

سنا بحياء: أتسمح لي يا أخي بالحديث؟

أشار لها بالقبول فقالت: أفضل خطوبة الان حتي انتهي من دراستي في الجامعة.

محمود: وما المانع أن تكوني متزوجة وتكملي دراستك؟ كوني مطمئنة لن أجعلك تقصري في دراستك بل سأساعدك عليها.

سنا: لكن....

أردف محمد قائلًا: وأنا موافق، علي بركة الله.

لم تتحدث سنا ثانية فقد قال شقيقها كلمته وأصبحت في الأمر الواقع، قام مالك من مكانه وقال: -لدي شؤون سأقضيها الآن.

واستأذن وخرج هائما علي وجهه، بينما بقي محمود وبجانبه محمد وعاطف أشقاء سنا، مر الشهر سريعًا وكان الاتفاق أن يكتب الكتاب يوم الفرح ذاته، في ليلة الحنة مالك كان بارع التمثيل، رقص وأظهر على وجهه سعادة خلفها روح تحتضر وقلب ينصهر، انتهى اليوم وجاء اليوم التالي.. يوم الفرح وكتب الكتاب، بيت عائلة مالك مكتظ بالمدعوين من الرجال والنساء، ذبحوا الذبائح وأعدوا الموائد ودعوا أهل القرية جميعًا ليشاركوهم فرحتهم، انتهى الطعام وكانت الساعة اقتربت على الواحدة ظهرً،ا بعد قليل سيعقد القران، مالك منذ الأمس لم يسترح، صعد لغرفته وأخرج مدونته التي تحمل خبايا نفسه وأسراره وتاريخه الطويل معها، وقرر أن يكتب كلمته الأخيرة ويحرقها، انتصف السطر وكتب "ليلية الوداع.. الوداع ياذات الضفائر، الوداع يا حبٌ خبأته عشر سنوات.. الوداع يا سنا، الوداع بقلب ينصهر وروح تحتضر، أتمنى لك سعادة دائمة أنت ومحمود وأتمنى انتزاعك من روحي وقلبي، أتمنى أن ينتهي حبك العظيم في..."

في تلك اللحظة التي يكتب فيها دلفت عليه والدته وقالت بصوت لائم:

- أنت هنا يا مالك؟ هيا للأسفل، المعلمون زملاؤك قد أتوا محملين بالهدايا الآن، أدخلتهم قاعة الضيوف ولا يوجد أحدٌ من الرجال معهم، لست أعرف أين باقي إخوتك، هيا اهبط لهم بسرعة ياولدي.

مالك: انتظري لحظة يا أمي.

قالت: أتترك الضيوف بمفردهم؟ اهبط لهم الآن وأنا سأبحث عن إسلام أو محمود حتى يجهز لهم مكانًا للطعام.

هبط مالك وترك باب الغرفة مفتوحًا وترك المدونة أيضًا مفتوحة، على أنه سيعود سريعًا من الأسفل؛ سلم على زملائه وجلس معهم وتبادل معهم أطراف الحديث حتى نسي أمر المدونة.. هناك في بيت سنا المكتظ أيضًا بالمهنئين من الرجال والنساء والصغار والكبار من عائلتها، الفتيات يحتضنها بسعادة، فاطمة تقول لها لقد وضعت لك الملابس في الخزانة من الناحية اليمنى، ووضعت لك كذا في مكان كذا.. سنا سعيدة ولكن هناك شيء يثقب تلك السعادة لا تعرف ما هو وما سر ذلك الشعور، في بيت مالك انتهى الزملاء من التهنئة والطعام وذهبوا مع

وعد أنهم سيأتون الليلة ليحضروا الزفاف، حضر المأذون واصطحبه إسلام لبيت العروس وقد أخبرته والدته أن محمود قد سبقهم إلى هناك وقالت لمالك:
- اتبعهم يا مالك إلى هناك لا وقت لدينا.
ثم أطلقت نوال زغاريد متصلة وقالت:
- أدام الله الفرح في بيتي.
ذهب مالك ناسيًا متناسيًا أمر المدونة، محمود كان قد نسي بطاقته من فرط فرحته داخل قميصه في غرفته القديمة فعاد ليأخذها قبل وصول المأذون، يبدو أن والدته لم تره عند دخوله، دلف محمود للأعلى وذهب مسرعًا لغرفته يبحث عن بطاقته لكنه يا للعجب لم يجدها، وجد غرفة مالك مفتوحة فدلف للداخل ليسأله عن البطاقة ربما كانت معه لأنه تذكر أن مالك سأله بالأمس عن تاريخ بطاقته لأنه يعلم أن محمود كسول وربما كانت منتهية التاريخ ولن يجوز بها كتب الكتاب، فقال محمود ربما أخذها مني مالك ليتحقق من تاريخ انتهائها ، مضى خطوات للداخل ونادى:
- مالك.. مالك..
ومالك لم يكن موجودًا في ذلك الوقت، نظر محمود هنا وهناك وبحث في الخزانة وفي الأدراج، وأخيرًا حالفه الحظ ووجدها، التقطها ومضى مسرعًا فسقطت البطاقة عنوة من يده فوق المدونة المفتوحة فوق المنضدة، مد محمود يده متلهفًا ليلتقطها مرة أخرى فلمح كلمة سنا مكتوبة بحروف كبيرة!!.. وقف متعجبًا ربما مالك كتب له تهنئة، وحمل المدونة ليقرأ ما بعد اسمها ووقع بصره على المشاعر المتوهجة من مالك لسنا، وراح يقلب صفحاتها كالمجنون وهو يشعر أن شيئًا ما بداخله سينفجر..
- محمود لم يأت بعد يا مالك، أين هو؟ لقد تأخرالوقت نريد أن ننتهي من عقد القران حتى نستطيع التجهز للفرح والزفاف.
قالها منصور عمهم..
مالك:
- انتظر ربما يرتدي بذلة الفرح بدلًا من أن يذهب مرة أخرى للبيت.
إسلام: سأتصل بأمي تتعجله.
اتصل إسلام بوالدته: أمي تعجلي محمود فالوقت يمر ولدينا أشياء أخرى سنفعلها.
نوال بتعجب: محمود!!.. ألم يكن في بيت العروس؟!
إسلام: أخبرونا أنه كان هنا ولكنه عاد للبيت لأمر ما.
نوال بقلق: لم أره ولم يعد.
إسلام حاول طمأنة والدته وقال: سأتصل به لأعرف أين هو الآن، لا تقلقي يا أمي.
الأم: إن شاء الله خير.
اتصل إسلام بمحمود ولكن هاتفه كان مغلقًا، كرر الاتصال ثانية وفي كل مرة تأتيه تلك الرسالة التي تشير بأن هاتفه مغلق، الوقت يمر ويمر، ارتدت العروس فستانها ووضعت زينتها فالليل قد حل، أشقاء سنا ارتابهم تأخرالعريس فسأل محمد:
-أين محمود يا مالك؟
مالك: سيأتي
محمد: الوقت قد تأخر والليل قد حل، متى سيكون عقد القران؟ ومتي سيكون الزفاف؟
ثم قال مضيقا عينيه:
- لقد حاولت مهاتفته ولكنني وجدث هاتفه مغلقًا!.
مالك تنهد بعمق محاولا تهدئة محمد وطمأنته فأردف قائلًا: ربما سبب تأخره يحضر مفاجأة ما لعروسه، أعلم محمود جيدًا يفعل الأشياء الغريبة في أوقات غريبة!.
اتصلت نوال بمالك وسألته بقلق: هل ظهر أخوك يا مالك؟

بأسف أجابها: لا يا أمي لم يظهر بعد ولست أعرف أين هو وأين ذهب، الناس تنتظر والموقف أصبح محرجًا لنا ولأهل العروس والعروس.
نوال ببكاء: أخشى أن يكون حدث مكروه لولدي!.
مالك حاول أن يطمئنها تنهد بعمق وقال: اطمأني يا أمي، إن شاء الله سيكون بخير، تركنا حائرين والناس بدأت تتهامس من تأخره.
علا رنين هاتف محمد برقم غريب، أجاب محمد مسرعًا وكان المتصل محمود، قال ثلاث كلمات:
-لا تنتظروني، لا أستحق ابنتكم هي تستحق الأفضل مني.
كتم محمد غيظه ولم ينبس ببنت شفة ودلف للبيت والغضب يملأه:
- أمي، مصيبة حلت علي رأسنا، يا للعار الذي سيلتصق بنا طيلة عمرنا لقد هرب العريس واتصل بي يا أمي وأخبرني أنه لن يأتي، الناس ستمرغ سمعتنا في التراب سيقولون لقد نال منها وهرب أو أنه وجد عليها شيئًا فتركها!!.
جلست ليلى تضع الثري فوق رأسها وتبكي بحرقة، وانقلب العرس لجنازة، في الخارج علا رنين هاتف مالك الذي كان يقف علي أحر من الجمر، رقم غريب أيضًا، رد بسرعة وكان محمود قال مباشرة:
- اكتشفت أنني لا أريدها يا أخي إنها لا تناسبني ولا أناسبها، إنني سأتزوج من فتاة أخرى وسأعيش معها في قريتها، وأخبرت محمد بذلك.
صرخ مالك فيه: أنت تمزح يا حيوان؟! لا وقت لمزاح كهذا تعال على الفور...
وقبل أن يتم مالك كلمته كان محمود قد أغلق الخط وأغلق الهاتف، امتلأ مالك بالغضب وأصبح ينفخ في الهواء بحنق شديد، لو أنه يعثر على محمود لقتله الآن.
- ما فعله محمود كارثة ياعمي بكل معنى، ما ذنب الفتاة وأهلها؟ الفضيحة سمعتهم ستمرغ في الوحل.
منصور فكر قليلًا ثم قال:
- اكتب عليها أنت!!. لا حل آخر يا مالك لتمنع العداوة بين العائلتين وذنب لن يغتفر إلى يوم الدين، اكتب عليها وطلقها بعد فترة ولكن الآن لابد أن تنقذ الرؤوس من التنكيس وتنقذنا وتنقذ الفتاة وسمعتها وسمعة أهلها.
مالك: لكن يا عمي....
منصور: لو كنت شابا لتزوجتها الآن يا مالك، لكنني عجوز كما ترى، وأخوك إسلام متزوج.
تنهد مالك بعمق وأومأ بالموافقة، اصطحب المأذون وخلفه عمه وشقيقه ودلفوا للداخل، وأردف مالك قائلًا: محمد أترضاني زوجًا لأختك؟ إن رضيت اعطني يدك.
قام محمد الذي يشعر بالكسرة ولكن يد مالك هي القشة التي سترفعهم من الوحل، ووضعها في يد مالك دون معارضة، لا يستطيع الرفض الآن أو حتى التفكير، تم عقد القران وأصبحت سنا زوجة لمالك رغم أنه من داخله يرفض ذلك وهي تشعر بقهر وكسرة فما أصعب أن يترك العريس عروسه ليلة الزفاف!.
بعد أن انتهى عقد القران ولا أحد يصدق ما حدث كانت سنا تشعر بانشقاق قلبها وكسرتها، بكت الكثير من الدموع، اعترضت علي أن تتزوج مالك فما ذنب مالك إن كان له أخ نذل عديم المسئولية؟ لماذا فعل بها هذا؟ ما الذنب الذي اقترفته حتى يجعل أسعد يوم في حياتها أتعس يوم؟ ليتها ما وافقت على الزواج من البداية، ليتها ماتت قبل هذا اليوم، ليتها رفضت تلك الزيجة، لكن شقيقها الذي يتحكم في أمرها وحياتها هو الذي قرر ونفذ وهي وحدها من تجرعت الألم..
نظرت لنفسها في المرآة وجففت دموعها وقالت بجدية:
- أبدًا لن أستسلم، سأعيش كما فرضت علي الحياة أن أعيش.
دخل عليها شقيقها وقال بحزن:
- هيا لتذهبي مع زوجك.

قالت بحدة: وما الداعي لذلك؟ أفضل أن أبقى في بيت أبي معززة مكرمة، الناس جميعها علمت أن العريس تركني وهرب وتتحدث عني الآن، فما الداعي أن أعيش في بيت لا أود العيش فيه؟.
محمد بحدة: أنت تزوجت الآن وانتهى الأمر، ومن الطبيعي أن تذهبي مع زوجك وأن تعيشي في بيتهم حتى لا تنالك ألسنة الناس ويدعون عليك بأشياء، كوني زوجة لمالك وارضي بما قسم الله لك، الكثير من الناس لا يعلمون من هو عريسك بينهم المهم الآن أنك تزوجت.
سنا: هذا الزواج تم الآن لحفظ ماء الوجه فقط، هو تزوجني مرغمًا ليكفر عن سيئات أخيه، أنا سأبقى هنا يا أخي ويعود هو لمنزلهم وكأن لا شيء حدث.
جذبها محمد بقوة من ذراعها وأخرجها من الغرفة ووضع يدها في يد مالك وقال له:
- خذ زوجتك.
دون معاتبة عما فعله شقيقه، لكنه قال له:
- أختي كريمة عفيفة وآمل ألا تهان وتصان في بيتكم.
مالك: وبيتها أيضًا.
وأمسك كفها برفق ومضى بجانبها، يعلم أنها مكسورة الآن، يعز عليه كسرها، كان أهون عليه أن يعيش بألم فراقها من أن يراها تتألم ..لماذا فعلت بها وبي ذلك يا محمود لماذا؟..
والدتها كانت تنكس رأسها للأرض ولم تنظر لها ولم تودعها فما حدث أحدث صدمة للجميع، وصلا السيارة المزينة وأجلسها بداخلها وجلس بجانبها وقادها إسلام، وصلوا للبيت الذي أخمدت فرحته وعم الصمت داخله، الكل مذهول ومندهش، الكل يشعر بخيبة أمل كبيرة، كانت تجلس بجانبه دون أن تنظر إليه، دون حراك، دون كلام.. وكأنها متجمدة، دلف إسلام بالسيارة لداخل البيت وهبط منها، وهبط مالك وأمسك بيدها وأنزلها من السيارة، دمعة ترقرقت من عينها، كانت تفكر بفرحتها وجلوسها في الكوشة وصديقاتها يلتففن من حولها، لكن لم يحدث شيء من هذا.. تبددت فرحتها وتحولت لحزن وقهر، نوال كانت تنوح بصوت عال وعزة تحاول تهدئتها، اقترب منها مالك وقال لها:
- أمي، علام تبكين؟ أفرحتك بزواج محمود أكبر من فرحتك بزواجي؟ ألم يكن يحزنك أنني لم أتزوج؟ وها أنا قد تزوجت.
قامت الأم من مكانها وجففت دموعها واحتضنت ولدها وقالت:
- بل فرحانة يا ولدي.
واقتربت من سنا وقالت لها:
- وأنتِ في عيني يا ابنتي.
لم ترد سنا ولكن دمعة رقيقة سالت فوق وجهها الصغير، مسحتها نوال بيدها وقالت:
- لتعلمي يا ابنتي أن مالك سيد البيت هنا وأنت الآن زوجة سيد البيت.
جذبت نوال يد مالك وقالت: شقتك حتى الآن لم تكتمل، فهل ستعيش معك في الغرفة القديمة؟.
مالك: لا يا أمي ستعيش في الشقة التي كانت ستعيش بها في الأساس، الجبان الذي يهرب ليس له مكان بيننا، وهذه الشقة من حقها وتوجد بها جميع أغراضها.
نوال: أعلم أن ما فعله محمود جرم كبير لكن ياولدي سيعود في يوم من الأيام.
مالك: أمي أنا سأعيش في غرفتي القديمة وهي ستعيش في شقتها التي أصبحت ملكها منذ اليوم، وإن تركت هذا البيت يومًا سندفع لها ثمنها.
نوال: أعلم أنك مرغم على هذه الزيجة ولكن ما ذنب هذة الفتاة أن تعيش معلقة؟ خذها يا ولدي زوجة وأمًا لأولادك، لا أحد يعرف أين الخير.
مالك: هي مرغمة على الزواج مني أيضًا ولا أستطيع أن أرغمها أن تعيش معي، يكفي ما فعلناه بها، دعيها تعيش بيننا وتختار هي بنفسها إن كانت تريد أن تبقى أو تتركنا.
نوال: أريدك أن تنسى أمر محمود حتى تستطيع أن تكمل حياتك معها، وأريدها هي أيضًا أن تتخطى وتنسى كل ما حدث، وإن كنت تفكر في أنك ستتزوجها فترة وتطلقها فأنت تظلمها مرة أخرى، هي الان زوجتك كن بجانبها كأي زوج.

مالك:
- ليست بهذه السهولة يا أمي، ربما بعد مضي أيام تطلب العودة لبيت أبيها وهذا من حقها وأنا لا أستطيع غير أن أنفذ رغبتها.
كانت سنا تقف بصمت وحزن وهي تشعر بالوحدة، مالك أشار لعزة:
- خذيها لشقتها ياعزة.
عزة بحنان: تعالي يا حبيبتي لتستريحي.
مضت سنا بجانبها باستسلام ليصعدوا الدرج، وصلوا للشقة التي جهزها لها محمود، فتحتها عزة ودلفت أمامها للداخل، وقفت هي لحظات بالخارج ولكن عزة جذبتها وقالت لها:
- حبيبتي، أنت الآن زوجة كبير البيت، ليست هذه الشقة فقط ملكًا لكِ بل كل البيت ملك لك.
نظرت سنا من حولها للحوائط المطلية بألوان زاهية والمقاعد القطيفة المزكرشة والصالون تتوسطه سفرة صغير وثلاث غرف مفتحة الأبواب، قالت محادثة نفسها.. "ماذا حدث يا محمود لتهيئ كل شيء وترحل؟ ما السبب الذي جعلك تترك كل هذا وتتركني وتهرب؟!"..
أخرجتها عزة من شرودها وهي تقول:
- هيا لتري باقي شقتك.
أدخلتها غرفة بها سريران صغار الحجم، تبدو من شكل طلائها ورسوماتها أنها غرفة للأطفال، وأدخلتها الغرفة الثانية والتي توجد بها معظم أشيائها التي جلبتها من بيت أبيها، أما الغرفة الثالثة كانت غرفة المعيشة، جدرانها مطلية بأزهي الألوان، توجد بداخلها خزانة كبيرة للملابس وسرير كبير يوضع عليه الحرير والساتان، أردفت عزة:
- هي غرفتك وكل شيء هنا ملك لك.
ابتسمت سنا بود لعزة فهتفت عزة بحب: لابد أنك متعبة، سأتركك الآن حتى تستريحي.
مضت عزة للخارج وجلست سنا فوق السرير تتأمل كل شيء حولها، حقًا إن المكان جميل والسرير يبدو مريحًا جدًا، قامت وجلست عليه مرة أخرى فكان يهبط بها بعض الشيء، فقامت وفعلتها ثانية.. أصبحت تقفز وتصفق بسعادة وكأن شيئًا لم يكن!!..
-طفلة بلهاء!!.
قالها مالك الذي لم تلاحظ وجوده أمام الغرفة التي تقفز فوق سريرها وتصفق وتضحك متناسية كل شيء، عاد للخلف وتنحنح ثم طرق الباب فجلست في صمت وكأنها لم تفتعل ثورة من الضحك والتصفيق منذ قليل، قامت من مكانها ونظرت للأرض في خجل فقال لها مالك:
- تعالي للخارج من فضلك.
جلس مالك على أريكة في الصالون ، خرجت وهي تفكر هل سيعيش معها في الشقة؟ إنها لا تتخيل ذلك أبدًا، هذا أمر مضحك، إنها لم تشعر أنه زوجها الآن بل تشعر أنه الأستاذ مالك الذي كان يلقبها بذات الضفائر وأتى ليعلمها شيئًا ما، جلست أمامه وهي تخفض بصرها للأرض، قال لها:
- منذ متي وأنت تخجلين مني هكذا ياذات الضفائر؟! أتتذكرين عندما كنت ترغمينني على الطعام معك وعلي المضي معك؟
قالت بصوت بالكاد يخرج من يسمعه: كنت صغيرة وقتها.
تنهد بعمق وقال: جئت لأقول لك أنك أنت الآن هنا سيدة البيت ككل سيدة في البيت، أنت هنا في بيتك، افعلي ما يحلو لك وتحدثي بما يحلو لك، وشاركي في الرأي والمشورة وشاركي في كل شيء، وانسي كل ما حدث، الجميع هنا يحبك ويحترمك وهذه الشقة هي ملك لك وإن تركتها يومًا ستثمن ويدفع لك ثمنها.
ثم صمت قليلًا: وإن أردت أن تكون لك شقة أخرى في البيت سيكون لك ما تريدين، أعلم أنني لا أجد اعتذارًا مناسبًا لك عن كل ما حدث.
ازدردت سنا ريقها وقالت: ولماذا أنت تعتذر؟ أنت لم تفعل بي شيئًا سوى أنك أنقذتني من الفضيحة.

- أي فضيحة يا سنا؟ أنت أشرف وأعف فتاة على وجه الأرض، وهو الخاسر بتركك.
صمت وصمتت وقام من مكانه وقال لها: أتمنى أن تكوني بخيروتصبحي على خير.
أغلقت الباب من خلفه واستبلدت الفستان بمنامة جديدة فرحت عندما ارتدتها، وفرحت عندما نظرت لخزانة الملابس الممتلئة بثياب وفساتين جديدة وأحذية جديدة أيضًا، احتضنت الوسادة المزركشة بسعادة ونامت ناسية أمر محمود، استيقظت في الصباح الباكر، مشطت شعرها ولفته ضفيريتن وعلقته فوق أذنها وارتدت حذاءً دون كعب فبدت قصيرة جدًا وشعرت أنها عادت ابنة التسع سنوات، هبطت بمنامتها التي تشبه منامات الأطفال، ألقت تحية الصباح على نوال التي كانت تجلس بمفردها في ردهة البيت فشهقت نوال وقالت:
- صباح النور لماذا استيقظتِ مبكرًا؟! اصعدي لشقتك يا ابنتي.
جلست سنا القرفصاء داخل مقعد كبير وقالت: لا أحب النوم لوقت متاخر، لم أكن معتادة على ذلك، هل تسمحين لي أن أعد الإفطار؟
نظرت نوال للملابس التي ترتديها، لم يكن أحد هنا يرتدي مثلها ولكن ستتركها بها ولم تعلق عليها لأنها ما زالت صغيرة ولا تفقه شيئًا من أحكام البيت، نوال بسعادة:
- تفضلي ياسنا، كما قلت لك البيت بيتك ولكن دعيني أساعدك في البداية.
- خالة نوال، لا تغرنك هذه الضفائر، كنت أعد وجبة الإفطار وأعد كل الطعام مع أمي دائمًا وأبدًا.
ثم دلفت للمطبخ وهي تدندن دندناتها الصباحية وكأن لا كارثة حدثت بالأمس، أثارت ضوضاء وضجيج في مطبخ البيت، بعد قليل استيقظت زينب زوجة إسلام، ألقت الصباح على عمتها الجالسة وقالت: ظننت أنك في المطبخ ياعمتي تعدين الإفطار.
نوال: لست أنا، إنها العروس الصغيرة التي تحدث الضوضاء في المطبخ!.
شهقت زينب: وهل استيقظت؟....
قبل أن تكمل كلمتها وجدتها أمامها وعلى وجهها ابتسامة عريضة وهي تقول: صباح الخير يا زينب، أين تتناولون إفطاركم؟.
نظرت لها زينب بتعجب وهي تلتزم الصمت وأردفت نوال قائلة: فوق هذه المائدة.
اختفت من أمامهم ذات الضفائر بسرعة غريبة، وأتت تحمل بعض الأطباق وبراد الشاي وبسكويت الفرح، استيقظت عزة واتخذت شكل زينب في الاندهاش، كانت سنا تمضي أمامهم كأن قدميها لا تطأ الأرض، وبعد أن انتهت من إعداد المائدة قالت بثقة: تفضلوا يا أهل الدار، أود أن ينال إعجابكم إعداد فطورالمستجدة في بيتكم.
استيقظ إسلام أيضًا ونظر للأرض؛ فهي لا تغطي شعرها وترتدي منامة حقًا واسعة وفضفاضة لكنها منامة في النهاية، جلس الجميع فوق المائدة غير مصدق فلم ينتظروا منها أن تفعل ذلك، ظنوا أنها ستنطوي في مكانها خجلًا ولن تترك شقتها أبدًا ولن تقابل أحدًا، لكنها أخلفت كل ظنونهم، جلست معهم ونظرت للمائدة، الكل يجلس عدا مالك، تجردت من كل العمر الذي مضي وقالت: خالتي نوال أين هو مالك؟.
نوال بتعجب وسعادة: هو نائم بغرفته القديمة.
قالت: وأين هي غرفته؟
نوال: أول غرفة تجدينها عندما تصعدين السلم، ألم تتذكريها؟.
قامت سنا من مكانها وسط دهشة من الجميع وصعدت السلم وتذكرت غرفته القديمة، ومضت نحوها وطرقت الباب فلم تجد ردًا، طرقته ثانية ولم تجد أيضًا ردًا، مالك كان متعبًا للغاية ولم يغط في النوم سوي منذ قليل، ضغطت مقبض الباب ففتح الباب أمامها، دلفت للداخل بجرأة فتاة التسع سنوات، وجدته ممددًا على سريره، نظرت إليه لحظات وقالت بطفولية: مالك.
لم يجبها، قالت: يبدو أني سأستعمل معه الإرغام كما كنت أستعمله قديمًا!.

أمسكت ذراعه وجذبته لكن مالك ضخم الجثة لم تستطيع تحريك حتى يده، جذبتها مرة أخرى في محاولة ثانية فاستيقظ تلك المرة مالك على يد صغيرة ناعمة، فظنها يد حبيبة ابنة أخته عزة فقال: ما بك ياحبيبة؟ اتركيني أنام.

- لست حبيبة!

فرفع عينيه عينيه بفزع ليجدها تنظر له مبتسمة، وهزت ضفائرها بيدها وقالت: أنا ذات الضفائر، كنت نشيطًا يا مالك أيام شبابك عن الآن!.

قام وجلس وقد صدمته رؤيتها بهذا الشكل، كأن السنون لم تمض عليها، قصيرة تبدو كقطة بهذه الثياب التي ترديها، قالت: استيقظ أيها الكسول لقد حضرت الإفطار اليوم وأريدك أن تتذوق منه قبل أن يُلتهم، لأن طعامي لا يقاوم هيا هيا هيا.

مالك: ما هذا يا إلهي أأحلم؟!.

قالت: اتبعني يامالك.

وهي تمضي خارج الغرفة وتهبط للأسفل، قام من مكانه مندهشًا هو الآخر مما فعلت، توضأ وصلى وهبط للأسفل ليستمع لضحكات جميع من فوق المائدة، غير معقول!!.. وسنا تحكي مواقف غريبة حدثت لها، قال محادثًا نفسه.. "هل تحولت تلك الفتاة لمهرج ما الذي يحدث؟"..

مضى نحو المائدة وجلس على المقعد المخصص له، وألقى تحية الصباح، رد الجميع تحيته، أما هي فقالت: مالك أصبح كسولًا يا خالتي، وهو في سن الشباب كان نشيطًا جدًا، كنت كلما أتيت وجدته مستيقظًا.

نوالك هو ما زال شابًا يا فتاة.

سنا: شاب ووسيم أيضًا، ولا تقولي أن الفتيات مغرمة به!.

ضحك الجميع فقال محادثا نفسه.. "هي الفتاة الوحيدة التي تستطيع أن تحول نكسة حرب لمناسبة سعيدة!"..

قام الجميع وبقيت والدته بجانبه، قال لها: أمي، قولي لها ألا ترتدي مثل هذه الملابس في البيت، فلا يجوز أن يراها إسلام بهذا الشكل، وحتي لا يحرج هو شخصيًا.

نوال بهدوء: هي صغيرة، ربما لا تدرك هذا يا ولدي.

مالك بحدة: لم تعد صغيرة، أظنها تفهم جيدًا أركان الدين وتخطت السن الذي تحتاج فيه لشرح.

نوال: لا تقلق الفتاة طيبة وسأتحدث إليها في الموضوع، لا نريد التضييق عليها من البداية.

ذهبت نوال خلفها المطبخ وقالت لها: أنتِ أصبحت مثل ابنتي الآن فأنت زوجة ابني الكبير.

تخجلها هذه الكلمة وتحاول أن تتناساها حتى تستطيع العيش هنا.. أكملت نوال:

- أنت فتاة صغيرة تتصرفين ببراءة، ومالك يريدك أن ترتدي جلبابًا فضلًا عن هذه المنامات، ويريدك أن تضعي حجابًا فوق رأسك.

سنا بحرج: هو محق، ربما نسيت أنني في بيت غير بيتنا فارتديت مثلما ارتدي في بيتنا.

نوال: لا عليك ياحبيبتي، وأتمنى ألا يضايقك كلامي.

سنا: لم يضايقني على الإطلاق، سأذهب الآن وأستبدل هذه المنامة.

صعدت لشقتها واستبدلت المنامة ووضعت فوق شعرها حجابًا وهبطت ثانية، كان يجلس مالك في ساحة البيت التي أضافوها حديثًا للبيت، وقاموا بزرع الاشجار فيها، اقتربت منه وقالت: -ترضيك هذه الثياب؟.

نظر لها وقال: مازلت كما أنت، شقية كما أنت ثرثارة كما أنت!.

صمتت قليلًا وأخرجت نظارة صغيرة كانت تحملها في جيب جلبابها وقالت: أتتذكر هذه النظارة يا مالك؟

نظر لها مالك وصمت طويلًا وقال وقلبه يخفق: أما زلت تحتفظين بها؟!

- نعم مازلت أحتفظ بها، كانت ايامًا جميلة حقا، أنت أنقذتني مرتين يا مالك؛ في الصغر والآن، لست أعرف كيف أرد لك كل هذا؟!....

قاطعها: حتى الآن ترتدين نظارة؟

- نعم، وعليك للمرة الثانية أن تذهب معي لطبيب النظر قبل بدء الدراسة، فقد ضاعت نظارتي.
-بأي قسم تدرسين؟
تنهدت بعمق وقالت: أي قسم تعتقد؟
قال: لا أعرف.
قالت: اللغة العربية يا مالك؛ لقد أورثتني حبها.
علا رنين هاتف مالك وكان محمد المتصل، قال بصوت متحشرج: سنكون بعد العصر في بيتكم يا مالك.
وأغلق مباشرة..
- هذا شقيقك يبلغني أنهم سيأتون بعد العصر.
أومأت برأسها ومضت من أمامه، جهز البيت للآتين، وجاء العصر وأتى أهل سنا يحملون صباحية، لكن وجوههم تحمل الحزن والخزي، سلمت سنا على أهلها مبتسمة وغير حزينة، أردف محمد بصوت يكتم الغضب: مالك، أريد أن أتحدث إليك بمفردنا.
مالك: تفضل يا أبا خالد إلى غرفة الجلوس.
دلف مالك لداخل الغرفة ومحمد من خلفه وأغلق الباب، جلس محمد وتنهد بعمق وقال: القرية والقرى التي حولنا منذ الأمس لم تنم وهي تخوض في سيرة أختي، قالوا عنها الأقاويل يامالك، حتى بعد أن كتبت عليها، قالوا أن أخيك نال منها وهرب وأنت الذي رضيت بها وهي ليست عذراء، وقالوا عنها ما هو الأفظع؛ قالوا أنها تحمل طفلًا من أخيك، ونحن الآن نمضي منكسي الرأس، أعلم أنك لم تلمس يدها حتى الآن لتنكر هذا.
مالك وقد ضرب بقبضة يده المنضدة التي أمامه كاد أن يحطمها قال بغضب: هؤلاء قوم جهلاء ولا يتقون الله في أعراض الناس.
محمد: هذا الكلام لن ينجي أختي ولن ينجينا من المصيبة التي أسقطنا فيها أخيك، ولابد الآن أن تخرس الألسنة يا مالك.
مالك: سأقتل من يتحدث عنها بكلمة واحدة.
محمد: لا تقتل أحدًا بل ادخل على زوجتك واثبت لهم براءتها وبراءتنا، والآن يا مالك.
قام مالك وقال: ماذا تقول؟!.
محمد وهو يجزعلى أسنانه: إن لم تدخل بها وتعيش معها في مكان واحد سنظل منكسي الرؤوس بقية حياتنا.
مالك: أختك جريحة الآن يا أبا خالد، ولا نستطيع أن نزود جراحها بجرح آخر بأن نرغمها على أي شيء.
قام محمد من مكانه وقال لمالك: اتبعني يا مالك.
اتبعه مالك آسفا لما يحدث، أردف محمد قائلًا: اذهب وقل لها شقيقك يريدك في أمر ضروري.
ذهب مالك وبلغها فأتت خلفه ووقفت أمام أخيها وهي تشعر بالخوف..
- أريدك الآن في أمر مهم تتوقف عليه سمعة عائلة بأكملها، هيا يا مالك لتريني المكان الذي تعيش فيه أختي، وأنتِ تعالي معنا حتي تسمعي ما سأقوله لكِ.
نظرت لمالك الذي لم ينظر لها وهو يصعد خلف أخيها، وصعدت هي من خلفهم، دلفوا للشقة وأغلق محمد الباب وجلسوا جميعًا في الصالة، تنهد محمد بعمق: ما سأقوله لكِ اليوم لن أكرره، أعلم أن ليس لك ذنب فيما حدث..
صمت لحظات وقال: لقد أصبحنا حديث البلد، إنني منذ الأمس لم أستطع الخروج من البيت، لقد سمعتهم يتهامسون عليكِ وعلينا، يقولون أنه نال منك وهرب، بل يقولون أنك تحملين طفلًا منه ولذا أخوه تزوجك.
قامت من مكانها تصرخ وتبكي وترتجف، لم تحتمل الكلام، قال محمد بعصبية: لا أقول لك هذا الكلام لتبكين، أنت شريفة عفيفة، أنا أعلم ذلك وسيعلمون جميعهم ذلك وستخرس كل الألسنة.
هدأت قليلًا من بكائها وقالت: كيف.

نظر محمد لمالك وقال: اخرس الألسنة يا مالك، ادخل بزوجتك وعش بجانبها وإلا قتلتها وقتلت نفسي، أتسمعين؟ في يدك الآن سمعة عائلة بأكملها، القرية كلها تنتظر حتى وإن لم يبدوا ذلك.

قال ذلك وفتح باب الشقة وأغلقه من خلفه وهبط ، وهم مالك بالخروج خلفه فقالت ببكاء: قبل أن تخرج أثبت براءتي وبراءة أهلي ليرفعوا رؤوسهم بين الناس..

ودلفت أمامه لغرفة المعيشة....

مضى شهران كاملان، كان لها زوجًا وكانت له زوجة، تتزيين له كل ليلة كأي زوجة تود قرب زوجها، يعلم أن كل هذا من خلف قلبها ونفسها، فكر في أن يتركها ويهجرها ويعيش بعيدًا عنها حتي لا ترغم نفسها على شيء وهي بداخلها تكرهه، ولكن هجران الزوجة محرم كما أنه لا يود أن يشعرها أنه لا يرغب بها حتى وإن كانت تمثل عليه دور الزوجة، اختفت ابتسامتها وتلاشت براءتها وسكتت ضوضاؤها وضجيجها، وكأنه صارعمرها فجأة خمسين عامًا، حقًا انطفأت، قريبة منه ولكنها بعيدة.. تهب له نفسها كل ليلة مجردة من القلب والروح، تهب له جسدًا بلا مشاعر، ليته ما تزوجها، ليته تركها ببراءتها وطفولتها، حتى وإن كانت ستعيش بعيدة عنه أفضل حالًا من أنها تعيش الآن بجانبه وأبعد ما يكون عن نفسها وعنه، استبدلت لإنسانة أخرى، مرت الأيام سريعًا وبدأت الدراسة فأحست إنها الشيء الوحيد المنقذ لما هي فيه، وقفت أمامه وأردفت قائلةً بصوتٍ مرتعش يخشي الرفض: هل ستسمح لي أن أكمل دراستي وأذهب لجامعتي؟.

تنهد بعمق وقال: أسمح لك بكل ما تريدينه.

قالت: وهل ستسمح لي بالسكن مرة أخرى مع فاطمة كما كنت أسكن معها في العام الماضي؟.

فكر مالك قليلًا وهتف قائلًا: أرى أنه لا داعي للسكن طوال العام، تسطيعين السكن وقت الدراسة فقط وعندما تنتهي محاضراتك عليك بالعودة للبيت.

أومأت سنا بالإيجاب وهي تشعر بالسعادة، أحست بحريتها بعض الشيء، كان مالك يعيش حائرًا بين نارين، هو يشعر أنها تتألم لقيامها بهذا الدور الثقيل عليها ولكن مرغم هو الآخر أن يكمل معها في هذا الدور، لا تراجع.. أصبحت زوجته من كل ناحية، ولكن حتى بعد كل هذا متي ستطلب التحرير سيحررها، لملمت أشياءها وأغلقت حقيبتها مستعدة للسفر، طلب منها وقف أمامها يكتم حزنه على غيابها، قال لها: سأسافر معك حتى أطمأن عليكِ.

- شكرًا لك.

قالتها بامتنان..

- سأسافر مع فاطمة وبقية البنات، لا داعي.

حمل حقيبتها ووضعها داخل السيارة التي ستسافر بها مع زميلاتها، ونظر لها تلك النظرة التي تشي بأنه سيشتاق لها كثيرًا، سافرت وكأنها تفر من سجن اعتقلت فيه شهرين كاملين، نعم جميعهم طيبون وجميعهم ودودون لكن لم تكن هي الحياة التي كانت ترغب أن تعيشها، تشعر أنها أرغمت على العيش في هذه الحياة، لم تفكر بمالك ولا تريد أن تفكر وكيف أصبح بالنسبة لها، أصبح شخصًا جديدًا مختلفًا عن الذي عرفته قديمًا، لأنها تصبح إنسانة أخرى عندما تكون بالقرب منه ويغلق عليهما باب واحد، أصبح مالك يذكرها بما حدث لها من أخيه والذي يرغمها لما هي فيه الآن، فور أن وصلت للسكن الجامعي نفضت تلك الأفكار من عقلها وأخرجت ملابسها ورتبتها في الخزانة الخاصة بها، فاطمة بمرح: أنا سعيدة يا سنا أنك عدت للدراسة، اشتقت لك كثيرًا ياقصيرتي!.. ولكن رغم ذلك كنت أفضل ألا تأتي، كنت ساذهب لك ومعي كل محاضرات الأسبوع كلما سافرت البلد، وتعلمين أنني أسافر كل أسبوع ، ما كان يجب عليكِ أن تأتي وتتركي زوجك بمفرده.

سنا بضيق: أرجوكِ لا أود الحديث مطلقًا في هذا الموضوع.

فاطمة: حبيبتي أعلم أن ما مررت به ليس بهين، لكنه أمر الله، وأنت الآن متزوجة مالك وأتمنى من الله أن يسعدك، ومالك إنسان طيب والجميع يحترمه ويقدره.

نظرت لها سنا بصمت دون أن تتحدث ببنت شفة، أكملت فاطمة: صحيح علمت أن مالك زوجك سيمتحن العام الثاني في الماجستير.
وغمزت بعينها تجاه سنا بما يعني أنه سيكون قريبًا منك وربما يأتيك هنا السكن.
سنا ببكاء: أرجوكِ اسكتي يا فاطمة، أود أن أنسى هذا الموضوع، أود أن أطوي كل ما يتعلق بهذا الأمر.
فاطمة بعتاب: سنا، لم يكن هذا موضوع، بل إنها حياتك بأكملها، أنا فقط أود أن تتصالحي معها ومع نفسك، وعودي بشوشة وضحوكة كما كنت يا حبيبتي.
تركتها سنا واستبدلت ملابسها محاولة الهروب وقالت: سأسبقك للجامعة يا فاطمة.
فاطمة: انتظري، لم العجلة؟ سأتجهز وأذهب معك.
سنا وهي تمضي خارجًا: الحقي بي.
حقًا إنها تشعر بالاختناق، تشعر أنها تود التحرر، ذهبت وجلست بمفردها تحت تاندة خضراء في حديقة الجامعة، جلس قبالتها شاب يبدو أنه يكبرها سنًا وتبدو عليه الرزانة، نظر لها بعمق يتأمل مسحة الحزن التي تبدو على وجهها الصغير، فيما هي شاردة في عالم آخر، لم يسبق له وأن رآها من قبل، ربما تكون هذه أول سنة لها في الدراسة.. قالها محادثًا نفسه، نهضت من مكانها واتجهت نحو مدرجها فمضى من خلفها حتى اقترب منها، وبصوت رقيق هتف بها:
- آنسة، من فضلك.
نظرت له بازدراء تظن أنه يحاول معاكستها، ثم تركته ودلفت لداخل المدرج، امتلأ المدرج عن آخره، أتت فاطمة وجلست بجوار سنا في البنش الأمامي، لكن ما لم تتصوره سنا أنها وجدت ذلك الشاب الذي حاول التحدث معها يقف أمامها مرة ثانية، نظر لها طويلًا ثم اعتلى المكتب الذي يجلس عليه المحاضرون وامسك بالميكرفون، تعجبت سنا من وقوفه في هذا المكان وقالت يبدو أن هذا الشاب مجنون، ألقى الشاب تحية السلام على الطلاب وقال:
- منذ عام واحد كنت أجلس مكانكم، واليوم أنا معيد واسمي (ياسين)، سأدرس لكم مادة الشعر والبلاغة، أود أن تعتبروني مثل أخ أكبر لكم، وأود أن نكون خارج هذا المدرج أصدقاء وإخوة، والآن عرفوني بأنفسكم، قام بالدور الطلاب والطالبات عرفوا نفسهم بسعادة وحماس، حتى أتى الدور على سنا، قامت من مكانها وظلت صامتة لبضع دقائق فأردف ياسين قائلًا:
- إن كنتِ لا تريدين أن تعرفينا باسمك تفضلي بالجلوس.
ازدردت ريقها وقالت بصوت بالكاد أن تسمعه هي نفسها: اسمي سنا.
نزل ياسين من مكتب المحاضر ووقف أمامها وقال: هل من الممكن أن ترفع الآنسة صوتها قليلًا؟ لم أسمع ما اسمك.
نظرت له بضيق وقالت له بصوت حاولت أن تجعله قويًا: اسمي سنا.
ثم جلست، نظر لها ياسين إليها طويلًا دون قصد يتأمل ثانية مسحة الحزن التي تكسو وجهها وصوتها الذي يشوبه شيء لا يفهمه، عاد لمكانه وبعد انتهى جميع الطلاب من تعريف أنفسهم خاض ياسين مباشرة في الشرح، وكان من المجيدين في الشعر والبلاغة فهو يشرح بطريقة مبسطة من السهل الفهم من خلالها، أعجب به الطلاب وأعجبت بشرحه فاطمة، أما سنا فلم تنتبه لشيء طوال المحاضرة، لاحظ ياسين شرودها في اللا شيء فزاد فضوله في أن يعرف ما بها، لماذا تبدو حزينة وغامضة لهذا الحد؟ ولا يعرف لماذا أهمه أمرها؟ انتهت المحاضرة وخرج الطلاب يتحدثون عن معيدهم الجديد وكم هو مرح وطيب ومتواضع، ذهبت فاطمة لتجلب بعض العصائر والطعام لها ولسنا، أما سنا فجلست مكانها في الحديقة لتجده أمامها وهو يقول:
- هل تسمحي لي بالجلوس آنسة؟
نفخت في الهواء بحنق وقالت: المقعد ليس ملكًا لي، تستطيع الجلوس متي شئت دون استئذان.
ياسين: أعتذر إن كنت سببت لك ضيقًا.
قالت له: لا شيء.
وهمت تمضي ، قال لها: إن لم يضايقك أريد التحدث إليك من فضلك.

قالت بتردد: أعلم أنك محاضري وتستطيع رسوبي في مادتك، افعل أي شيء.
وتركته ومضت فمضي خلفها وقال: أعتذر لك، أظن أنك أسأتِ فهم الموضوع.
قالت: ماذا تريد؟ أرجوك لا تتبعني!.
هتف قائلًا: أريد أن أفهم السر.
قالت بتعجب: سر؟ ماذا تقصد بكلمة سر؟.
تنهد بعمق وقال: سر مسحة الحزن التي تكسو وجهك وصوتك.
وقفت صامتة قليلًا، كادت أن تفر دمعة من عينها لكنها أمسكت نفسها ومضت من أمامه، لم يتركها مصرًا على الحديث معها، مضى بجانبها، تحدث إليها عن الشعر والبلاغة، وجدت نفسها تستمع إليه رغمًا عنها، بل ويعجبها حديثه المثقف، بل وسمحت له بالمزيد من الحديث، قرأ عليها قصيدة هامت بداخلها لكنها حاولت الثبات أمامه، واستأذنت منه وهي تفكر بكل كلمة قالها لها، كانت تجلس شاردة، جاء صوت فاطمة:
- أين كنتِ ياابنتي أبحث عنك من نصف ساعة؟
سنا بسعادة:
-كنت أتجول في الحديقة.
فاطمة: ومال حالك قد تغير فجأة وأصبحت سعيدة؟ هل حدثك مالك؟.
وقعت على أذنها كلمة مالك لتذكرها أنها متزوجة ولا يحق لها تلك السعادة التي تشعر بها، وضعت فاطمة العصائر والفطائر المحشوة بجانبها، فتسربت رائتحها لأنف سنا، شعرت بانقلاب معدتها وكادت أن تتقيأ، لا تستطيع تحمل رائحة الطعام، قامت من مكانها وابتعدت، مضت خلفها فاطمة:
- لماذا قمتِ فجأة؟ ألن تأكلي معي يا سنا؟
هتفت وهي تضع يدها على أنفها: لا أشعر بالجوع.
فاطمة: لم تتذوقي الطعام، سدي رمقك ببعض الطعام القليل.
سنا وهي تبتعد: لا لا أريد.
مضى اليوم وعادوا للسكن، هاتفها مالك ليطمئن عليها، وهاتفت هي أهلها لتطمئن عليهم ويطمئنوا عليها، مضى أسبوع وانتهت محاضراتهم، لديهم الخميس والجمعة بدون محاضرات، اقترحت عليها فاطمة أن يعودوا للقرية، لكنها رفضت العودة وقالت لها: عودي أنت وطمئني أمي علي.
فاطمة قاطبة حاجبها: ألم تشتاقي لزوجك؟!.
حاولت سنا أن تغير الموضوع وقالت: سأحاول المذاكرة حتى لا تتراكم علي المحاضرات.
فاطمة: اممم كما تشائين!.
حزمت فاطمة حقيبتها وعادت للقرية، أما هي فقد بقيت، وفي صباح اليوم الثاني ذهبت للجامعة ودلفت للمكتبة تستعير بعض الكتب التي ستساعدها في المذاكرة، جلست تقرأها في استغراق تام، شعرت بالإرهاق فقد استغرقت وقتًا طويلًا في القراءة، أغلقت الكتاب ورفعت وجهها وتثاءبت بتعب، وجدت ياسين ينظر لها مبتسمًا ويقول:
- هذه صدفة غير متوقعة!.
بادلته بابتسامة خجولة فقال متحمسًا: لطالما ابتسمت أخيرًا سأمنح نفسي فرصة الجلوس أمامك.
تنحنحت وقالت: المكتبة للجميع، أما أنا فسأذهب الآن.
قال لها: آنسة سنا، لماذا تهربين مني كلما حاولت التحدث إليك؟!.
قالت له: لأنني لا أحب أن أتحدث مع الغرباء؛ إنني فتاة قروية ولا أسمح بذلك أبدًا.
صمت قليلًا وقال: وأنا أيضًا لا أحب ذلك، لكن أود أن أعرف من أنت وما بك؟.
نظرت بعيدًا وتنهدت بعمق وقالت: ماذا ستستفيد إذا عرفت؟.

قال لها: أنا لا أحب الطرق الملتوية، بل أحب أن أكون واضحًا، وأنا منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها أحسست أني أعرفك.. أحسست أنك لست بغريبة عني، دون مقدمات أو كثرة كلام أنا معجب بك أو ربما أحبك!!.

التهب وجه سنا بالحمرة وقامت تلملم نفسها من أمامه، قال: آسف ولكن هذا ما أشعر به تجاهك، ولن أسمعك كثيرًا هذه الكلمة إلا بعد أن تكوني خاصتي، أنا أريد أن أعرف من أنت لأدخل البيوت من أبوابها وأطلب يدك من أهلك.

مضت من أمامه وهي تشعرت أن قلبها سيتوقف من شدة الخفقان، أما هو فابتسم وقال: لن أسكت عنك حتى أضع خاتمي في أصبعك!.

وصلت للغرفة التي تقيم بها داخل المبنى الجامعي وهي تلهث أنفاسها، معاتبة نفسها على ما حدث، كيف تسمح له بالحديث معها؟ كانت مشاعرها مختلطة ما بين لوم وحيرة وسعادة مسروقة تشعر بها رغمًا عنها، فهي حقًا كانت تحتاج أن تعيش مثل هذه المشاعر...

نوال أردفت قائلة: مالك، لماذا لا تذهب لزوجتك وتطمئن عليها؟ ربما تكون بحاجة للمال أو لأي شيء يا ولدي، فقد مضى أسبوعان على سفرها ولم تعد.

مالك: أترك لها الحرية يا أمي، لا أود أن أضغط عليها.

نوال ضيقت عينيها وقالت:

-أعرف أنك مغرم بها يا مالك وتود فعل أي شيء لتسعدها.

مالك بارتباك: ماذا تقولين يا أمي؟ أنا لا...

نوال بقلب الأم التي تشعر بولدها قالت:

- وما الحرج في أن تحبها؟ إنها زوجتك يا حبيبي، ومن حقك أن تحبها وتحبك وأن تشتاق لها وتشتاق لك.

صمت مالك دون أن يرد فقالت: اذهب لها وأجلبها معك.

مالك بتعثلم: لا يا أمي البيت مفتوح لها إن أتت، وإن لم تأتِ من نفسها فلن أرغمها على شيء.

محمود بعد ثلاثة أيام من زواج مالك وسنا اتصل بوالدته وقص لها كل شيء، حزنت من أجله ومن نظرة الناس له لكنها استكبرته في نفسها وقالت: أنت رجل يا ولدي.

سعيدة من أجل زواج مالك ولكنها حزينة عليه لأنها تشعر دائمًا أنه مهموم وغير سعيد..

تعددت اللقاءات بين سنا وياسين عن طريق الصدف وعن طريق الدراسة، كان يرمقها بنظراته المحبة في كل لقاء، تشعر بالانجذاب له دون إرادتها لكنها لا تسمح له بالحديث معها، كانت تهرب منه دائمًا وأبدًا، كلما اقترب ابتعدت هي، عادوا للسكن، كانت سنا تجلس شاردة، فاطمة قالت لها: سنا ما بك؟ مر شهر كامل وأنت ترفضين العودة للبلدة؟! أنت متزوجة ياسنا وعليك واجبات تجاه زوجك.

سنا بضيق: فاطمة أرجوك لا تتحدثي في هذا الأمر.

فاطمة: كيف لا أتحدث؟ أنا أشعر أن بداخلك شيء غريب، تحدثي إلي بصراحة يا سنا.

سنا: لا شيء لكنني لا أود أن تذكريني بالقرية وبالزواج.

فاطمة: وهل يصح أن تنسي أمرًا كهذا؟! إنها حياتك بأكملها، لا أفهم ماذا تريدين ياسنا؟.

سنا ببكاء رق له قلب فاطمة: لا أريد شيئًا، أريد الهروب من كل شيء.

احتضنتها فاطمة وربتت على ظهرها فقامت سنا ودخلت الحمام بسرعة، أفرغت كل ما في معدتها، فاطمة:

- ما بك؟ أنا لا يعجبني وجهك الشاحب وجسدك الذي أصبح هزيلًا جدًا، أصبحتِ لا تأكلين تقريبًا، لنذهب للطبيب غدًا يا سنا حتى أطمئن عليكِ.

سنا: من الواضح أنني أصبت بدور انفلونزا أو التهاب في اللوزتين، أنت تعلمين أن هذا يحدث لي دائمًا، سأتناول بعض الأسبرينات وسأكون بخير بعدها.

صنعت فاطمة مشروبًا دافئًا لسنا احتسته ولم تشعر بالتحسن، مضى اليوم وجاء اليوم التالي وسنا لم تشعر بتحسن في حالتها، بل أحست أن المرض اشتد عليها وأحست بهمدان جسدها وخمولها، قالت لها فاطمة:
- ابقي في السكن اليوم حتى تتحسني، وأنا سأذهب لأحضر المحاضرات وسأكتبها لك جميعها بعد أن أعود.
سنا بضعف: لا بل سأذهب.
حاولت فاطمة أن تبقيها في السكن لكنها رفضت، جلسوا في البنش الأمامي للمدرج، كان الصداع يضرب رأسها وألم يساور معدتها، تحاول التركيز فيما يشرحه ياسين ولكنها فشلت في أن تنتبه؛ انتهت المحاضرة وخرجت فاطمة ومن خلفها سنا، وجلست سنا جلستها المعتادة في حديقة الجامعة بوجه شاحب وجسد هازل، أتت ابنة خال فاطمة، سلمت عليها وسلمت على سنا وقالت لفاطمة:
- أريدك في شيء ضروري يافاطمة.
أومأت فاطمة وقالت لسنا: انتظريني هنا ولا تتحركي، سأعود إليك بسرعة من هنا.
تركتها ومضت فاطمة مع ابنة خالها، لمحها ياسين تجلس بمفردها فمضى نحوها وألقى عليها السلام، ردت السلام وهي تنظر للأرض فقال لها:
- آنسة سنا ما زلت أنتظر ردًا علي ما عرضته عليك.
نظرت نحوه فرأت وجهه مشوشًا، قامت من مكانها بصعوبة، حاولت أن تمضى لكن جسدها ترنح وسقطت أمامه، حملها بفزع وذهب بها لمشفى الجامعة، كشف عليها الطبيب وأعاد الكشف مرة واثنتين، كان ياسين ينتظر قلقًا بالخارج، خرج الطبيب وأشار لياسين بالدخول، كانت هي قد استفاقت ولكنها تشعر بدوار شديد في رأسها، دخلف ياسين لغرفة الكشف ليراها ممددة تنظر بإعياء، أردف الطبيب قائلًا بعد صمت:
- هل هذه الفتاة قريبتك؟
ياسين بقلق: إنها طالبتي التي أدرس لها.
صمت الطبيب وقال: هل هي متزوجة؟
ياسين متعجبًا: لا أعلم، ولكن يبدو أنها غير متزوجة.
ياسين بقلق: ما الأمر أيها الطبيب؟!.
تنهد الطبيب بعمق وقال: الفتاة حامل في الشهر الثاني.
اتسعت عينا ياسين والتزم الصمت، فجاء صوتها ضعيفًا وهي تحاول أن تقوم من مكانها:
- أنا متزوجة أيها الطبيب.
الطبيب: آسف لأنني تشككت في ذلك لصغر سنك، سأكتب لك بعض الأدوية ولتذهبي لطبيب مختص من أجل صحتك وصحة جنينك.
كان ياسين يقف مدهوشًا مذهولًا لا يستطيع أن يصدق ما يسمع، أحس بوخز في قلبه، هدمت أحلامه في لحظة، التقطت الروشتة من الطبيب وهي في مفاجأة أيضًا، لم تكن متوقعة حدوثها، مضت تترنح للخارج وياسين يمضي خلفها وقد أسكتته الصدمة، قال لها:
-لماذا لم تخبريني؟ لماذا تركتني أبني عليك أحلامي وأصل في حبك لدرجة لا أستطيع الخروج منها إلا بدماء قلبي؟..
أكملت السير ولم ترد عليه بكلمة واحدة، لا تعرف ماذا تقول ، قال لها:
- أتعلمين أنني لم أشعر حتى أنني معجب بفتاة قبلك؟ ولكن لا أعرف لماذا أنت؟ ربما لأتعذب.
وقفت أمامه وتنهدت بعمق وقالت:
- نحن مجبرون ولسنا مخيرين لاختيار أقدارنا، كلٌ منا يتألم بطريقة ما.
ياسين: لا أفهم ماذا تقصدين؟ أرجوكِ وضحي ماذا تعنين؟

أشاحت بوجهها بعيدًا وسحبت نفسًا من الهواء ثم قصت له كل ما حدث لها والدموع تملأ عينيها، ولا تعرف لماذا قصت له كل شيء لكنها شعرت بالراحة عندما أفرغت له قصتها، وقف ياسين حائرًا بعد أن سمع قصتها التي فيها ظلم كبير لها، ثم أردف قائلًا:

- لا أعرف ماذا أفعل؟ حتى بعد أن قصصتِ لي كل شيء هذا لا يغير من الواقع الذي نحن فيه، الآن أنتِ متزوجة وتحملين طفلًا.

ثم صمت قليلًا كأنما يتخذ قرارًا وهتف قائلًا:

- الآن علي أن أنسحب من حياتك، أكملي حياتك وانتبهي لزوجك وطفلك القادم.

سالت دموعها وهي تنظر لياسين الذي تركها وذهب وقلبه يؤلمه بشدة، أتت فاطمة وقالت:

- أين اختفيت فجأة؟

أخفت سنا الروشتة في حقيبتها ولم تخبر فاطمة بما حدث، عادا للسكن فقالت سنا لفاطمة:

-سأعود البلدة اليوم.

فاطمة: أخيرًا!!.. لابد أن مالك ينتظرك على أحر من الجمر.

سنا: إنني لن أعود لهناك، بل سأعود لبيت أمي.

فاطمة بتعجب: لماذا؟!!

تنهدت سنا بعمق وقالت:

- لن أعود إلى هناك مرة أخرى يا فاطمة.

فاطمة صمتت قليلًا ثم أردفت:

- سنا، مالك شخص طيب وليس له يد فيما حدث، فلا تحاسبيه بذنب لم يقترفه، هو الآن زوجك تذكري هذا فقط.

سنا: لأنه شخص طيب سأطلب من أهلي أن يطلقوني منه.

شهقت فاطمة وهتفت بغضب: أجننتِ؟ أنت تطلبين الطلاق بعد ثلاثة أشهر فقط من زواجك!!.

سنا بحزن: من المفترض أن هذه الزيجة لم تكن منذ البداية ليتها ما تمت.

فاطمة حاولت إقناعها بالتراجع عما يدور في ذهنها، لكن سنا كانت مصممة على قرارها، عادت سنا لمنزل إخوتها دون أن تخبر مالك بعودتها، احتضنتها أمها وزوجات إخوتها وإخوتها، علق محمد على مجيئها إلى منزلهم وقال لها:

- مرحبا بك في أي وقت ولكنك ما زلت متزوجة حديثًا، وأنت تعلمين أن الفتاة التي تتزوج في القرية على الأقل تظل عامًا كاملًا لا تذهب لبيت أبيها.

لم ترد عليه وأردفت أمها قائلة: لابد أنها أخبرت زوجها وهو سمح لها بذلك.

سنا: أود أن اتخذ قسطًا من الراحة الآن يا أمي.

والدتها: لن تستريحي قبل أن تأكلي، وجهك أصفر شاحب وجسدك أصبح هزيلًا، ما بك يا ابنتي؟!.

-لا شيء سأستريح وسأكون بخير..

نامت سنا في حجرتها القديمة وقتًا طويلًا وكأنها لم تتذوق النوم منذ زمن، استيقظت وأعدت لها والدتها طعامًا شهيًا ووضعته أمامها، لكنها لم تستطع حتى النظر إليه، نهضت مسرعة وأفرغت كل ما في معدتها، ذهبت خلفها والدتها بخوف وسألتها:

- ما بك يا حبيبتي؟!!.

جاء صوت زوجة أخيها وهي تقول: بها كل خير ابنتك حبلي يا حماتي.

ليلى نظرت لسنا بسعادة وقالت لها: أهذا صحيح.

سنا: لا شيء من هذا يا أمي.

زوجة أخيها بتعجب: هل أنت متأكدة؟.

قالت: نعم أنا متأكدة من ذلك.

- أنا أفضل أن نذهب بك للطبيب حتى تتأكدي.

قالتها زوجة شقيقها..

سنا بحدة: أنا متأكدة مما أقول، لا داعي للطبيب ما حدث التهاب في معدتي كما أخبرني طبيب الجامعة.
مددت سنا جسدها المنهك ثانية في الغرفة التي كانت تنام بها قبل أن تتزوج، أغمضت عينيها وراحت تفكر في كل شيء، القصة لم تبدأ الآن والألم لم يبدأ الآن بل منذ عشر سنوات عندما أهملها الجميع واهتم بها مالك، ليتها لم تعرف مالك في حياتها، دائمًا تشعر أنها مدينة له وأنه صاحب فضل عليها، حتى زواجه منها كان كذلك، ربما لواهتمت بها أمها وإخوتها في الصغر وعرفوا ما بها ما كان لمالك عليها من فضل، هل وجود مالك في حياتها يجعلها تشعر بضعفها أم بقوتها؟ لم تختر هي شيئًا بل هم من اختاروا لها كل شيء، هي الآن تريد الاختيار بنفسها ولن تسمح لأحد الاختيار في حياتها مرة أخرى، ستطلب الانفصال من مالك هي بنفسها ولن تسمح لأحد أن يتولى أمرها ستقرر وحدها، محادثة نفسها.. لكن حتى وإن وافق مالك على الانفصال تبقي مشكلة، هذا الذي بين أحشائها لوعلم مالك بأمره فمن المستحيل أن يوافق على الانفصال، كيف ستخفيه؟ كيف ستتخلص منه؟.. "لا لا لن أخبر أحدًا" قالتها بخوف.. "وسأفاتحه في أمر الطلاق اليوم"..
قامت واستبدلت ملابسها وخرجت من الغرفة، وقالت لوالدتها:
- أمي، سأذهب للبيت ولكن ربما أعود ثانية.
والدتها: ولماذا تعودين؟ لا تذهبي بمفردك انتظري زوجك ليأتي ويأخذك.
- بل سأذهب أنا بمفردي.
ومضت دون أن تستمع لكلمات والدتها، وصلت لبيت مالك تشعر بثقل قدميها في المضي إلى هناك، طرقت الباب وفتحت لها نوال، وفور أن رأتها احتضنتها بحب وسعادة وقالت لها بلوم:
-أنا عاتبة عليك، أيوجد عروس تترك عريسها كل هذه الأيام وأنتم ما زلتم في شهوركم الأولى؟!.
-الدراسة كانت متتالية ولم أستطع تركها.
أتى مالك من الخارج، ألقى السلام وقال لها بابتسامة وسعادة:
- حمدًا لله على سلامتك، لماذا لم تخبريني أنك عائدة لآتي لك بالسيارة بدلًا من المواصلات؟.
صمتت قليلًا ثم أردفت قائلة: إنني مررت على أمي قبل أن آتي إلى هنا.
نوال قاطبة حاجبيها: مررت على بيت أبيك دون أن تخبري زوجك؟
مالك: إنه بيت أبيها يا أمي لا بيت غريب.
أردفت نوال قائلة: وليكن كان من الأولى أن تأتي هنا أولًا وتطلب منك أنت أن تذهب لبيت أبيها.
سنا بصوت مختنق: أعتذر عن ذلك.
ومضت مسرعة وصعدت للشقة التي تعيش بها، نظرت لها نوال ونظر لها مالك، واردف مالك قائلًا:
-أمي، كما قلت أنت من قبل إنها ما زالت صغيرة ولا تعرف الأحكام جيدًا.
نوال تنهدت بعمق وقالت: اصعد خلفها يا ولدي.
مالك قام وصعد خلفها، طرق الباب ففتحت له وكانت ما زالت بثيابها التي أتت بها، دلف للداخل وأغلق الباب من خلفه، جلست وجلس بجانبها بالقرب منها وهتف قائلًا: أتمنى ألا يغضبك كلام أمي فهي ما زالت تعيش بالأعراف القديمة.
قالت ولم ترفع بصرها نحوه: لا شيء، كان علي أن أخبركم قبل ذهابي إلي هناك.
وساد الصمت، كم هو مشتاق لها ويود القرب منها لكنه يخشى من ذلك، هتف قائلًا:
- سأتركك، استبدلي ثيابك واستريحي الآن.
قالت له: لن أستبدل ثيابي لأنني سأعود لبيت أبي مرة ثانية!.
مالك بتعجب: لماذا تعودين ثانية؟!.
قالت بحزم: لأنني فعلت ما يجب علي أن أفعله، وحتى هنا لن أستطع التحمل أكثر من ذلك.

مالك ازدرد ريقه وقال: وماذا تريدين الآن؟.
تنهدت بعمق وقالت: أريد الانفصال.
صمت طويلًا وكان الألم يفطر قلبه، وهتف قائلًا:
- كما تريدين لكن لابد أن تفهمي شيئًا، أولًا أعلم أنكِ كنتِ غير راغبة في أن تكوني زوجة لي كل ليلة في تلك الأيام التي قضيناها معا، وأنك كنت تمثلين علي هذا الدور انصياعًا لأمر شقيقك، وما كنت أنا أستطيع أن أردك حتى وإن كنت تهبيني جسدك بلا روح.
قالت وهي تمسح دمعة تسربت من عينها: لا داعي أن تذكرني بأشياء أود نسيانها بل محوها.
مالك: ألهذه الدرجة أنتِ تكرهين البقاء معي؟ ألهذه الدرجة كان قربي شيئًا مؤلمًا لك؟ أنا مالك يا سنا.
سنا بصوتٍ باكٍ: لأنك مالك كرهت كل شيء؛ فأنت بالنسبة لي تمثل براءتي وطفولتي، وأنت الذي انتهكتهما معًا، أعلم ألا ذنب لك في ذلك أنت تزوجتني فقط لتنقذني من فضيحة، وأتممت هذا الزواج لتثبت براءتي في حين أنني أنا كنت بالنسبة لنفسي متهمة، كنت أجذب يدك في الصغر بأمان واطمئنان، أما الآن القرب منك يستبدلني لإنسانة أخرى لا أود أن أتذكر من ملامحها شيئًا.
مالك: أشعر بك، ليتني أستطيع محو كل تلك المشاعر السيئة من داخلك.
قالت: لا شيء يستطيع أن يمحوها، ولكن عليَّ أن أتخطاها وأتخطى كل شيء.
مالك أمسك بيدها وقال لها:
- ولم لا نتخطاها سويًا؟ أنا....
ثم صمت..
قالت: فلتكن أنت يا مالك ذكرى قديمة وجميلة فضلًا أن تبقى أمامي وتذكرني بما حدث.
مالك بحزن: كما تشائين، لن أرغمك على البقاء.
قالت: أنا لا أريد منكم شيئًا سوى حريتي.
قال: ستأخذين كل حقوقك كاملة، وحتى هذه الشقة سيدفع لك ثمنها.
شعرت بالتقيؤ فذهبت للحمام مسرعة وأفرغت كل ما بمعدتها، وقف قلقًا عليها حتى خرجت فأسرع يسندها لأنها كانت تمضي مترنحة، قال لها بخوف:
- سأذهب بك للطبيب.
قالت هي بخوف:
- لا.. ذهبت للطبيب وأخبرني أن لدي التهابًا في اللوزتين وهذا أثره.
مالك: ولكن وجهك يبدو شاحبًا جدًا، كنت أفضل أن تذهبي...
قاطعته: لا لن أذهب، وسأعود الآن لبيت أبي.
قال لها: ابقي هنا حتى الصباح لأنك متعبة، وأنا سأنام بغرفتي القديمة.
هي حقًا تشعر انها متعبة، نهضت ومددت جسدها فوق السرير وغطت في نوم عميق حتى الصباح، أما هو فلم يغمض له جفن حتى الصباح، أيقظها رنين الهاتف، أجابت بتثاقل على فاطمة التي ألحت عليها في الاتصال، جاء صوت فاطمة:
- أين أنتِ يا هانم؟ امتحانات الميد تيرم ستبدأ غدًا وأنتِ نائمة!.
سنا بقلق: ماذا؟!!
وهي تنهض من مكانها، فاطمة بلوم:
- انظري للتاريخ، لابد أن تأتي اليوم حتي نذاكرسويًا.
مضت سنا متلهفة، نظرت للساعة، لم يتبقَ على القطار سوى نصف ساعة، استبدلت ثيابها بسرعة ودون تفكير طرقت على باب مالك، كان مستيقظًا، جاء صوته من الداخل:
- تفضل
هتفت برجاء:
- من فضلك أوصلني بالسيارة لمحطة القطار.

خرج من الغرفة وقال:
- هل ستسافرين مرة أخرى اليوم؟
- نعم، أخبرتني فاطمة أن امتحانات الميد تيرم ستبدأ غدًا ولم أذاكر.
هتف في وجهها مبتسمًا:
- لا تقلقي ستتخطينها، أنا أثق بذات الضفائر!.
اهتز قلبها لسماع تلك الكلمة التي تعيدها أعوامًا طويلة للخلف.
خرج قبلها وأخرج السيارة، ثم أتت من خلفه ودلفت لداخلها وجلست بجانبه في صمت، ربما كانت قلقة، تنهد مالك بعمق وقال دون أن ينظر لها:
- أتتذكرين يوم رحلة الأقصر؟
تنهدت بعمق هي الأخرى وقالت:
- نعم أتذكرها، كانت من أجمل الرحلات التي قمت بها في حياتي.
مالك هتف بصوت يحمل حنينًا:
- ونحن عائدون غلبك النوم فمالت رأسك على ذارعي، وبقيت على هذا الوضع حتى وصلنا البلدة، حاولت أن أفيقك من النوم ولكنك كنت غارقةً، حملتكِ يومها من فوق المقعد ووضعتك على كتفي وذهبت بك لبيت أمك.
ضحكت سنا بخجل وقالت:
- حملتني؟!.. أنا لا أتذكر شيئًا من هذا.
تنهد بعمق وقال:
- لأنك كنت نائمة، ألم تسألي نفسك كيف وصلتِ إلى بيتك في ذلك اليوم؟!.
قالت: ربما كنت ثقيلة على كتفك.
قال وهو ينظر لها بحب واضح: لم أكن لأسمح أن يحملك أحد غيري.
أحست سنا بشيء غريب ولكنها التزمت الصمت، تفكر في أيام لم يبق لها أثر، حتى وصلوا محطة القطار، هبطت من السيارة وهبط خلفها ثم أخرج بعض النقود من محفظته ووضعها في يدها..
- لا أحتاج، لدي ما يكفيني.
تنهد بعمق وقال:
- ما زلت زوجتي وأنا ملزم بكِ.
نظرت له بتعجب ولكن قطع نظرتها صوت القطار القادم، وبعد لحظات وقف القطار ودلفت بداخله ودلف هو خلفها، قالت له:
-لماذا ركبت القطار؟!.
قال لها:
- لأجد لك مقعدًا فارغًا.
نظر حوله فوجد مقعدًا فارغًا بجانب سيدة لديها طفل صغير، فقال لها مالك بأدب:
- هل هذا المقعد مشغول أم فارغ؟
قالت السيدة: فارغ
فقال مالك لسنا: اجلسي هنا بجانبها.
جلست ولما أطمأن مالك على جلوسها هبط وتحرك القطار وعاد هو إلى منزله، كانت سنا شاردة في كلماته التي تحدث بها إليها، أخرجها من شرودها صوت غنج الرضيع الذي كان ينظر لها مبتسمًا فخفق قلبها وقالت محادثة نفسها "كم هي جميلة الأطفال!".. قالت لها السيدة:
- إلى أين ذاهبة؟
سنا بابتسامة: ذاهبة للجامعة.
هتفت السيدة: هل هذا الشاب شقيقك؟
صمتت وقالت بخجل وتلعثم: لا بل إنه زوجي.

ابتسمت السيدة وقالت: يبدو أنه يحبك كثيرًا ويبدو أنكما متزوجان حديثًا!.
- نعم متزوجان منذ ثلاثة شهور فقط.
السيدة بابتسامة: أسعدك الله حبيبتي.
شكرتها سنا ونظرت من نافذة القطار تشاهد الأراضي الخضراء والمناظر المتاعقبة، فجأة وهي شاردة أصدر القطارصريرًا وارتج رجة قوية فاهتزت سنا هزة قوية جعلتها بدون قصد تضع يدها فوق بطنها وكأنها تخشى على هذا الذي تحمله داخلها، نظرت لها السيدة وقالت لها:
-أنت حبلى؟.
سنا بخجل واحمرار وجه وكأنها تهرب من الكلمة: نعم حبلى!.
السيدة لائمة عليها: ما كنت لتسافري بالقطار، هذا فيه خطر عليك وعلى طفلك، وكيف لزوجك أن يتركك وأنت حامل أن تسافري بالقطار؟!.
سنا وكأنما شعرت بذنب: أنا دائمًا لا أسافر إلا بالقطار.
أشارت لها السيدة محذرةً:
- وأنتِ تحملين جنينًا لا أفضل لك السفر بالقطار، ولا أفضل لك السفر مطلقًا وخاصة في شهورك الأولى.
أردفت سنا قائلة: المرات القادمة لن أسافر بقطار.
ولا تعرف لماذا شعرت فجأة أنها تخاف عليه كلما نظرت للطفل الذي يداعب الهواء بقدميه، تخيلت نفسها تمسك بطفلها، قالت محادثة نفسها وهي تمرر يدها على بطنها:
" لا أريد أن أحبك، أريد أن أقتطع تلك الصفحة بأكملها من حياتي، ولكن يبدو أن قلبي بدأ يخونني وفتح أبوابه لحبك"..
انطوي الطريق بصحبة السيدة وهي تنصحها وترشدها كيف تتعامل مع حملها، وها أخيرًا قد وصلت السكن الجامعي، سلمت عليها فاطمة وجلسوا يذاكرون سويًا حتى صباح اليوم الثاني، ذهبوا للجامعة وخاضوا الامتحان ومضى على خير والحمد لله، لمحها ياسين ولم يستطع منع نفسه من أن يسألها عن الامتحان، قالت له:
- الحمد لله مر بخير.
قال لها: لم أركِ بالأمس في المدرج هل عاودك المرض مرة أخرى؟!.
قالت: لا بل عدت لبلدي.
ياسين محادثًا نفسه .."من ذاك المحظوظ الذي بت بين ذراعيه؟"..
قال لها: وكيف هم أهلك وكيف حال زوجك؟
قالت: بخير، أما عن زوجي فقد طلبت منه الانفصال.
أحس ياسين بسعادة ولكنه لم يبدها فكلامها أعطى له أملًا جديدًا..
- لا تتعجلي في اتخاذ قرار الانفصال، إني لم أرَ أن زوجك مذنب في شيء، وكما أنه سيأتي طفل بينكما فما ذنبه أن يأتي للحياة ويجد أمه وأبوه مطلقين؟.
قالت له:
- أنا لا أريد هذا الطفل.
صمت لحظات أمام كلمتها وأردف قائلًا:
- لا توجد ام لا تريد طفلها ولا تحبه، لا تعاندي قلبك.
هتفت قائلة وكانما تريد أن تذكره بشيء ما:
-لا أقول لك هذا لتأمل في شيء، حتى إن تم الطلاق وتخلصت من الجنين لن أدخل في علاقة أخرى ولن أتزوج أبدًا!.
ياسين وهو ينفخ في الهواء: المهم أن تفكري جيدًا قبل اتخاذ أي خطوة، هل أخبرتِ زوجك بأمر الحمل؟
- لا لم أخبره.
لمحتها فاطمة من بعيد تتحدث لياسين، اقتربت منها وقالت لها:

- سنا
تنحنت سنا وقالت: أستأذنك أستاذ ياسين.
ومضت بجانب فاطمة بصمت قالت لها فاطمة:
- لماذا كان يتحدث إليك أستاذ ياسين؟
قالت بتلعثم: كان يسألني عن الامتحانات.
فاطمة: كيف حال مالك لم أسالك عليه ليلة البارحة؟
تنهدت بعمق وقالت: بخير.
لم يكن لديهم الوقت للراحة، عادوا للسكن ليواصلوا المذاكرة من جديد حتى مر الليل وأشرق الصبح وذهبوا مسرعين للجامعة، خاضوا الامتحان بجدارة وخرج الجميع، فاطمة لمحت ياسين يتحدث إلى سنا مرة أخرى، صحيح توجد مسافة كبيرة بين وقوفهما لكنها تتحدث إليه للمرة الثانية، ارتابت فاطمة في أمر سنا ووقوفها مع يا سين، أردفت سنا:
- أستاذ يا سين، أرجوك لا تتحدث إليَّ مرة أخرى، رأتك صديقتي وأنت تعلم أنني مازلت متزوجة.
ياسين: أفهم ذلك ولن أكررها، ولكني أود أن أسألك قبل أن أذهب إلى قرار توصلتِ في شأن الجنين.
أشاحت بوجهها للناحية الأخرى وقالت بحزن ودمعة سالت فوق وجنتها:
- لا حل أمامي سوى أن أتخلص منه؛ فوالده لو علم بالأمر لن يتركني أبدًا.
ياسين:
- أنا لا أود التدخل في شئونك الخاصة، لكن علي أن أقول لك أن هذه روح بريئة لا ذنب لها في شيء، وإن تم الانفصال بينك وبين زوجك وقبلت بي زوجًا يومًا لك صدقيني سأحب هذا الطفل جدًا، كنت أتمنى لو أنه طفلي ولكن طالما جزء منك سأعتبره ولدًا لي أيضًا وسأعامله كأبيه، ستصدقيني لو قلت لك أنني أتوق رؤيته وأتوق أن أحمله بين يدي وأقبله، على الأقل سأستطيع حمل جزء منك دون محاسبة وذنب، أرجوك لا تفعلي به شيئًا، أشعر أنني أحبه جدًا.
تنحنحت سنا في خجل واستأذنت منه ومضت من أمامه، حاول ياسين الابتعاد عنها بكل الطرق وعدم التفكير فيها ولكنه فشل، وعاد يرسم حياته معها ومع طفلها وكأنه نسي أن لها زوجًا وللطفل أب، وليس من حق أحد أن يرسم حياته معها أو أن يحلم أنه يحمل طفلها سوى مالك، انتهت الامتحانات بعد شهر كامل، خرجت سنا في الصباح الباكر دون أن تيقظ فاطمة، ذهبت لطبيبة نساء، جاء دورها في الكشف، أدخلتها الممرضة، قامت الطبيبة بالكشف عليها وسألتها بعض الأسئلة، أجابتها سنا بضيق، الطبيبة مبتسمة وهي تنظر لشاشة التلفاز التي تظهر الطفل:
- طفلك بصحة جيدة، سأريك إياه بعد قليل.
سنا بلهفة: كيف؟!.
الطبيبة: من خلال الأشعة التي أجريتها.
انتهت الطبيبة من الكشف عليها ونهضت سنا وجلست على مقعد أمام الطبيبة، ثم نظرت للأرض وقالت بتلعثم:
- الحقيقة أنني أتيت اليوم لأطمئن عليه، بل جئت.....
وصمتت لحظات..
- جئت لأتخلص منه!..
خلعت الطبيبة نظارتها وقالت:
- تتخلصي منه؟!!.
سنا: نعم.
قالت لها الطبيبة: لماذا؟!.

صمتت سنا ولم تجب على سؤال الطبيبة، أردفت الطبيبة قائلة بعد تفكير: أهو طفل غير شرعي؟....
قاطعتها سنا: بل شرعي، إنني متزوجة
الطبيبة: إذن لماذا تريدين التخلص من هذا الجنين البرئ طالما أنت متزوجة؟!.
تنهدت بعمق وقالت: لا أريد العيش مع والده.
الطبيبة: وما ذنب الطفل في ذلك؟ وهل أخبرتِ والد الطفل أنك ستتخلصين منه؟
سنا بتردد: لا لم أخبره.
الطبيبة:
-ألم تعلمي أنك لو تخلصتِ من هذا الطفل دون علم زوجك سترتكبين جريمة يحاسب عليها القانون ويحاسب عليها الله قبل القانون؟!.
صمتت سنا ولم ترد، أخرجت لها الطبيبة صورة من الأشعة التلفزيونية وأمسكتها بيدها وقالت لها:
- هذه صورة طفلك.
تعلم الطبيبة أنها تقول هذا من خلف قلبها فأرادت أن تختبر حبها للجنين فقالت لها:
- ولكن لن أريكِ إياها فأنت تريدين التخلص منه، فما حاجتك برؤيته؟ انتهي الكشف تستطيعين الخروج الآن، إنني لن أساعدك في التخلص منه.
نظرت سنا للورقة التي بيدها وقلبها يخفق، قامت من مكانها ومضت ودموعها تسيل، الطبيبة:
-انتظري.
وقامت ومضت نحوها ووضعت بيدها الأشعة وقالت:
- هذه صورة جنينك الذي تحبينه كثيرًا، لا تفعلي شيئًا تندمين عليه باقي عمرك.
الطبيبة بحنان..
- هذه روح خلقت منك فكيف يهون عليك قتلها؟ كيف تهون عليك نفسك؟.
خرجت من العيادة ودست الأشعة دون أن تنظر لها، بعد لحظات من مقاومة شعورها غلبتها فطرة الأمومة وفتحت حقيبتها، أخرجتها ثانية ونظرت لها وقلبها يخفق بشدة.. شيء صغير يبدو أمامها تريد أن تقبله، ستصبح أما بعد ستة أشهر،ستحمله بين يديها، نشأ في تلك اللحظة بداخلها صراع قوي ما بين نفسها وهذا الذي من نفسها، لا تريد أن يبقى أثر لتلك الأيام، تريد أن تمحيها وتخفيها وتزيلها من حياتها، تريد أن تبدأ حياة جديدة لا أثر للماضي فيها، لكن ماذا تفعل هل ستستطيع حقًا أن تمحي كل أثر؟ عادت للسكن مترنحة ثملة من كثرة التفكير، وكانت المفاجأة انتظار ياسين لها بجانب المبنى!.. تعجبت من رؤيته فقال لها:
- جئت لأودعك قبل السفر.
قالت: أستاذ ياسين أنا مازلت متزوجة، لا تنس ذلك أبدًا!.
هتف بحزن: يؤلمني أن أتذكر ذلك، يؤلمني أن شيئًا يمنعني من حتى الاطمئنان عليك والوصول إليك.
كانت تستمع له وهي صامتة وكأنها مغيبة عن الحياة، مضى نحو سيارته بعد أنهى كلماته لكنه عاد ثانية وأردف قائلًا:
- الإجهاد والتعب يبدوان على وجهك، ماذا لو ذهبنا لمكان ما لتخرجي من جو الدراسة والتوتر وكل ما مررت به في الأيام الماضية؟ هذا جيد لك ولطفلك.
قالت: أستأذن منك، يبدو أنني سمحت لك بأن تتجاوز حدودك معي!!.
- أعتذر منك، إنني لا أقصد شيئًا وإنما أعلم أنك تمرين بظروف سيئة وأحاسيس كثيرة متخبطة، وأنتِ بحاجة لتخرجي من كل هذا، أعلم أنك لا تمنحين فرصة الترويح عن نفسك أبدًا، سواءً هنا أو في بلدك، فأرجوكِ اسمحي لي أن أخرجك من هذا الجو، لا تعلمين كم أتأذى عندما أرى اختفاء ابتسامتك وشحوب وجهك كما يبدو عليك الآن.
زفرت بحنق وقد لانت لكلامه قليلًا، وهتفت قائلة:

- أشعر أني مشوشة لا أعرف كيف أفكر، ذهبت اليوم للطبيبة..
ونظرت برهة وهتفت بحيرة:
- لأتخلص من هذا الجنين الذي لم يكن في حسباني من قبل، لكنها رفضت وكما أنني أنا شعرت بالخوف عليه وشعرت أنني أحبه ولا أستطيع أن أؤذيه أبدًا.
ياسين بخوف:
- أرجوكِ لا تفعلي، هذا فيه خطر كبير عليك.
ونظر لبطنها الذي انتفخ قليلًا وبدأت علامات الحمل تظهر، هتف ياسين وهو ما زال ينظر لبطنها:
- أود أن أضع أذني هنا وأستمع لنبضاته التي خلقت منك وأستشعر حركته، محظوظ ذلك الإنسان الذي ينجب طفلًا من فتاة يحبها، يبدو أن إحساس الأبوة شيء جميل.
قالت محادثة نفسها.. "ترى ماذا سيفعل مالك لو علم أنني حامل وأنه سيصبح أبًا؟!"..
جاء صوت ياسين:
- هيا يا سنا ما زال بوسعنا أن نقضي وقتًا قبل سفرك.
سنا: لا أستطيع أن أفعل ذلك.
ياسين: أنتِ خائفة مني؟
قالت: لا، لكن لا يصح أن أخرج معك بمفردنا.
قال لها: اعتبري نفسك تجلسين مع زميل في المدرج، صدقيني لم أطلب منك هذا إلا رفقًا بحالك.
ترددت في البداية ولكن استطاع أن يقنعها ياسين بعد محاولات عديدة أن تذهب معه، حقًا هي تريد أن تخرج من كل هذه الأجواء التي خنقتها وآلمت قلبها، تريد لو تخرج خارج هذا الإطار ولو قليلًا، قالت:
- سأذهب ولكن بشرط.
- بشرط، هل ستشترطين عليَّ؟!!.
-نعم، أن تتذكر أنني متزوجة وأنت بالنسبة لي شخص غريب.
ياسين: سيدة متزوجة وحبلى أيضًا، أتذكر ذلك جيدًا، هل أصبحتِ مطمئنة الآن؟
أومأت بالإيحاب فقال:
- إذن هيا بنا لنذهب الآن، ما رأيك في رحلة وسط النيل؟
قالت: ربما تستغرق وقتًا طويلًا وأنا أريد العودة مبكرًا حتى أرتب حقائبي.
ياسين بسعادة: لا تقلقي لدي سيارة، أيتها الطالبة النجيبة اسمعي كلام معلمك!.
مضت جانبه مترددة، ولكن على أي حال ياسين شاب على خلق، دلف للسيارة وفتح لها الباب، قالت: لا أنا سأجلس في المقعد الخلفي.
ياسين بضيق: كما تشائين.
جلست في المقعد الخلفي وقاد ياسين السيارة لشاطئ النيل بالقرب من الجامعة، برغم قربه من الجامعة لم تذهب إليه أبدًا، اصطف ياسين السيارة جانبًا وهبط منها وفتح باب السيارة ومد يده ليصطحبها، لكنها رفضت أن تمسكها وهبطت دون أن تدعه يمسك بكفها، ياسين هتف بعصبية:
-أنا أحبك حقًا، أحبك أكثر من أي شيء ومن أي إنسان في الحياة، ولكن لا أعاملك الآن كحبيبة ليس من حقي ذلك، أعاملك كشخص عزيز علي أو ربما كشقيقة.
نظرت له في صمت دون أن تعلق على كلامه ، أردف قائلًا:
- والآن لنبدأ رحلتنا.
دلفوا للداخل وأعجبها منظر النيل والمراكب الصغيرة بداخله، قالت وهي تنظر حولها:
- لم آتِ أبدًا لهذا المكان من قبل، ولكن حقًا إنه مكان رائع ومريح للأعصاب، ما أجمل النيل والأشجار من حوله!.

- أنا سعيد جدًا الآن لأنني أستطعت أن أشعرك بالسعادة ولو قليلًا، ها ما رأيك أن نأخذ مركب من هذه المراكب ونبحر به في النيل حتى تغرب الشمس؟.
قالت: لا لابد أن أكون في المبنى عند منتصف النهار، لا أستطيع التأخر عن ذلك.
قال بحزن: أمرك ياسيدتي الأميرة، إذن نتجول ساعة واحدة بالمركب داخل النيل ونخرج بعدها.
وافقت على هذا الاقتراح ودلفوا لداخل المركب، وصارت تمخر بهم في عمق النيل، كانت تجلس مبتعدة عنه، كان هو يمسك حقيبة بلاستكية، اقترب منها بعض الشيء وفتح الحقيبة التي كان يمسك بها وأخرج منها ثياب مولود صغير، ثم نظر لها وقال:
- هل تقبلين مني هذا؟
نظرت له متعبة في صمت فأردف قائلًا:
- أرجوكِ لا ترفضي، أرجوكِ.
خفق قلبها لرؤية الثياب الصغيرة لكنها لم ترد عليه ولم تمسك بها، فنهض ياسين من مكانه واقترب منها، بل وسمح لنفسه أن يقترب أكثروأكثر، حاولت أن تبتعد فوضع الثياب على بطنها ومرر يده عليها برفق وقال وهو ينظر لعينيها بحب:
- سيكون جميلًا هذا الطفل وبريئًا مثلك!.
قامت من مكانها بفزع وقالت ببكاء:
- أستاذ ياسين، حتى هنا وكفى، أعدني الآن.. الآن!.
ياسين وهو ينفخ في الهواء:
- أنا آسف، اعذريني لقد نسيت نفسي تلك اللحظة ومنحت لنفسي حقًا ليس حقي، لو تعلمين كم أحبك وأحب أن تكوني أنتِ وهذا الطفل بالقرب مني.
علا رنين هاتفها في تلك اللحظة فنظرت لشاشة الهاتف وكان مالك المتصل، شعرت بخوف شديد ولوم لنفسها، ضغطت على زر الإجابة بخوف، حاولت أن تخفي خوفها، أجابت بصوت مرتجف:
- كيف حالك؟.
رد مالك: بخير كيف حالك أنتِ؟
- الحمد لله بحال جيد.
أحس مالك بشيء ما في صوتها فسألها:
- ما بك هل عاودك التهاب اللوزتين؟
قالت بصوت يشبه البكاء: لا شيء.
أردف قائلًا: أشعر أنكِ لست بحالة جيدة، أخبريني ما بك ومتى ستعودين لأنتظرك في محطة القطار؟.
قالت: اليوم سأعود بإذن الله.
- سأنتظرك في محطة القطار بالسيارة.
لم ترد ولكنها أحست في تلك اللحظة أنها بحاجة لمالك أن يكون بجانبها، فلم تمانع أن ينتظرها عندما تعود، انتهت المحادثة ووضعت الهاتف داخل حقيبتها، كان ياسين يدفن رأسه بين يديه فنظر لها، قال:
- أرأيت مثل هذا الموقف من قبل.. شخص مغرم بفتاة ويجلس صامتًا وهي تتحدث أمامه إلى زوجها؟! أتعرفين ماذا كنت أود أن أفعل؟ كنت أود أن أختطف منك الهاتف وأصرخ فيه بأي حق تكون زوجتك أنت وتحمل طفلك أنت؟ لماذا اختطفتها مني؟ أنت سارق أنت لص.
بكت سنا، أحست أن ياسين أوشك على الجنون وأحست بالندم الشديد لأنها قبلت أن تخرج معه، لما رآها بتلك الحالة حاول أن يهدئ من ثورته وأردف قائلًا:
-أعتذر حقًا، لم أقصد أن أخيفك.
هتفت بخوف: أعدني أرجوك.. الآن.

أومأ بالإيجاب وقال: سأعيدك ولكن بعد أن تجيبي على سؤالي، لم تكن اللهجة التي تحدثتِ بها لزوجك لهجة زوجة مغصوبة على الحياة مع رجل لا تحبه، بل لهجة زوجة تحترم على الأقل زوجها إن لم تكن تحبه، فسري لي هذا؟!.

صمتت طويلًا وقالت:

- ليس من حقك أن تسألني هذا السؤال، أنا لم أنفصل عنه بعد، أنا ما زلت زوجته، لم يعاملني قط معاملة سيئة.

ثم نفخت في الهواء وقالت:

- إنني فقط لا أقبل الطريقة التي تم بها زواجنا.

ياسين بهدوء: وأنا.. أين موقعي في حياتك الآن؟

أردفت قائلة: لا أستطيع أن أقول أن لك مكانًا فيها الآن.

ياسين: أنا لست متعجلًا ولكن امنحيني أملًا أعيش عليه، طمئني قلبي ولو بكلمة أنك ستكونين لي يومًا.

تنهدت بعمق وقالت:

- وحتي هذا لا أعدك به.

ياسين: ولكنني لن أمل في أن أنتظرك، لن أتنازل عنك أنت وطفلنا...

قاطعته سنا:

- ليس طفلك!.

وساد صمت، انتهت تلك الرحلة التي أحست فيها بمشاعر مختلطة، ما بين خوف واحتياج لمالك، عادت للسكن الجامعي بسيارته فلمحتها فاطمة تنزل منها، هبطت فاطمة الدرج مسرعة واقتربت منها وأردفت قائلة أمامه بنبرة لوم:

- أين كنت يا سنا؟ تأخرنا على القطار لم يتبق إلا قليلًا.

ياسين:

- سأوصلكم بسيارتي.

فاطمة:

- لا..

وأكملت كأنها تريد أن تسمعها لياسين:

- تفضلي (مدام) سنا، لابد الآن أن زوجك ينتظرك عند محطة القطار!.

فهم ياسين ما ترمي إليه فاطمة فركب سيارته في ضيق وانطلق بها، ومضت سنا خلف فاطمة لا تعرف بم تفسر لفاطمة ما رأته، رتبت ملابسها في الحقيبة في صمت، فاطمة بعد تفكير:

- سنا، اجلسي أريد أن أتحدث إليك في شيء.. أنا وأنتِ نشأنا سويًا منذ الصغر، أعلم أنك أجل وأكبر من أن تخطئي، ولكن ربما تشعرين أنك ظلمتِ مما حدث فتبيحين لنفسك أشياء كردٍ على هذا الظلم، لكن أود أن أذكرك أنك عندما تقترفين الأخطاء فأنت تقترفينها في حق نفسك لا سوى، ولا تعلمين أين الخير يا حبيبتي..

ثم صمتت لحظات وأكملت حديثها:

- إنني يا سنا كنت أغار من معاملة مالك لك، مالك رجل كل فتاة تحلم به، كنت أخطط بعد أن يتم زواجك بمحمود كنت سأجعلك تقربي المسافة بيني وبين مالك فأنا كنت معجبة به حقًا، ولكن مالك لم يلتفت إلي أبدًا لأنه يحبك.. يحبك منذ الصغر.

سنا أحست بالسعادة وأحست بالضيق من كلام فاطمة عن مالك، كيف لها أن تقول لها ذلك؟! كم هي فتاة باردة حقا، تقول لزوجة أنها معجبة بزوجها!!. أخرجها صوت فاطمة ثانية من شرودها:

- لن أقول لكِ أنه من العيب أن تركبي مع شاب في سيارته بمفردكما لأنك أنت أعلم بالعيب، ولكن أقول لك إن مالك يستحق أن يحترم بل ويحب بكامل القلب.

سنا بغضب ربما وهي لا تشعر في تلك اللحظة:

- فاطمة، لاتنسي أنك تتحدثين عن زوجي!.
فاطمة: أنا أحدثك لأنه زوجك، ولابد أن تضعي أمامك وأمام تصرفاتك هذا.
سنا بتلعثم:
- إنني قابلته صدفة وأصر أن يوصلني لأنني كنت متعبة.
فاطمة: أنا لا أريد منك تفسيرًا، أنا أريدك فقط أن تتذكري أنك تحملين اسم رجل وشرفه وسمعته.
سنا بحدة: وأنا ماذا فعلت؟
فاطمة مبتسمة: لا شيء!.. هيا ياسيدتي فلديك من ينتظرك.
أحست سنا في تلك اللحظة بالشوق لمالك، مشاعرها تتخبط بين رفض وشوق وحاجة له وكلام ياسين لها.. هل حقًا ياسين يحبها؟.. تائهة بين كل هذه التخبطات، حملن حقائبهن وذهبن لمحطة القطار، كانت ما زالت شاردة تائهة، أخرجها صوت فاطمة وهي تقول:
- هيا بنا الآن.
ركبا القطار ومضي مسرعًا بهما، وكان مالك في انتظارها داخل محطة القطار، وصل القطار ونزلت فاطمة ومن خلفها سنا تجر حقيبة خلفها، اقترب مالك منهن وألقى عليهن السلام وحمل حقائبهن، فاطمة قالت لمالك:
- أخي سيأتي بعد قليل وأنا سأنتظره.
سنا بلهجة غريبة: فلتأتي معنا يا فاطمة.
فاطمة: اذهبي أنت مع زوجك، بعد قليل أخي سيأتي.
ولكن فاطمة أصرت أن تنتظر شقيقها وتذهب سنا مع زوجها، جلست سنا داخل السيارة وانطلق بها مالك، قالت له:
- سأذهب لبيت أبي.
وعندما وصل بها لبيت أبيها قالت:
- سأذهب لبيتكم اليوم لأنني أريد أن ألملم بعض الأشياء من هناك.
توجه بالسيارة لمنزله دون تعقيب على كلامها، دلفوا للداخل وسلمت سناعلى أهل بيته وصعدت الشقة وصعد خلفها يحمل الحقيبة، وضعها في صالة الشقة ومضى نحو الباب، قالت له بتلعثم وهي تفرك بيدها:
- متى سيتم الانفصال؟
قال: متي تشائين؟
بعد صمت دام لحظات أردفت قائلة:
- هل لي أن أسالك سؤالًا؟
مالك مبتسمًا: على الرحب والسعة يا ذات الضفائر!.
قالت بتردد:
- هل ستتزوج بعد انفصالنا؟
صمت قليلًا وهتف قائلًا: وما يهمك في هذا الأمر؟
قالت بتردد: إنه مجرد سؤال عادي.
أردف قائلًا: لا أظن أنني سأفكر في الزواج.
قالت: ولماذا لا تفكر في الزواج؟ هل كنت تحب واحدة وتزوجت أم ماذا؟ اعترف قل!..
تعجب من كثرة أسئلتها فقال لها مبتسمًا:
- لم تتغيري يا ذات الضفائر، مازلت ثرثارة كثيرة الكلام والسؤال!.
ثم تركها ومضي نحو الباب، هم بالخروج، أردفت قائلة:
- لم أنت تهرب من كلامي؟ ولم أنت متعجل على الخروج؟.
كان قد فتح الباب، عاد وأغلقه ثانية وقال:
- هل تريدين شيئًا آخر؟!.

قالت: نعم
قال: تفضلي.
قالت: أن تحمل لي الحقيبة للداخل وأن تضعها لجانب الخزانة فإنني لا أستطيع حملها!.
حملها مالك ودلفت من خلفه وقامت بنزع الجزء العلوي من ثيابها وقالت:
- إنني أشعر بحرارة الجو!!!.
قال وهو يشيح بوجهه عنها:
- لكن الجو بارد جدًا!!.
قالت: ربما عاد لي للمرض ثانية وارتفعت درجة حرارتي.
اقترب منها وتلمس جبهتها فنظرت لعينيه مباشرة ونظر لعينيها، شعر بقلبه يخفق، أمسكت بكفه ولمساتها تشي برغبة زوجة تريد زوجها، اقترب منها أكثر وقال:
- فلتكن الليلة الأخيرة!.
وأغلق باب الغرفة وأطفأ نور الغرفة...
في الصباح سحبت نفسها من بين ذراعيه وقالت له:
- لا أفهم ما الذي فعلته أنت ليلة الأمس؟!.
قال لها:
-استعملت حقي كزوج في آخر ليلة بيننا ونحن متزوجين.
تنهدت بعمق ثم قالت:
- بعد الظهيرة سأذهب لبيت أبي.
صمت قليلًا ثم قال وهو ينظر لبطنها: أكنتِ تجتازين امتحانات أم كنتِ تأكلين هناك؟ لقد ظهرت لك بطن.
قالت بخجل وهي تضع كفيها فوق بطنها:
- يبدو أنني أفرطت في الطعام.
أتت الظهيرة وكانت قد استبدلت ملابسها وهبطت للأسفل، قالت لها نوال:
- إلى أين يا سنا؟ لم تأت إلا أمس هل ستسافرين مرة أخرى؟!
قالت وهي تنظر للأرض:
- بل إنني ذاهبة لبيت أبي
نوال:
- اذهبي وعودي مع زوجك، لا تبيتي هناك.
هتفت بتلعثم وهي تنظر لمالك:
- بل سأذهب دون عودة!.
شهقت نوال: ماذا تقولين؟ ذاهبة لبيت أبيك دون عودة؟!... لماذا هل اغضبك مالك في شيء؟ هل داس لك أحد في البيت على طرف؟!.
سنا ببكاء: لا لا لم يحدث شيء من هذا.
نوال: إذن لماذا يا حبيبتي؟ لما تريدين الذهاب لبيت أبيكِ دون عودة؟
مالك:
- أمي، لا تضغطي عليها ولا تكثري من سؤالها.
نوال: كيف يا ولدي لا أسأل؟ زوجتك تقول أنها ستذهب لبيت أبيها ولن تعود لبيتك مرة ثانية، لا أفهم ماذا تعني بكلامها؟!.
تنهد مالك وقال بصوت جامد: تعني أننا سننفصل يا أمي، وأرجوكِ لا تتكلمي في هذا الأمر ولا تتدخلي ثانية.
ناحت نوال وبكت، فجذب مالك سنا من يدها ومضيا لخارج المنزل، فتح باب السيارة ودلفت لداخلها في صمت ، انطلق بالسيارة وبعد مضي خطوات بها أخرج من جيب جلبابه علبة صغيرة وعلبة كبيرة، قال:

- إنها لك.
نظرت سنا لها وقالت: ما هذا؟
قال لها: هذا مهرك.
قالت بتعجب: مهري؟!!.
قال: نعم، إنني لم أجلب لك حليًا عندما تزوجنا.
قالت: ولكنني أخذت الحلي الذي اشتراه لي أخوك.
قال لها: ولكنني أنا الذي تزوجتك وحليك لابد أن تكون مني.
قالت له: سننفصل اليوم فما الداعي لهذا؟
لم يرد عليها مالك، نظرت للعلبة الصغرى وقالت له: وما هذه؟
قال لها: افتحيها وانظري.
فتحتها فوجدت بداخلها نظارة طبية، ارتدتها فرأت الأشياء بوضوح، قالت له: كيف عرفت درجة مقاس نظري؟!.
- ليس من المهم كيف عرفت.
قالت محادثة نفسها "حقا أنت رائع ترى ستتزوجك فاطمة بعد انفصالنا؟"..
وهتفت بصوت مسموع دون قصد:
- أقتلها إن فعلتها!!.
سمع مالك كلمتها فنظر لها في تعجب وهي نظرت للنافذة حرجًا مما قالت، قال لها:
- ها قد وصلنا لبيت أبيك.
كان سيهبط من السيارة ليفتح لها الباب ولكنها قالت وهي تضبط النظارة على وجهها:
- مالك أنت رائع، كل شيء تمنيته حققته لي.
نظر لها في صمت وهتف محادثًا نفسه.. "لم تنطق باسمي منذ أن تزوجنا فعليًا"..
بل كان دائمًا يشعر بالغربة بينه وبينها في كل الأيام الماضية ولكن الآن يشعر أن شيئًا ما تغير بداخلها، تبدو عليها ملامح فتاة التسع سنوات اللحوحة كثيرة السؤال، أغمضت عينيها وراحت تتذكر أشياء مر عليها عشر سنوات، وأردفت قائلة:
- أتتذكر عندما رفضت ذهابي معك للأرض الزراعية وقلت لي اذهبي مع شقيقك؟.
تنهد بعمق وقال: نعم أتذكر.
فتحت عينيها من جديد وقالت: أشعر بالاختناق اليوم، فهل تحقق لي هذه الأمنية القديمة الصغيرة؟.
قال متعجبًا: ما هي أمنيتك يا سنا؟.
هتفت بسعادة:
- أن نذهب سويًا للأرض الزراعية ونجلس تحت شجرة الصفصاف التي حدثتني عنها قديمًا.
برقت عيناه وقال:
- تريدين الذهاب للأرض الزراعية؟ وماذا سيكون قول الناس عنا؟.
قالت: ومن الذي سيرانا؟
واقتربت منه ومالت برأسها على كتفه وهتفت:
- بدلًا آخر شيء أطلبه منك يا مالك قبل أن تصبح غريبًا بالنسبة لي.
رفع مالك وجهها وقال: أنا لا أفهمك حقًا!.
صمتت لحظة وقالت: وأنا لا أفهم نفسي، ولكن أنت تعلم منذ صغري كلما احتجت شيئا جئت إليك أنت الشخص الوحيد الذي لم أشعر بالخجل في أن أطلب منه أي شيء حتى وإن كان الشيء تافهًا أستاذ مالك.
ابتسم مالك ووضع ذراعه حولها وقال: الأستاذ يصبح تلميذًا ضائعًا أمام كلماتك!.
تنهدت بعمق وقلبها يخفق، وهذه هي المرة الأولى التي تشعر بدبيب تلك الروح في بطنها، ضحكت بصوت مرتفع فجأة دون مقدمة فرحة لشعورها بحركة الطفل، مالك متعجبًا:

- ماذا حدث؟ ما الذي يضحكك؟!.
قالت: لا شيء لكنني أشعر أنني سعيدة، ها ستحقق لي آخر أمنية؟
مالك باستسلام: وماذا علي غير أن أحقق أحلام ذات الضفائر؟!
عاد بالسيارة للخلف وأتخذ الطريق الزراعي الخلفي حتى لا يراهم أحد، وعندما وصلوا لأرضهم وشجرته المفضلة التي كان وما زال يجلس تحت ظلها اصطف السيارة على حافة ترعة صغيرة، ونزل من السيارة وفتح لها الباب ونزلت منها، وقفت لحظات تنظر من حولها، استنشقت النسيم العليل وهي تنظر للبساط الأخضر الممتد أمامها ومن حولها وقالت:
- ما أجمل الطبيعة!.
أردف مالك: بجانب من نحب.
نظرت له وابتسامة عريضة تملأ وجهها ، هتف وهو يشير لشجرة صفصاف عريقة ضخمة الجذع ذات فروع كثيرة وكبيرة:
- هذه هي الشجرة التي حدثتك عنها قديمًا.
صفقت بسعادة وقالت:
- كم تمنيت أن أراها يا مالك لا أعرف لماذا كنت ترفض قديمًا اصطحابي معك؟!.
هتف وهو يمسك بيدها ويمضيان:
- لا آتي معك وأنت كبيرة
قالت: لم أتخيل يومًا من الأيام أنك ستكون زوجي!.
تنهد بعمق وقال:
- رغم أنك وعدتني في صغرك وقلت لي عندما أكبر سأتزوجك يا مالك، إياك أن تتزوج من أخرى!.
سنا بخجل: أحقًا قلت لك هذا؟!!.
قال: ألم تتذكري كل وعودك لي حتى الآن؟
قالت بخبث: أي وعود؟
أشاح بوجهه بعيدًا وقال: لا شيء.
استطرد النظر للشجرة مرة أخرى وقال:
- هناك مشكلة، لا طريق لتلك الشجرة إلا هذا الجذع الممتد على عرض الترعة، هل ستستطيعين المضي فوقه؟
شهقت وقالت بخوف: لا أستطيع أن أمضي عليه سأسقط في المياه حتمًا!.
قهقه ضاحكًا: ولكنني أستطيع أن أمضي عليه بكل سهولة، فانا معتاد عليه منذ الصغر.
قالت: وما العمل الآن؟
أمسك بيدها وقال لها: لا تخافي مالك بجانبك ياذات الضفائر.
اقتربا من الجذع وحملها بين يديه، فشهقت وهي تقول:
- ماذا تفعل يا مجنون؟!!
قال بهدوء: سأمضي بذات الضفائر لأحقق لها آخر أمنياتها لدي.
طوقت عنقه بذارعيها ونظرت لعينيه مباشرة فقال لها: لا تنظري إلي هكذا سنسقط سويًا!.
ضحكت بدلال ومضي وهو يحملها حتى وصل للناحية الأخرى وأنزلها برفق، قال لها:
- يبدو أنك افرطتِ حقًا في تناول الطعام وأصبحت ثقيلة.
ضحكت وقالت:
- وربما لسبب آخر!.
قال بتساؤل: وما السبب الآخر؟
قالت محاولة الهروب: هيا لنمض للشجرة.
مضيا سويًا من جلب بعض القش وقال لها:
- اجلسي فوق هذا.

جلست عليه وجلس بجانبها، استعذبت روحها لهفهفة النباتات وحفيف الأشجار من حولها، قالت: مالك، أود أن أفعل شيئًا.
قال لها: افعلي ما يحلو لك.
اقتربت منه ومددت جسدها بجانبه ووضعت رأسها على ذراعه، قال لها:
- أنت الآن تكررين ما فعلته يوم الرحلة، لكنني غير مستعد أن أحملك من هنا لبيت أبيك فأنت أصبحت ثقيلة جدًا!.
ضحكت بدلال وهي تقترب منه أكثر وقالت: مالك هل أحببت في حياتك؟
تنهد مالك بعمق وقال لها: ألا يكفي ثرثرة؟!
قالت له: أجبني يا مالك أرجوك؟
قال: أخشى عليك أن تغاري لأنك ما زلت زوجتي.
اعتدلت وقالت متلهفة: لن أغار، أنسيت أننا سننفصل اليوم؟ أرجوك أخبرني الآن.
نظر لوجهها بعمق وقال:
- نعم أحببت وما زلت أحبها..
فأحست بنغزة في قلبها وتلك المرة لم تضع رأسها على ذراعه، بل طوقته بذراعيها وقالت:
-لكنني أنا التي تزوجتك!.
قهقه مالك عاليًا، أدرك غيرتها عليه وهي تتشبث به وكأنها تخشى أن تأتي أخرى وتخطفه منها، قال محادثًا نفسه.. "ما هذه الفتاة المجنونة تطلب الطلاق اليوم ولكن لاتتركني لواحدة أخرى؟!.. فهم الآن لماذا قالت (أقتلها) في السيارة، ربما كانت تفكر في الأخرى التي تظن أنني سأتزوجها من بعدها، حقًا إنها طائشة".. مضي وقت طويل وهي تضع حوله ذراعيها وتمسك بيدها في جلبابه كأنه سيضيع منها، أردف مالك:
- يكفي هذا فلنعد حتى نستطيع استدعاء المأذون لينهي انفصالنا.
قالت: أأنت متعجل؟
قال لها: أنا لست متعجلًا، أنتِ من طلبت ذلك ومن قررت اليوم.
قالت: حقًا أنا من طلبت هيا الآن لنعود.
حملها مرة أخرى ودلفوا لداخل السيارة ولكن يبدو أنها كانت مجهدة فغطت في نوم عميق، حاول أن يوقظها لكنها أبت أن تستيقظ، فوقف حائرًا قال "كيف سأدخل بها بيت أبيها حاملًا إياها وهي نائمة؟ سأعود بها للبيت وعندما تستيقظ سأشرح لها كل شيء".
وعاد بها لبيته واصطف السيارة وحملها من داخلها ودلف بها للداخل، رأته والدته فقالت:
- ما بها؟ ألم تخبرني أنها ستعود لبيت أبيها؟
مالك بصوت منخفض: سأخبرك يا أمي، إنها نائمة الآن، يبدو أنها مجهدة من الامتحانات.
قالت نوال:
-اصعد بها يا ولدي لنرى ما آخر ما يحدث!.
دلف يحملها إلى داخل الشقة ووضعها فوق السرير برفق واطفأ نور الغرفة، الجو كان باردًا جدًا فجلب لها غطاءً ثقيلًا ودثرها به، وأدخل ذراعها تحت الغطاء فأمسكت بيده متعللة النوم وأنها تفعل ذلك دون قصد!.. جذبته لجانبها ووضعت رأسها فوق ذراعه، صمت قليلًا ثم قال:
- إذن لا تعاتبيني صباحًا عن الذي سيحدث الآن!!.
تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها مالك أن سنا زوجته قلبًا وقالبًا، تهب له قلبها قبل كل شيء، هي أيضًا شعرت بالسعادة من قربه منها، عادت ذات الضفائر القديمة وتصالحت مع زوجة مالك ليحبانه سويًا، قالت معاتبة بدلال:
- كيف تختطفني وتأتي بي إلى هنا؟ بل وتصنعت الخجل.
قال لها وهو يضمها إليه: قلت لك ليلة البارحة لا تلوميني عن الذي سيحدث.
قالت وهي تترك نفسها له وتتركه يقترب منها حتى تمتزج أنفاسهما:
-هل لك أن تستغل نوم ذات الضفائر البريئة هكذا؟

طبع قبلة فوق شفتيها وقال:
- ذات الضفائر كبرت وأصبحت زوجتي.
شهقت وابتعدت عنه وقالت:
- لتعلم أن هذا آخر يوم لنا في الزواج.
أومأ برأسه وقال: يكفيني هذا اليوم الذي أحسست فيه بالحب والسعادة.
تحسست بطنها التي كان يتحرك طفلهما بها، ربما لشعوره بقرب أمه وأبيه من بعضهما، وقالت: مالك أريد أن أخبرك بشيء مهم.
وعند تلك اللحظة طرق باب الشقة بقوة فخرج مالك فزعًا وفتح الباب فإذا بها والدته، جاءت لتزف له بشرى بأن محمود قد عاد الآن ويريد مقابلته ضروري، فرح مالك ولكنه شعر بالضيق أيضًا، لم ينس أن محمود كان سيتزوجها، قالت له والدته:
- هو يريد أن يتحدث إليك.
خرج مالك دون أن يعود لسنا التي كانت قد أوشكت على أن تخبر مالك بحملها ، قالت محادثة نفسها "سأخبرهم جميعًا، سيسعدوا جميعًا بهذا الخبربالطبع".. استبدلت ثيابها وهبطت للأسفل بسعادة، وما إن رأت محمود الذي قص لمالك كل شيء حدث، حتى صارت الدنيا ظلامًا من حولها وتذكرت كل شيء حدث، وتذكرت نظرات صديقاتها لها وحسرتها وقهرتها التي شعرت بهما في ذلك اليوم المشؤوم، فصرخت في مالك وقالت له:
- عاد أخوك وانقضت المهمة، طلقني الآن من فضلك، لا أود أن أبقيى في هذا البيت دقيقة واحدة بعد اليوم.
قام محمود من مكانه وقال: هذا البيت بيتك، أنا الذي أصبحت غريبًا عنه، جئت اليوم لأمر وسأعود كما كنت، آسف لكل ما حدث.
لم تستمع له وخرجت من باب البيت بملابس البيت ولكنها تضع حجابًا على رأسها، ولم تشعر إلا وهي داخل بيت أبيها، ظلت تبكي بقهر وتبكي بحسرة داخل حضن أمها، ذهب من خلفها مالك، حاول الاطمئنان عليها، كانت أمها تحتضنها وأخوها يقف بجانبها في حيرة من إصرارها على الطلاق، قالت بصوت صارخ:
- طلقني من فضلك والآن.
مالك: ولكن...
محمد: مالك، أنت رجل شهم حقًا، أنا لا أريد أن يقول أحد أنها تعيش معك رغمًا عنها، الوضع تغير بعودة أخيك ونحن لا يرضينا أن يظل أخوك بعيدًا عن بيته، طلقها بالمعروف.
مالك: لو أرادت سأبني لنا بيتًا بمفردنا.
قالت: كنت موافقًا على الطلاق فنفذ ما وعدتني أرجوك، لن أعود ولن أتراجع عن هذا القرار.
نفخ مالك في الهواء وظل ينظر لها طويلًا وقال لها: سنا، أريدك أن تعلمي شيئًا، الفتاة التي أحببتتها وما زلت أحبها كانت أنت... وأنت طالق.
مالك لمحمود:
- قبل أن تتصرف من نفسك ليتك أخبرتني، كنت سأعتبرها ماضٍ وسأحرقه.
محمود:
- لا يا مالك هذا الحزن الذي يخيم على وجهك ويسكن صوتك منذ أن طلقتها لا يقول ذلك، كيف كنت سأسمح لنفسي أن أمتلك فتاتك التي أحببتها بل وتربت على يدك؟ كانت بالنسبة لي مجرد فتاة أعجبني شكلها وأردت أن تكون زوجتي، ونسيت كل هذا الآن وأصبحت أراها بعين الأخت، صدقني لم أحزن قط وأدركت سر عدم زواجك، حتى إن تزوجتها أنت كنت تنتظرها يا مالك.
مالك:
- لا تذكرها، هي خرجت من حياتنا إلى الأبد يا محمود.
محمود:

- الفتاة أيضًا تحبك لكن وجودي ذكرها بما حدث، آسف لأنني السبب في كل هذا.
مالك: لا تعتذر عن شيء، هذه أقدارنا.
وابتسم مالك ابتسامة خلفها حزن عميق وقال:
- المهم أنك أنت عدت للبيت وعاودت إلى أمي البسمة.
فاطمة:
- لا أصدق ما حدث لماذا يا سنا تركتِ مالك؟!!.
نفخت بحنق وقالت:
- أرجوكِ دعينا من الذي مضى الآن، لا أفكر في شيء سوى مستقبلي.
شهرها الرابع اقترب على الانتهاء وبطنها بدأت تظهر بالفعل، وبدأ يتحرك بقوة داخلها طفل مالك، عاودت التفكير في أن تتخلص منه ولكن كيف؟ رتبت ملابسها في الخزانة وذهبت لتستحم فغدًا أول يوم دراسة بعد إجازة الميد تيرم، علا رنين هاتفها داخل حقيبتها، نادت عليها فاطمة ولكن لم تسمعها، عاود الرنين مرة أخرى ففتحت فاطمة الحقيبة التي سقطت على الأرض وفرغ منها كل شيء، فلملمت فاطمة الأشياء ودستهم بداخلها مرة أخرى وهي تلملم باقي الأشياء، لمحت شيئًا غريبًا، أمسكت به ونظرت إليه فوجدته صورة لأشعة ثلاثية الأبعاد لجنين صغير، حملقت بها وبرقت عيناها عندما قرأت الاسم والتاريخ، قالت: يا ويلتي تلك المجنونة حامل ولم تخبر أحدًا أمن المعقول أن تكون قد تخلصت منه؟..
دست فاطمة الأشعة بسرعة داخل الحقيبة، وبعد قليل خرجت سنا كانت ترتدي منامة فضفاضة ولم يتبين منها شيء فاطمة كانت قلقة تود أن تعرف هل ذلك الجنين موجود أم تخلصت منه؟ ماذا تفعل لتكتشف ذلك؟ فكرت قليلًا ثم ضغطت على زر أيقونة الموسيقى وضغطت على أغنية كلما كانت تستمعها سنا تقوم كالمجنونة وتتراقص وتتمايل بخفة ورشاقة، فاطمة:
- لقد اشتقت لأيام الجنون، وأنت منذ أن تزوجت وأصبح دمك ثقيلًا، هيا لنرقص ونتمايل كما كنا نفعل.
سنا بسعادة: لقد اشتقت لهذه الأغنية حقًا.
وراحت تتمايل قليلًا ولكنها أحست بأنها لا تستطيع وأمسكت ببطنها، فاطمة قالت لها:
- ما بك؟
جلست وهي تلهث أنفاسها:
- وقت آخر لا أستطيع الآن.
اقتربت فاطمة ووضعت يدها فوق بطنها عن قصد فوجدته مشدودًا ومنتفخًا فقالت:
- اممم لقد سمنت يافتاة حتى أصبحت لا تستطيعين الحركة!.
سنا قالت بتلعثم: حقًا.
وأردفت قائلة: سأحضر لنا بعض الطعام أشعر أنني جائعة.
قالت فاطمة لها:
- اجلسي مكانك وسأحضر لك أنا كل شيء، من الواضح أني من الآن لدي عملان الدراسة والاعتناء بك.
سنا التي ارتابت من كلام فاطمة قالت:
- ولماذا تعتني بي؟
قالت فاطمة مبتسمة: من أجل أنكِ صديقتي.
فاطمة بعد صمت قالت لها: أريد هاتفك لأصور نفسي سيلفي وأنا أحضر الطعام، هذه لحظة فارقة في حياتي.
سنا وهي تمد لها يدها بالهاتف قالت لها: كم أنت تافهة!.
دلفت فاطمة للمطبخ وقالت.. "أتمنى أن تكون سنا محتفظة برقم مالك حتى الآن".. بحثت فاطمة في قائمة الأسماء فوجدته قالت" الحمد لله".. أخرجت هاتفها بسرعة ودونت عليه الرقم، وعادت وأحضرت الطعام وتناولت هي وسنا الطعام، انتظرت حتى تنام سنا وبعد منتصف الليل

غطت سنا في نومها فتسللت فاطمة إلى الخارج واتصلت بمالك، نظر مالك للرقم الذي يظهر فوق شاشته ولم يكن من ضمن قائمة أسمائه، لكنه ضغط على زر الإجابة، جاء صوت فاطمة:
-السلام عليكم.
رد مالك: وعليكم السلام، مَن المتصل؟.
فاطمة: أنا فاطمة يا أستاذ مالك، زميلة سنا.
اعتدل مالك في جلسته وقال بخوف: هل هي بخير؟
فاطمة: اطمئن هي بخير، ولكنني أود أن أخبرك بشيء ضروري هي تخبئه عن الجميع.
مالك بتساؤل وقلق: ما هو؟ ولماذ اخترت إخباري أنا ألا تعلمين أننا قد انفصلنا؟!.
فاطمة: لأن الأمر يخصك، زوجتك -أو التي كانت زوجتك- حامل بطفلك في الشهر الرابع، وأنت من حقك أن تعرف هذا.
مالك بدهشة: أأنتِ متاكدة؟!.
فاطمة:
- نعم متاكدة، رأيت الأشعة التلفزيونية باسمها والتاريخ.
مالك: لماذا لم تخبرني؟
فاطمة: لا أعلم، إنها لم تخبر أحدًا على الإطلاق، اكتشفت ذلك صدفة عندما رأيت في حقيبتها أشعة باسمها لجنين صغير، هي من المفترض الآن في شهرها الرابع، لا أعرف لمتى ستخبئ الموضوع وهو سيظهرعليها قريبًا.
مالك بسعادة: شكرًا لك آنسة فاطمة، أرجوك اعتني بها ولا تخبريها أنك أخبرتني ولا تخبريها أنك علمت بالأمر.
فاطمة الصديقة المخلصة تجلس سارحة وهي تنظر لبطن سنا النائمة وتسأل.. "ترى كيف سيكون شكل الطفل الذي ستنجبه؟ هل سيكون وسيمًا وعينيه جميلتين مثل مالك؟ أم سيكون قصيرًا ووجهه مستديرًا مثل سنا؟ سأحمله أكثر منها بالطبع، سأربيه أكثر منها هي".. وهتفت بصوت منخفض:
- لو أتى صبي سأقترح عليها أن تسميه (مراد) ليكون (مراد مالك)، ولو أتت فتاة سأقترح عليها أن تسميها (مليكة مالك)..
ثم نهضت من مكانها وصفقت بيدها وقالت: آه، متى تمضي الأيام لأراه وأحمله؟.
استيقظت سنا على صوت تصفيق فاطمة فقالت وهي تتثاءب:
- لماذا تصفقين وتهللين هكذا؟ أجننتِ؟
فاطمة:
- لا شيء، ولكنني تخيلت نفسي متزوجة وأحمل بين أحشائي طفلًا.. لابد أنه إحساس رائع.
سرت رعشة في جسد سنا وقالت:
- وما الذي جعلك الآن تفكرين بهذا الأمر؟
فاطمة: إنه أمرتفكر به كل فتاة يا سنا، أنا احلم باليوم الذي أجد فيه إنسانًا يحبني وأبادله نفس الشعور وننجب أطفالًا كثيرة نربيهم سويًا ويكبرون بيننا أنا وزوجي.
أردفت سنا بعد صمت:
-أخبرتني من قبل ذلك أنك معجبة بمالك، ومالك الآن بدون زوجة. فاطمة وأمسكت بأذنها وقالت بغيظ:
- ولكنه يحب فتاة ويعيش على أمل أن تبادله تلك الفتاة نفس الشعور!.
همهمت سنا وقالت:
- فاطمة إن كنتِ تقصديني بهذا الكلام فأنا طويت تلك الصفحة من حياتي إلى الأبد.
أردفت فاطمة قائلة:
- لو كان بينكما طفل ربما كنت ستفكرين بالأمر.
ارتجفت شفتا سنا وقالت: حمدًا لله لم يحدث شيء من هذا!.

فاطمة محادثة نفسها.. "من أين أتيت بهذه الجرأة على الكذب يا سنا؟!! ولطالما تكذبين لابد أنك تنوين على إيذاء تلك الروح البريئة، اللهم رد كيدها إن أرادت بالجنين شرًا"..
استبدلت سنا ثيابها وقالت:
- سأذهب للجامعة يا فاطمة، ستذهبين معي أم أذهب بمفردي؟
أردفت فاطمة:
-لا يوجد محاضرات مهمة اليوم ليس من الضروري أن نذهب.
سنا: ولكنني سأذهب لدي بعض الأمور!.
خرجت سنا ولم تذهب للجامعة، بل خرجت قاصدة أي طريقة تخلصها من هذا الجنين، كانت سمعت مجموعة من الفتيات يتحدثن عنه وقالوا إنه طبيب سيء السمعة ومعروف عنه أنه طبيب مادي ويفعل أي شيء مقابل المال، ويقوم بإجراءعمليات في الخفاء للفتيات اللاتي فقدن عذريتهن ليخدع من يتزوجهن، وما خفي كان أعظم.. دفعت ثمن الكشف، كانت تشعر بخوف شديد من عيادته التي كانت في مكان منحدر بعيدًا عن الأنظار وتبدو فارغة من الكشوفات، دلفت داخل غرفة الكشف، ألقت السلام على الطبيب الجالس بخوف، نظر لها من تحت نظارته فقال دون أن تتكلم:
- كم ستدفعين حتى أعيدك عذراء كما ولدتك أمك؟
قامت سنا من مكانها وقالت بارتجاف:
- لا أريد هذا
قال لها: اجلسي ولا تخافي، فالخوف يبدو على وجهك وأنا أريدك أن تطمئني إلي أنك في يد أمينة.
سرت رعشة في جسدها ثم قالت بتلعثم: أود إجهاض حملي.
ضحك الطبيب ضحكة مخيفة وكأنها تخرج من فم شيطان وأردف قائلًا وهو يمد وجهه نحوها:
-الأمر لم يكن فقط فقدان عذرية، بل هناك جنين، وفي هذه الحالة ستدفعين الضعف.
نهضت من مكانها وقالت بعصبية:
- ماذا أنت تظن بي؟ إنني كنت متزوجة وانفصلت عن زوجي ولا أريد أن أنجب منه.
ضحك الطبيب مرة أخرى وقال:
- كلكن تقلن هذا الكلام يا فتاة!!.
ثم نهض من مكانه ودار حولها وقال:
- لا يهمني الأمر، أنا لا يهمني إلا ما ستدفعينه أو... ما ستقدمينه!.
سنا وقد تصبب العرق من وجهها هتفت بخوف:
- وكم سيكون المقابل؟
جلس الطبيب أمامها ووضع ساقًا فوق ساق وسألها: كم شهر عمر الجنين؟.
أجابته بارتجاف: انهيت الشهر الرابع بالأمس.
نهض ثانية وادعى شيئًا من الفزع ليخيفها ويضغط عليها في المقابل، قال لها:
- الشهر الرابع!! وهل نسيت أنك حامل ولم تتذكري إلا بعد مرور أربعة أشهر كاملة؟! بالطبع الإجهاض في هذا العمر للجنين سيكون شيء صعب جدًا، ومن المستحيل أن يقوم طبيب بمثل هذه العملية، الجنين أصبح حجمه أكبر واقترب أن يكون طفلًا، ولماذا صبرتِ كل هذا الوقت؟!.
قالت ببكاء:
- كما قلت لك، إنني كنت متزوجة.
نفخ في الهواء وهو يغمغم بكلمات تبدو أنها سباب غير مفهوم، سكت قليلًا ثم قال:
- سأجري لك العملية، ولكن سيكون المقابل كبيرًا.
ازدردت ريقها وقالت:
- كم المقابل الذي تريده؟
نظر لها مضيقًا عينيه من الأسفل للأعلي وقال:

- مائة ألف جنيه!!.
سنا بشهقة: كم؟!!!!
كررها: مائة ألف جنيه.
هتفت بحزن: لا أملك حتى نصف هذا الثمن ولو بعت كل ما أملك من حلي ثمنه لا يكفي ما تطلبه.
صمت قليلًا وقال وهو ينظر لها بمكر الثعالب:
- ليس شرطًا أن يكون المقابل كله!!.
سنا بتساؤل: لا أفهم ماذا تقصد ليس لدي شيء آخر أمتلكه؟
قام من مكانه ونظر لها نظرة تحمل كل معاني القبح والدناءة، وهتف قائلًا:
- بل تمتلكين ياحلوة!.
سنا: لا أفهم، أرجو أن توضح كلامك.
أردف قائلًا وهو يداعب صدره بيده:
- تمتلكين جسدًا رائعًا وفتانًا، فلتجعلي لي منه نصيب مرتين أو ثلاث على الأقل! وأول دفعة من المقابل أتمنى أن تكون اليوم وسأخفض لك المبلغ للنصف!!.
تعرق وجهها والخوف أصاب جسدها وقلبها، خفق بشدة وكادت أن تصرخ من الخوف لكنها تراجعت للخلف وفتحت باب غرفة الكشف ومضت بأقصى سرعتها دون أن تتحدث بكلمة واحدة، ركضت بعيدًا عن ذلك المبنى وهي تنظر خلفها، تشعر أن ذلك الشيطان يلاحقها، جلست لما أحست بالتعب وبكت بكاءً شديدًا لم تبكه من قبل، عادت للسكن وجهها شاحب وعلامات الذعر تبدو على وجهها، قالت لها فاطمة:
- ما بك يا سنا؟ لماذا تبدين هكذا وكأنك كنت تركضين من شيء مخيف؟!.
بعد أن تنهدت بعمق وحاولت أن تهدأ:
- لا شيء لا شيء، سأعود البلد لأنني أشعر بالإرهاق والتعب، سأستريح يومًا أويومين، والأسبوع المقبل ربما آت.
فاطمة:
- أعود معك إذن.
سنا: لا سأعود بمفردي، أما أنت ابقي هنا لتسجلي لي ما لم أحضره من المحاضرات.
سافرت سنا وكانت تشعر أن كل شيء يلاحقها، الهواجس تفتك بها كلما نظرت لبطنها التي أوشكت على الظهور، ولو ذهبت مرة أخرى لأي طبيب ما الذي يضمن لها ألا يطلب منها كما طلب منها ذلك الطبيب الحقير؟ أتخبر والدتها؟ أتخبر أخاها؟ بالطبع لن يوافقوا على فعلتها وربما يرغموها على العودة لمالك، ومن الناحية الأخرى الحزن يملأ قلبها كلما فكرت أنها ستفقد طفلها، تسقط بين صراعات كثيرة ولو كتب حياة لذلك الطفل سيمدها بما تريد أن تنساه، لكن حقًا تريد أن تنسى مالك، هناك في الجامعة نظر ياسين للبنش الأمامي الذي تجلس فيه سنا دائمًا فلم يجدها، ظن أنها قد غيرت مكانها، بحث عنها في المدرج بأكمله ولم يجدها، انتهى من إلقاء المحاضرة وخرج الطلاب، لمح فاطمة تمضي فمضى خلفها فقال لها بأدب:
- آنسة فاطمة، أليس اسمك كذلك؟
نظرت له فاطمة بتعجب قالت:
- نعم اسمي.
تنهد ياسين بعمق وقال:
-أرجو ألا تفسري ما رأيته من قبل تفسيرًا خاطئًا...
قاطعته فاطمة:
-لم أفسر شيئًا، أعلم اخلاق صديقتي جيدًا.
تنهد بعمق وقال:
-إذن أسالك دون أن ترتاب نفسك بشيء لماذا لم تأت اليوم سنا؟

فاطمة بتعجب:
- أستاذ ياسين، سنا متزوجة وهذا السؤال عنها لا يحق لك!!.
نفخ ياسين في الهواء وقال: أعلم وأعلم أنها تحمل جنينًا.
تعجبت فاطمة وقالت محادثة نفسها "إلى هذه الدرجة وصلت مع هذا الشخص يا سنا، أن تخبريه بما لم تخبري به زوجك!!"..
أردفت فاطمة:
- طالما تعلم ذلك فلماذا تلاحقها إذن؟
ياسين: لا ألاحقها أبدًا، إنه مجرد سؤال عادي لطالبة من طالباتي.
فاطمة هتفت: أستاذ ياسين، أرجو أن تتفهم ما فيه سنا وأن تتركها لشأنها.
ثم أردفت قائلة ظنًا منها أن سنا قد أبلغته بالانفصال وقالت:
- حتى وإن كانت الآن منفصلة عن زوجها فستعود حتمًا لأنها تحمل منه طفلًا.
أشرق وجه ياسين وقال:
- منفصلة!! أتقصدين أن سنا قد انفصلت عن زوجها؟!!.
فاطمة التي فهمت أنه لم يكن على علم بذلك قالت له:
- وعادت اليوم للبلدة لأن زوجها سيردها.
أردف قائلًا: أعتقد أنها لن توافق بذلك!.
واستأذن منها ياسين ومضى سعيدًا فرحًا وكأنه ملك الدنيا وما عليها، وتذكر أنه رأى ذات مرة بطاقة سنا أثناء ما كانت تتحدث معه، ويوما ذكرت له اسم قريتها وعائلتها، دلف لسيارته مسرعًا وراح يقطع الطريق قطعًا لقريتها، نفخت فاطمة في الهواء بحنق وقالت لنفسها "أنت حمقاء يافاطمة، لماذا تحدثت عن انفصال سنا أمام هذا الشخص الذي يبدوا أنه مصر على أن يتدخل في حياتها؟".. فكرت فاطمة قليلا ثم التقطت هاتفها من حقيبتها واتصلت بمالك وأخبرته أن سنا عادت للبلدة صباحًا ويبدو أنها متعبة ومرهقة جدًا.. وأنها تخشى أن يكون أصاب الجنين شيء..
مالك هبط من غرفته وجلس بجانب والدته، تنهد بعمق ثم قال:
- أمي، أود أن اخبرك بشيء.
قالت له: تكلم يا حبيبي.
قال لها: أود أن أرد زوجتي هل أنت موافقة؟
- يسعدني ذلك يا مالك وأدعو الله أن يلم شملكما ليلًا نهارًا؛ لأنني رأيت مدى حبك لها يا ولدي، المهم أن توافق هي.
مالك:
- ستوافق إن شاء الله.
والدته: اللهم أرح قلبه ولملم شتاته وزوجته يارب العالمين.
سأل ياسين عن بيت (صالح) اسم والدها الذي اقتبسه من اسمها، ووصل بسهولة للبيت لأنه معروف في البلدة، دلف رجل معه من أهل القرية للسيارة ووصلا إلى البيت، نزل الرجل وأبلغ محمد أن هناك شخصًا يبدو غريبًا عن القرية يريد مقابلتهم، نظر محمد لياسين الذي يجلس في السيارة واقترب منه وقال:
- مرحبًا، تفضل.
هبط ياسين من السيارة وعرف نفسه لمحمد وقال:
- أنا مدرس للآنسة سنا في الجامعة.
تعجب محمد فيم أتى به إلى هنا، أدخله محمد غرفة الضيوف وقدم له التحية وجلس أمامه في صمت، اعتدل ياسين في جلسته وقال بعد أن تنهد بعمق:
- والدي محام ووالدتي مهندسة، وأنا الابن الوحيد لوالدي ووالدتي، لدينا بيت في القاهرة ولدينا بيت هنا.

محمد:
- اللهم بارك، ولكن حتى الآن أستاذ ياسين لم أفهم سر زيارتك الكريمة لنا، ولماذا قلت هذه المقدمة الطويلة؟.
تنحنح ياسين وقال:
- يشرفني أن أطلب يد شقيقتك الكريمة الآنسة سنا.
صمت محمد طويلًا وأردف قائلًا:
- وهل أنت تعرف شقيقتي من قبل وتحدثت إليها؟
ياسين الذي يعلم تقاليد القرى:
- أخبرتك أنها طالبة من ضمن الطلاب الذين أدرس لهم، وأعجبني فيها الخلق والاحترام وسألت عنها وأتيت من الطريق الصحيح الذي يأتي منه الناس أطلب يدها في الحلال.
كان مالك أمام باب بيت صالح جاء ليطلب ردها من أهلها، طرق الباب فاستقبله (عاطف) شقيق سنا الثاني الذي لم يكن على علم بوجود ياسين بالداخل برفقة محمد، دلف عاطف للداخل ومن خلفه مالك ومضوا نحو غرفة استقبال الضيوف، دلف عاطف للداخل أولًا ومن خلفه دلف مالك في مفاجأة لمحمد، ألقوا السلام على محمد وعلى ذلك الغريب الذي يجلس أمام محمد، خفض محمد رأسه وهو في موقف لايحسد عليه، نظر ياسين لمالك ونظر مالك لياسين، عاطف أردف قائلًا: -يبدو أن السيد غريب عن البلاد؟
أومأ ياسين برأسه وقال: نعم وجئت اليوم طالبًا القرب من الآنسة سنا.
قام مالك من مكانه:
- جئت تطلب يد من؟
محمد: اجلس يا مالك من فضلك.
برقت عينا ياسين عندما سمع اسم (مالك)، ما الذي أتى به الآن؟ أحقًا سيردها اليوم كما قالت فاطمة؟
ياسين:
- شيخ محمد، متى سيكون الرد على طلبي؟
رفع محمد رأسه وقال:
- لتعلم أن شقيقتي كانت متزوجة وحدث خلاف بسيط بينها وبين زوجها، وربما يزول الخلاف وتعود لزوجها.
ياسين:
- أعلم ذلك وأعلم أيضًا....
وسكت قليلًا ثم قال:
- وأعلم أنها تحمل جنينًا وسأنتظرها حتى تضعه، وسنتزوج بعدها وسأشاركها تربية طفلها وأكون له أبًا!.
اشتعلت الدماء في رؤس الثلاثة، وكادوا أن يفتكوا بهذا الـ (ياسين) لولا أن استعمل محمد عقله قليلًا وأشار لمالك بالهدوء، محمد والذي كان في مفاجأة بما يسمع، شقيقته حامل وليس لديهم علم بذلك فلم تخبر أحدًا منهم، قال وهو يجز على أسنانه:
- و كيف عرفت ذلك عن أختي؟ كيف عرفت أنها متزوجة وأنها حبلى؟ أقصت لك هذا؟ أوقفت تتحدث معك في كل تفاصيل حياتها وأخبرتك بما لم تخبرنا به؟!.
ياسين حتى لا يتسبب في إيذائها قال:
- بل اكتشفت ذلك صدفة، حتى خبر طلاقها كان صدفة.
محمد: قص لنا إذن.
ياسين: كنت خارجًا من محاضرتي عليهم وكانت هي تمضي أمامي مترنحة وسقطت أمامي، فحملتها وذهبت بها لطبيب الجامعة فأخبرني أنها حبلى، وأخبرتنا أنا والطبيب أنها متزوجة، هذا

كل ما حدث، واليوم سألت عنها صديقة لها فأخبرتني بالصدفة أنها تعاني من حالة نفسية سيئة بعد انفصالها، وليس من العيب أو الحرام أن أطلب يدها بعد أن أصبحت حرة.

محمد:

- كيف تجرؤ على أن تاتي إلى هنا وتطلب هذا كيف؟ وتعلم أن حتى خطبتها محرمة الآن فالحبلي عدتها تسعة أشهر؟.

ياسين وهل ما طلبته محرمًا أو عيبًا؟ جئت لأطلب الحلال من فتاة حرة، وكما قلت سأنتظرها حتى تضع مولودها.

مالك وهو يجز على أسنانه:

- اتبعني للخارج يا أبا خالد.

قام محمد من مكانه ووقف مالك أمامه وقال معاتبًا:

- كيف لكم أن تخبئون أمرًا كهذا؟ أليس لدي حق أن تخبروني أن لي طفلًا بداخل أحشاء أختك؟ هل هذا يجوز؟ أم أنها كانت تنوي التخلص منه وقتله دون أن أعرف وكأنني لست أبًا له؟

محمد:

- أقسم لك أننا لا نعرف شيئًا من هذا، وأنني فوجئت مثلك بقول هذا الشاب.

ونادي محمد صارخًا على والدته:

- أمي!.

جاءت أمه مسرعة، سلمت على مالك وقالت لمحمد:

- ما بك يا ولدي تزعق زعقًا؟

قال لها: هل أخبرتك ابنتك بأنها حبلى؟

شهقت ليلى وقالت: حبلي؟ والله لم تخبرني بأي شيء!.

محمد: أقتلها الآن وأتخلص منها أم ماذا أفعل؟ أتعلمين من الذي أخبرنا؟ شاب جاء ليطلب يدها.

ليلي بتعجب:

- شاب جاء يطلب يدها!.

- نعم يا أمي، حتى لم ينتظر أن تضع الطفل، هذا شيء لا يتحمله عقل يا أمي، إن قتلته الآن فلا علي لوم نعرف أخبار ابنتك من الأغراب!.

مالك وهو يحاول أن يمسك نفسه:

- أنا لا أفهم لماذا تتصرف هكذا أختك لم تعد طفلة؟!

بصوت أشبه بالزئير قال محمد: أحضري ابنتك يا أمي، الآن.

ذهبت أمها وقصت عليها ما حدث، وسألتها من يكون هذا الشاب، سنا بخوف وتعرف أن مصيبة ستحدث محادثة نفسها.. "كيف عرف ياسين بخبر انفصالي؟ وكيف يأتي إلى هنا؟!"..

أمها وقد اقتربت منها ووضعت يدها على بطنها فشهقت سنا، فقالت لها ليلى:

- أتحملين في بطنك طفلًا ولا تخبرين أمك؟ من أين لك هذا الجبروت؟ كيف لا تخبريني؟ إلى متي كنت ستظلين تخبئين حملك؟ ليس من حقك أن تخبئي طفلًا عنا وعن والده وأهله.

نظرت سنا للأرض وشعرت أنها في ورطة حقيقة ، قالت ببكاء:

- يا أمي، أنا أود أن أطوي تلك الصفحة من حياتي وأن أتخلص من كل شيء فيها.

والدتها برفق:

- لن تنطوي أبدًا يا ابنتي طالما تحملين طفلًا منهم.

قالت ببكاء:

- ولكنني سأطويها.. سأطويها.

جذبتها والدتها من يدها وقالت:

- هيا شقيقك يريدك في الأسفل، أدعو الله أن يمر هذا اليوم على خير.

هبطت ليلى ومن خلفها سنا قلبها يدق كالطبول، برقت عيناها وفغر فاها لما رأت مالك يقف بجانب محمد ، اقترب منها محمد ونظر لها بغيظ ثم صفعها صفعة قوية على وجهها، وبدون أن تشعر وجدت نفسها تخبئ نفسها خلف مالك، أمسك مالك بيد محمد وقال له:
- اهدأ أرجوك، الضرب ليس حلًا.
محمد بصوت غاضب:
- نعرف أخبارك من الغرباء، سأقتلك وأشرب من دمك!.
قالت صارخة:
- بل أنا سأقتل نفسي لأستريح وأريحكم من كل هذا!.
وراحت تبكي بشدة وترتجف، عاطف الذي أتى داخل غرفة الضيوف قال:
- من فضلك يا محمد اهدأ، الشاب لم يرتكب خطأ، بل هي من ارتكبت الخطأ في أنها خبأت أمر حملها عن الجميع، لن نجبرها على شيء آخر، لها القرار والاختيار، اسمعي يا سنا.. أنا لا أريد أن أغصبك على شيء، أظن أن مالك جاء ليردك ومن حقه ذلك فأنت تحملين ولده أو ابنته، وهو الأولى بك.
مالك:
- أنا أريدها حتى وإن لم تكن تحمل طفلي.
مسحت سنا دموعها وهدأت ثورتها وصمتت قليلًا وقالت:
- أود أن أقول رأيي في وجود الاثنين، اسمح لي يا عاطف بذلك أرجوك حتى ينتهي كل شيء اليوم.
محمد:
- اقتلها أم ماذا أفعل الآن؟!.
مالك: اتركها تختار يا أبا خالد، أنا لا أود الضغط عليها.
وضعت حجابًا فوق رأسها ودلف أمامها إخوتها، نظرت لمالك نظرة لم يفهمها ودلفت خلفهم، ألقت السلام على ياسين وسألته أمامهم:
- أستاذ ياسين، لربما ترتاب نفوسهم.. هل تحدثت إليك من قبل في أمر زواج أو وعدتك بموافقة؟.
ياسين: لا ولكنني آمل أن توافقي على زواجي بك، وسأراعي الله فيك وفي الطفل ويشهد الله على ذلك.
كان مالك يقف صامتًا وهو يشعر أن الدماء ستخرج من عروقه، تنهدت بعمق ونظرت لمالك ثم قالت:
- وأنا موافقة أستاذ ياسين!!.
ياسين تهللت أساريره وقال:
- لنقرأ الفاتحة الآن شيخ محمد ونتمم الزواج عندما تضع الطفل.
مالك الذي انتفض من صمته قال:
- ليس لك الحق أن تقرأ فاتحة على امرأة متزوجة.
ياسين: متزوجة؟!.
مالك بحدة: نعم متزوجة
ونظر لها وقال: من حقي أن أردك، وأنا رردتك إلى عصمتي الآن، وإخوتك شهود، وأستاذ ياسين أيضًا شاهد!.. وسأبلغ مأذون القرية.
وخرج مالك تاركًا إياها في مفاجأة، محمد هتف بياسين:
- اخرج من هنا ولا تفكر في العودة مرة أخرى، ليس لدينا شقيقات، شقيقتي متزوجة وبعد قليل ستذهب مع زوجها..
عاد مالك بعد لحظات، أبلغ مأذون القرية ثم أتى ليأخذها، كان ياسين ما زال موجودًا، قام من مكانه ووقف في وجه مالك وقال له:

- هذا لا يجوز أن تردها إن لم تكن هي موافقة على ذلك، هل سترغمها على العيش معك؟
مالك:
- وهل يجوز أن تأتي أنت وتخطب امرأة لم تكتمل عدتها وتحمل طفلًا ومازالت زوجتي؟ لم يقع الطلاق في الأصل لأنها حامل.
ياسين: ولكن....
جاء صوت محمد من الخلف وهو يقول جازًا على أسنانه:
- ارحل أيها الغريب، لقد كان الرجل معك كريمًا ولم يقتلك أو يدفنك حيًا ولم يلحق بك أي ضرر، فلا تكن أبله وحافظ على حياتك، ما تقوله لا يقبله عقل، أنت تتحدث عن زوجته التي تحمل طفله وتفاصل معه في أمرها!!. أتعلم ما معنى زوجته؟!.
كانت هي تقف خائفة من الموقف، تخشى أن تنشب بينهما معركة تؤدي إلى قتل أحدهما، جاء صوتها وهي تقول:
- أستاذ ياسين، عد الآن لبلدك.
مالك بغضب هادر:
- اخرسي، لا اريد أن أسمع صوتك، واصعدي الآن، بعد قليل سنعود للبيت، أتسمعين؟
ثم نظر لياسين وقال له:
- حلمي حتى الآن يفوق غضبي، فعد إلى بلادك قبل أن تعود جثة هامدة.
ياسين كتم غيظه في نفسه وانسحب من بينهم وركب سيارته وانطلق بها، كان محمد يقف في صدمة، أما عاطف الذي صعد الدرج من خلفها قال لها:
- أنتِ أخطأتِ خطأ كبيرًا جدًا، ولو كنت مكان زوجك ما قبلت بك، أين أخلاقك وتربيتك في أن تفعلي فعلة كهذه؟
قالت بعصبية: أي فعلة؟ أليس لدي الحق في أن أختار الإنسان الذي أود العيش معه؟
عاطف بغضب: أنت على ذمة سيد الرجال، لا تتحدثي عن رجل آخر طالما تحملين منه طفلًا وخبأت عليه ذلك، طلاقك باطل.
بكت سنا بحرقة وقالت: هل أنا بدون قيمة عندكم، ستتركوني أذهب معه وتعيدوني له، أنا لا أريد العيش معه طلقوني منه.
جذبها عاطف من يدها بقوة وقال لها:
- لا والله إنك لا تستحقينه أبدًا، ما زال الرجل يعاملك برجولة يريد حفظك وحفظنا من الألسنة هيا لتذهبي معه ولوعشت خادمة له ما تبقى من عمرك لن توفي له حقه.
أحست سنا بالهزيمة والكسرة، لا مفر من ذلك المصير الذي لم تختره بنفسها، كان مالك قد جلب السيارة ويقف منتظرًا إياها خارج البيت، أوصلها عاطف وفتح لها باب السيارة وأجلسها داخلها، كان مالك ينظر للناحية الأخرى، عاطف مضى للناحية الأخرى وهمس في أذن مالك:
- لا تؤاخذنا ولا تأخذ على تصرفاتها ما زالت طائشة، ستعلمها الأيام يا مالك.
مالك لم يرد عليه وانطلق بالسيارة ودلف بها لداخل البيت، اصطفها وفتح باب السيارة ودلف للداخل دون أن يفتح لها باب السيارة، جففت دموعها وفتحت باب السيارة، ودلفت خلفه تتقدم خطوة وتتراجع خطوتين، كانت تهم أن تعود لبيت أبيها لولا أن استقبلتها نوال بالزغاريد والتهاليل، احتضنتها وقبلتها وقالت لها:
- أهلًا بك يا حبيبتي في بيتك.
ووضعت يدها على بطنها وقالت:
- وبيت ولدك، ليس لديك الحق أن تخبئي علينا أنك حبلى.
جاء صوت مالك:
- لم تكن تعلم أنها حامل يا أمي.
نوال: لا يهم، المهم أنني سعيدة بعودتها وسعيدة بخبر حملها وكأنني امتلكت الدنيا وما فيها الآن يا ولدي، لأنني سأرى لك أولادًا.

كانت سنا تقف صامتة لم تنبس ببنت شفة، دلفوا جميعًا للداخل ولم تجلس هي معهم بل صعدت للأعلى مباشرة، دلفت لداخل شقتها وجلست تبكي بحرقة، وبعدها هدأت وتنهدت بعمق وقامت من مكانها واستبدلت ثيابها، طرق الباب وفتحت له، دخلت أمامه ودخل من خلفها، جلست فوق حافة السرير، لم يتحدث إليها، أخرج ملابسه من الخزانة الخاصة به وأعادها لغرفته القديمة، أدركت أنه سيتركها تعيش بمفردها، عاد ثانية ونظر لها نظرة لم ينظر لها بها من قبل، وقال لها:

- لن تذهبي للجامعة مرة أخرى إلا وقت الامتحانات، وسأكون معك لأن لدي امتحانات أيضًا، ولم أقل لك لأخبرك بل آمرك.

نظرت إليه ولم ترد، تركها وخرج، وألقت بجسدها فوق السريروهي تبكي، صعدت نوال ودلفت لغرفة مالك وقالت له:

- اسمع يا مالك، أعرف يا ولدي أنها آذت قلبك لأنك تحبها وما زلت تحبها، فلا تقس على نفسك وتحرم نفسك منها، إنها زوجتك وتحمل ببطنها ولدك أو ابنتك.

تنهد مالك بعمق وقال: أنا بخير يا أمي لا تقلقي.

ربتت نوال على ظهره وقالت: أتظن أنني امرأة عجوز ولا أشعر بك؟ أنت لست بخير يا مالك ولن تكون بخير إلا بقربك منها، أنا أشعر بك يا ولدي وأشعر متى تكون سعيدًا ومتى تكون غير سعيد.

قام مالك من مكانه وقبل يد والدته وقال: أنا سعيد لطالما ترضين علي يا أمي.

نوال هتفت بحنان: راضية عليك وأدعو الله أن يريح قلبك ويسعد أيامك ياحبيبي.

ياسين جلس وعلامات الحزن تبدو على وجهه، سألته والدته:

- ما بك يا ياسين؟ أشعر أنك على غير ما يرام منذ عدة أيام.

تنهد ياسين بعمق واعترف لأمه أنه يحب ولكن التي يحبها كل الظروف تقف بينهما، وقص لها كل شيء بالتفصيل، قالت له والدته بعد أن استمعت للقصة كاملة:

- كنت سأسعد يايسين لو أنك أخبرتني أنك تحب فتاة أخرى غير التي قصصت لي عنها، ولن أقول لك أننا لم نربك على هذا بل أقول أن القلب ليس له قيود، لا يعرف متى يحب ولا من يحب، ولكن كان من حظك السيء أن قلبك اختار الإنسانة الخطأ والتي غير مسموح لك أن تفكر فيها حتى وإن كانت تبادك نفس الشعور، لو كنت متزوجًا ووقفت زوجتك بنفس الموقف ماذا سيكون رد فعلك؟.

صمت ياسين ولم يرد، أردفت أمه قائلة:

-أعرف حجم ألمك وحجم مشاعرك، ولا أقلل منها أبدًا يا ياسين، ولكن جاهد نفسك واتركها لطفلها وزوجها ولا تقترب منها مرة أخرى، وانسحب من حياتها نهائيًا.

ياسين:

- ليتني أستطيع يا أمي، ليتني.. إنني أراها في كل شيء، أراها في كل الوجوه، رسمت حياتنا سويًا وحتى تخيلت شكل أطفالنا، وحتى رسمت حياة طفلها بيننا.

والدته تنهدت بعمق وقالت:

- أخطأت يا ياسين، كان من الضروري أن تسحب نفسك من وهم أحلامك وأنت على الحافة، كان عليك أن تنظر للحقيقة، كيف ترسم حياتك مع فتاة متزوجة وترسم حياة لطفل ليس ولدك؟ أحق بها زوجها وأحق بالطفل والده.

وضع ياسين رأسه بين يديه، قول الحقيقة من فم أمه أكثرألمًا...

مضت الليلة وأشرق الصبح، استيقظت سنا ولم تهبط من الشقة، ظلت طوال اليوم تمكث بداخلها، لم يذهب لها مالك ولم يسأل عنها، صعدت لها نوال هي وزينب زوجة إسلام، طرقوا عليها الباب، قامت سنا بتثاقل وفتحت لهم، قابلوها بابتسامة عريضة فابتسمت لهم بفتور، دلفوا للداخل وجلسوا في الصالون، قالت لها زينب:

- ما شاء الله، بطنك ظهرت.. يبدو أنك ستنجبين ولدًا!.

نظرت سنا لبطنها بخجل ولم تتكلم..
نوال:
- حبيبتي، لا تجلسي هنا بمفردك حتى لا تشعري بالاختناق، اهبطي للأسفل معنا وكوني بيننا، البيت بيتك أنت وزينب.
سنا بصوت متحشرج:
- أطال الله في عمرك.
نوال:
- هذه حقيقة يا ابنتي، نحن الأمهات نؤدي رسالتنا لنتركها لأمهات أخريات تتسلم رسالاتها، وأنا أمضيت رسالتي، ربيت أزواجكن، والآن أنتن تسلمن الرسالة، سلمت لكن أولادي، ومن أحشائكن سيخرج أحفادي، كل واحدة منكن تحافظ على رسالتها وبيتها وزوجها وأطفالها حتى تنعمن بالراحة في المستقبل وتشعرن أنكن أديتن ما عليكن من رسالة.
زينب وهي تربت على يد نوال:
- ما زلت صاحبة رسالة ياعمتي.
تأثرت سنا بكلام نوال فتخيلت نفسها الأم والجدة التي يحبها أولادها وأحفادها، فابتسمت وأحست أن الحزن ذهب عنها قليلًا، سألتها زينب إن كانت شعرت بحركة الطفل أم لا، أجابتها سنا بنعم منذ شهر بدأت تشعر بحركته، قالت لها زينب:
- تبدين ضعيفة ووجهك شاحب، ولابد أن يذهب بك مالك للطبيب حتى يكتب لك أدوية مساعدة لنموه ولمناعتك أنتِ أيضًا.
أردفت سنا:
- لا لا داعي لم أشعر بتعب.
زينب:
- لا بل ضروري المتابعة، أنا تابعت الطبيب في طفليَّ، وأنا سأخبر مالك بنفسي بضرورة أن يذهب بك للطبيب.
أحست سنا بورطة، إنها لا تود رؤية مالك، ربما خجلًا منه وهروبًا من نفسها ومن كل ما حدث، خرجت نوال ومن خلفها زينب، تحسنت نفسية سنا في وجودهم بعض الشيء، قامت واستبدلت ملابسها وجلست تشاهد شاشة التلفاز، زينب لمالك:
- زوجتك ضعيفة جدًا ووجهها شاحب، لابد أنها لم تهتم بطعامها لأنها ما زالت صغيرة لا تعرف أن الحامل لابد أن تتغذى جيدًا، اذهب بها للطبيبة يا مالك حتى تطمئنكم على حالتها وحالة الجنين أيضًا.
مالك:
- اذهبي بها أنت وأمي يازينب، هذه أمور خاصة بالنساء.
زينب بخبث: بل يذهب بها زوجها وليت اليوم لأنني تركتها تتألم ولا تعرف ما بها.
مالك بلهفة: تتألم؟!.
زينب: نعم تتألم.
نهض مالك مسرعًا وصعد وطرق عليها الباب ففتحت له وخفضت بصرها للأرض لما رأته، قال بلهفة:
- سأجهز السيارة، استبدلي ثيابك سنذهب للطبيبة.
تنهدت بعمق وقالت: أرى أنه لا داعي.
قال وهو يمضي من أمامها: لا تتأخري.
دخلت واستبدلت ثيابها وهبطت الدرج، أشار لها بيده دون أن يلمسها فمضت أمامه وجلست بجانبه في السيارة، نظرت إليه نظرات خاطفة وهو لم ينظر إليها ولم يتحدث إليها بنبت شفة، وصلا للطبيبة في القرية المجاورة، اصطف السيارة وفتح لها الباب ومضت بجانبه، دفع مالك ثمن الكشف ودلفوا للداخل، قابلتها الطبيبة بابتسامة عريضة وقالت لها:

- يبدو أنك عروس جديد؟
لم ترد سنا ونظرت للأرض، نظرت الطبيبة لمالك وقالت له:
- اخرج قليلًا سنتحدث حديثًا نسائيًا.
خرج مالك وجلس في الاستراحة، وسألت الطبيبة سنا عدة أسئلة أجابت عليها سنا، الطبيبة:
-تمددي فوق السرير حتى أكشف عليك الآن.
نامت سنا على ظهرها وقامت الطبيبة بالكشف عليها، ظهرالجنين كبيرًا تلك المرة فقالت الطبيبة:
- ما شاء الله الطفل بصحة جيدة، لكن أمه لم تكن جيدة وضعيفة، بالطبع الرجل الذي أتى معك زوجك؟
سنا بصوت ضعيف: نعم
الطبيبة: سيسعده رؤية طفله!.
أحست سنا بالخجل، أرادت أن تخبئ وجهها، خرجت الطبيبة واصطحبت مالك من الخارج وقالت له:
- اقترب من شاشة التلفاز لترى طفلك الجميل.
نظر مالك للشاشة الصغيرة فرأى بداخلها جنينًا صغيرًا يتحرك، فخفق قلبه بالحب.. هل كانت ستحرمه منه؟! ونظرت هي أيضًا وخفق قلبها بالحب، لا تستطيع مقاومة فطرتها، قالت الطبيبة:
-طفلكما بحالة جيدة، ولكن عليك أيها الزوج الاعتناء بزوجتك لأنها ضعيفة جدًا وتحتاج لتغذية.
سنا فكرت قليلًا ثم أردفت قائلة:
- متى سيكون ميعاد الولادة أيتها الطبيبة؟
سكتت الطبيبة قليلًا وقالت: ستلدين آخر مايو أو بداية يونيو.
فزت سنا من مكانها وقالت: مستحيل هذا سيكون وقت امتحاناتي!.
الطبيبة فكرت قليلًا: اجلي امتحانات هذا العام.
سنا بحزن: أود أن انتهي.
الطبيبة: المهم الآن خذها للوحدة الطبية لتأخذ مصل الحمل، الجرعة الأولى؛ لانها تأخرت في أخذها.
كتبت الطبيبة روشتة وتناولها مالك وخرجا ثم ذهب بها للوحدة الصحية دون أن يتحدث معها بحرف، دلفوا للداخل وأعطتها الطبيبة المسئولة المصل وخرجوا من الوحدة، وقفت بجانب السيارة ومدت أنفها وقالت بصوت يسمعه مالك:
- أشم رائحة ذرة مشوية!.
مالك يحادث نفسه.. "من المفترض أن شهور الاشتهاء والروائح قد مضت، فلماذا تقول ذلك؟! لكن علي أن ابحث لها الآن عن ذرة مشوية"..
دلفت للسيارة وجلست ، وأما مالك فقد نزل وقال لها:
- لن أغيب كثيرًا، ابقي في السيارة.
قالت متعجبة.. "إلى أين ذاهب هو؟!"..
تبتعه بنظراتها الي أن انحرف في الشارع المقابل، بعد قليل حالفه الحظ ووجد رجلًا يبيع الذرة المشوي فقال..
"ربما ظلمتها واشتمتها حقًا"..
ابتاع أربعة أكواز من الذرة وعاد للسيارة، دلف لداخلها ومد يده إليها وقال:
- هذه ذرة
سنا بسعادة: حقًا؟!.
وكأنها لم تكن سنا الأمس، التقطتها من يده وراحت تلهتم فيها بتلذذ دون أن تدعوه أن ياكل واحدًا!!.. ابتسم مالك من طريقة التهامها للذرة وقال..
"يبدو أنها كانت تشتهيه منذ زمن!."..

بعد أن انتهت من الطعام قالت له:
- شكرًا، ومعذرة أنني لم أدعُك لتتناول كوزا
قال:
- المهم أن يأكل الولد
قالت: وما أدراك أنه ولد ربما يكون بنتًا؟!
- كل مولود رزق سواء صبي أو فتاة.
صمتت قليلًا ثم قالت:
- الحقيقة أنني منذ مدة كنت أشتم شيئًا آخر ولم أتناوله.
نظر إليها مالك، فقالت دون أن تنظر إليه:
- كنت أشتم رائحة التوت الأحمر وما زلت.
قال محادثًا نفسه.. "صبرني يا إلهي وهل للتوت رائحة؟!!"..
انتظرت أن يهبط من السيارة ويجلبه لها ولكنه انطلق وعاد بها للبيت، كانت الطبيبة كتبت لها على حقن وبعض الأدوية جلبها لها، صعدت هي للشقة وسألت نوال مالك ماذا قالت الطبيبة، أخبرها مالك أنها قالت إن الجنين بخير ولكنها هي ضعيفة، ثم صمت قليلًا وقال:
- أمي، اهتمي بطعامها وتغذيتها.
نوال: وأنت أيضًا اهتم بها.
مالك: لا أستطيع الآن يا أمي.
نوال: الأيام ستداوي كل شيء يا مالك.
مالك وضع الدواء بين يدي والدته وقال لها:
-اعطها هذا الدواء.
نظرت نوال للدواء وقالت:
-اصعد خلفها واعطه لها بنفسك.
قال: سأغيب بعض الوقت وأعود يا أمي.
خرج وغاب بعض الوقت، وعاد يحمل كيسًا أسود، وجد الدواء فوق المنضدة، بحث عن والدته ولكن يبدو أنها قد نامت، أمسك مالك بالدواء وصعد وطرق عليها الباب، فتحت له وكانت ترتدي منامة قصيرة، مد يده لها بالدواء وبالكيس الذي يحمله، قالت:
- وما هذا؟!
قال: التوت الأحمر.
وضعها بين يديها دون أن ينظر لها وهبط مسرعًا، نفخت في الهواء، لم تظن أن جفاءه سيضايقها لهذا الحد، من المفترض أنها لا تريده فلماذا تضايقها معاملته؟!..
قالت.. "ربما أعادني فقط من أجل الطفل"..
مضت الأيام ومعاملة مالك لم تتغير لها، ظهر بطنها وبدأت حركات طفلها تصبح قوية فكانت تتألم من ذلك، فاطمة كانت تجلب لها المحاضرات وتذاكرها في المنزل إلى أن أتت امتحانات نصف العام، ذهبت له في الغرفة وطرقت عليه الباب، جلست أمامه وقالت:
- ستبدأ الامتحانات بعد ثلاثة أيام فقط.. لو...
وتلعثمت بفمها الكلمات ثم قالت:
- كنت أفضل أن أظل في السكن الجامعي فترة الامتحانات.
قال لها:
- ستسكنين، ولكن ليس في سكن الجامعة، استأجرت لنا شقة قريبة من الجامعة.
قالت: هل ستبقى معي طول فترة الامتحانات؟
قال: نعم، فأنا لدي امتحانات الماجستير أيضًا.
قالت له: هناك دروس أود مراجعتها مع فاطمة.
قال لها باقتضاب: سأراجع لك كل الدروس التي تحتاجين فيها مراجعة.

سعدت سنا، هي تعلم بلاغته وجدارته في اللغة العربية، قالت بسعادة:
- شكرًا لك حقًا!.
لم يرد عليها مالك، ومن الغريب أنه لم يعاتبها ولم يتحدث معها فيما حدث، ولكنه أصبح جافيًا جدًا من ناحيتها، لم يكن قاسيًا ولكنها أدركت أنه كان يعاملها بحب.. بحب عظيم.. وهي تفتقد الآن هذه المعاملة، ربما لأنها فضلت عليه ياسين، وفي الحقيقة لم تفضل عليه ياسين أبدًا ولم يكن لياسين أي وجود داخل قلبها، كانت تنظرإليه بصمت وهو يكتب ولا تعرف ماذا يكتب، مالك رفع وجهه فوجدها تنظر إليه فتعجب من ذلك، قال لها:
- هل تريدين شيئًا؟!.
قالت بغيظ: لا أريد شيئًا شكرا لك!
مضت الثلاثة أيام وسافرا سويًا للشقة التي استأجرها لهما ليقيما بها فترة الامتحانات، كانت شقه صغيرة بها غرفتين ومطبخ وحمام وبها خزانة ملابس صغيرة، رتبت ملابسها وملابسه في الخزانة وحاولت ترتيب المكان، ساعدها مالك في ذلك فأصبحت الشقة تبدو بمظهر جميل، تحممت سنا وارتدت منامة حمراء وأسدلت شعرها خلف عنقها، وجلست أمام مالك وقالت له:
-هل أعد لك الغداء؟
قال لها وهو يقرأ: لا سأجلب غداءً جاهزًا، لقد أجهدت اليوم.
قالت: لم أشعر بالتعب أبدًا.
قال لها: أمامنا مراجعة، فلتجلبي المذكرات حتى نبدأ.
جلبت المذكرات من الحقيبة وبدأ الشرح لها، كانت تنظر لوجهه وعينيه بين الفينة والأخرى لكن وجهه كان طامسًا في الأوراق التي أمامهما، أو ربما كان يرى نظراتها ولكنه يتجاهلها، جلسا وقتًا طويلًا فأحست بألم في بطنها، فقامت تتأوه وهي تمسك بها، سألها مالك:
- ما بك؟
قالت له: أشعر بألم كلما جلست وقتًا طويلًا.
قال لها: يكفي ما أعدناه اليوم، أنت تلميذة شاطرة، كل الأسئلة التي وجهتها لك أجبت عليها بسهولة.
سعدت من كلماته وثنائه عليها، منذ الصغر ومالك يحثها بالأمل والتشجيع، قالت له:
- وأنت، يكفي مذاكرة اليوم قد أجهدت كثيرًا.
قال لها: لا عليك، أنا متعود.
قالت: ألن تمدد ظهرك لتستريح؟
قال لها: سأمدده على هذه الأريكة.
قالت له: ولكنها ستتعب ظهرك، السرير كبير ويكفينا.
قال لها: إنها مريحة بالنسبة لي.
دخلت الغرفة ونفخت في الهواء بحنق، وقالت: الأمر زاد عن حده، ألم يعلم أنني زوجته أم نسي ذلك؟!!..
استيقظت في الصباح، كان مالك قد استيقظ هو الآخر وتوضأ وصلى، دلف للمطبخ، أعد شايًا وخرج يحمله فوق صينية وضعها على منضدة صغيرة، ووضع بجانبه قطع من البسكويت الجاهز، خرجت من الغرفة، ألقت عليه تحية الصباح فدعاها لتناول الإفطار، قالت له:
- إنني أشعر بالتوتر، وأشعر أنني سأذهب للجامعة وأنسى كل شيء.
نظر لها، وكم كان مالك يبدوا شكله وسيمًا ورؤيته مريحة لقلقها وتوترها، هتف بثقة قائلًا:
- لا تقلقي، استذكرت دروسك جيدًا وفعلت ما هو مطلوب منك، وأنا واثق من أنك ستجيبين بنموذجية إن شاء الله.
هتفت بتمني: إن شاء الله، وأنت أيضًا ستجيب يا معلمي.
ابتسم مالك وقال لها: هيا حتى لا نتأخر.
هبطا من الشقة ومضيا الشارع، وكان يضع مالك يديه داخل جيوب جاكته، سنا أردفت قائلة:

-لنمضِ مشيًا فالمسافة قريبة من هنا للجامعة.
قال لها: أخشى عليك، من الأفضل أن نذهب بتاكسي حتى لا تجهدين.
قالت له: أنا لم أقم بأي مجهود ولم أشعر بالتعب.
لم يرد عليها وكان ينظر أمامه منتظرًا تاكسي، غامت بعينيها قليلًا، تذكرت شيئًا من الماضي فأردفت قائلة:
- هل تتذكر يوم أخذتني للمشفى وجلبت لي النظارة التي رأيت بها جيدًا، كان هذا اليوم وكأنه أول يوم لي في الحياة، رأيت الأشياء يومها بصورة واضحة، رأيت الحياة بشكل جديد.
تنهد مالك بعمق ونظر لها بصمت ، جاءت سيارة ودلفا لداخلها، أوصلها أولًا للجنتها وقال لها:
-لا تخافي، ولا تتعجلي بالإجابة حتى تتأكدي من صحتها، أنا أثق بك.
ثم تركها وذهب للجنته، انقضت فترة الامتحان الأول وخرج مالك وذهب لمكان لجنتها، خرجت فاطمة من اللجنة فلمحت مالك، ألقت السلام عليه وسألها عن أخبار الامتحان فقالت:
-الحمد لله، لم يأت بالصعوبة البالغة، لكنه كان طويلًا بعض الشيء.
خرجت سنا بابتسامة عريضة اختفت عندما رأت فاطمة تتحدث مبتسمة لمالك، ولما رآها مالك سألها:
- ماذا فعلت؟
قالت له: أجبت بفضل تشجيعك ومراجعتك معي.
فاطمة: الحمد لله!.
نظر مالك لفاطمة وقال: انتما طالبتين مجتهدتين؛ لذلك أثق في نجاحكما وبتفوق.
فاطمة ابتسمت في حياءن أما سنا فقد اقتربت من مالك واحتضنت ذراعه وقالت:
- مالك، أشعر أنني مجهدة لنعد الآن للشقة.
وقالت بصوت بارد:
- تعالي معنا يا فاطمة للشقة!!.
فاطمة أردفت قائلة: لا أحب أن اكون عزولًا، ألقاكما غدًا إن شاء الله.
ومضت فاطمة نحو سكن الجامعة ، نظرت سنا لمالك الذي يقف متعجبًا من التصاقها به لهذه الدرجة أمام الأعين، كان يشعر بالحرج لكنه لم يرد إحراجها والابتعاد عنها، مضيا سويًا وكانت تحتضن ذراعه وتنظر لوجهه وهو ينظر للأمام دون أن يتحدث إليها، قال لها:
- ما رأيك أن نذهب لأي مطعم قريب من هنا؟ لابد أنك جائعة الآن.
قالت له: كنت أود أن أعد الغداء بنفسي.
قال لها:
- يكفي عليك إجهاد المذاكرة والذهاب والمجيئ للجامعة.
قالت: صدقني لم أشعر بتعب، أنت لم تتركني أقوم بأي جهد.
أشار بيده: هناك مطعم قريب من حسن الحظ.
دلفوا لداخله وجلسوا لطاولة، هتفت قائلة: لم أشعر بالجوع حقًا.
هتف بحماس: لكنني جائع.
بعد قليل جاء النادل، رحب بهم وطلب مالك منه بعض أنواع الأطعمة، جلبها النادل بعد وقت، وما إن أتى الطعام إلا ووجدت نفسها تأكل بنهم وهو ينظر لها بابتسامة، وقال محادثا نفسه..
"لم تكوني جائعة وتأكلين بهذا النهم!! ماذا لو كنت جائعة ستأكلينني أنا!!.. لكن أنتِ معذورة لأنك تأكلين أنت وما تحملين"..
تناول مالك بعض اللقيمات القليلة، وبعد أن انتهوا من الطعام وعادوا للشقة التي يقيمون بها ، استبدلت ثيابها وغطت في نوم عميق، أما هو كان مستيقظًا يراجع بعض الكتب ، أحس بالخمول بعض الشيء فقام من مكانه وطرق الباب، يريد ملابسه ليستحم حتى يستفيق من ذلك الخمول، لم ترد عليه، انتظر وطرق الباب ثانية ولم تجب، ضغط على مقبض الباب ففتح من أمامه، كانت سنا تغط في نوم عميق، سار بهدوء نحو الخزانة وفتحها وأخرج منها ما يريد ارتداءه

وأغلقها ثانية، وهم بالخروج لكن بصره وقع على بطنها الذي يبدوا منتفخا جدًا وهي نائمة، ود أن يضع يده فوق بطنها ويتابع حركات طفله، وود أن يضع أذنه ويتصنت عليه لكن الكبرياء منعه وخرج وأغلق الباب برفق من خلفه، حل المساء واستيقظت من نومها، خرجت من الغرفة وجدته جالسًا يقرأ ويراجع، هتفت قائلة: ألم تسترح حتى الآن؟

تنهد بعمق وقال: لم أشعر بالتعب.

اقتربت منه وأمسكت الكتب والأوراق من بين يديه وقالت له: كفاك.

مسح على وجهه وتنهد بعمق ومدد ساقيه، هو حقًا يحتاج لراحة، دلفت للغرفة وأتت بثيابها وذهبت لتستحم هي أيضًا، ارتدت شيئًا ناعمًا قصيرًا يظهر ذراعيها ورقبتها وما بعد رقبتها وأكثر من نصف ساقيها، دلفت للغرفة ووضعت بعض الزينة ونثرت عليها العطر وصارت نحوه بدلال وجلست بجانبه، كان ينظر للأعلى، اقتربت منه فلم يخفض بصره، فأمسكت بكفه ووضعتها على بطنها وقالت:

- انظر، إنه يتحرك!.

أحس مالك بحركة الجنين، كان يتمنى ذلك فابتسم بسعادة ونظر إليها فقالت:

- إنني أشعر بالألم.

- هل أذهب بك للطبيب؟.

قالت: لا ولكنني لا أستطيع أن أقف على قدميَّ، أشعر أن قدمي لا تحملني للغرفة.

قال لها: احترت في أمرك قلت لك أذهب بك للطبيب لم توافقي، ماذا بوسعي أن أفعل لك حتى لا تشعرين بهذا الألم؟!.

صمتت قليلًا وقالت بدلال: احملني، لا أستطيع أن أقوم من مكاني!.

نظر إليها بتعجب وقام من مكانه وحملها في صمت، لفت ذراعيها حول عنقه وكانت تنظر لعينيه مباشرة ولكنه كان ينظر أمامه، وضعها برفق فوق السرير ودثرها بالغطاء ومضى من جانبها نحو الباب، رفعت رأسها وقالت:

- أشعر أنني خائفة ولا أستطيع النوم بمفردي.

هتف قائلًا: لا تخافي إنني قريب منك.

وخرج وجلس مكانه وراح ينغمس في الكتب التي أمامه، قامت من مكانها وقالت..

" لم أعد أحتمل تلك المعاملة".. ثم سكتت قليلًا وقالت.. "ربما فاطمة هي السبب، ربما يفكر بها أو ربما يفكر في أخرى؟"..

مضي يومان، كان مالك يعد لها الطعام ويساعدها في تنظيف الأواني وإعداد الطعام، كلما كان جافيًا كانت تشعر بالتعلق به أكثر، فكرت كثيرًا في أن تعتذر له عما حدث وتعترف له أنها تحبه أكثر مما هو يحبها بأضعاف، لكنها أمتنعت، كانت تظن أن وجودهما سويًا سيقرب ما بينهما ولكن يبدو أن القرب أصبح مثل البعد، دلفت لتمتحن المادة الأخيرة لها وكان ياسين هناك ينتظرها عن بعد، رآها فاقترب وقال لها:

- كيف حالك؟

نظرت له بخوف دون أن ترد، قال لها:

- لم أستطيع العيش بدونك!..حاولت ولكنني أفشل في ذلك وأعاود التفكير بك.

مضت من أمامه في توتر مسرعة حتى كادت تسقط، هتف ياسين:

- أرجوكِ اسمعيني للحظات

جاء صوت مالك من خلفه:

- وماذا بعد أن تستمع لك لحظات؟!

نظر ياسين لمالك دون أن يتحدث وبعدها مضى لشأنه، سالت دموعها بغزارة ونظرت لمالك وقالت:

- والله لم أره إلا الآن ولم أتحدث إليه أبدًا منذ أن أتينا

اقترب منها مالك واخرج منديلًا صغيرًا وجفف دموعها، وقال لها:

- لماذا تبكين أنت الآن؟
فقالت وهي تشهق بالبكاء: لأنني أحبك أنت ولم أحب أحدًا إلا أنت.
صمت طويلًا وهتف قائلًا: ولكنك اخترته رغم أنك تحملين طفلي!!.
تنهدت بعمق وقالت ببكاء: لأنني كنت أشعر أنك مرغم علي وأنا مرغمة عليك، ووجود محمود كان يضع لي تلك الحقيقة أمامي دائمًا، كنت أهرب منك يا مالك، والله كنت أهرب منك.
مالك: كفى نتحدث في ذلك الأمر، وهيا حتى نستطيع العودة للبلدة اليوم.
عادوا للشقة، رتبوا الحقيبة وحملها مالك ودلفوا لمحطة القطار، كانت توجد هناك أيضًا فاطمة تنتظر القطار، ابتسمت عند رؤيتهم وقالت لسنا:
-أنا محظوظة لأنني رأيتكم وسنعود سويًا.
سنا التي نفخت في الهواء والتصقت بمالك وكأنها ستحتضنه قالت:
-وأنا سعيدة أيضًا لأنك ستعودين معنا!.
جاء القطار ودلف ثلاثتهم للداخل، جلسوا وتحدثوا كثيرًا في الدراسة وفي الحياة، مالك أعجبه حديث فاطمة وأدرك كم هي فتاة على خلق ومثقفة، كانت سنا تشتعل وتتحرق من داخلها، أردفت فاطمة قائلة:
- ما رأيك يا سنا لو أنجبت صبيًا سمه مراد ولو أنجبت فتاة سمها مليكة؟.
أردف مالك قائلًا:
- أحب اسم مليكة جدًا.
سنا بغضب: ولكنه اسم قديم جدًا لا يتناسب مع الأسماء العصرية!.
دار الحوار عن الأسماء وكان مالك مستمعًا ومستمتعًا بذلك الحديث، وصلوا للبلدة وكان إسلام ينتظرهم بالسيارة، بعد أن سلم عليهم إسلام وأصر مالك أن تركب فاطمة معهم السيارة فأذعنت لإصرار مالك وركبت معهم السيارة، أما سنا كانت تشعر بالضيق لركوبها معهم!.. هبطت فاطمة أمام منزلهم، شكرتهم ولوحت بيدها لسنا، وانطلق إسلام بالسيارة، وصلوا البيت ودلفوا للداخل، استقبلهم أهل البيت بترحاب وسعادة وأردفت نوال قائلة:
- أنرت البيت ياحبيبي أنت وزوجتك.
جلسوا قليلًا وصعدت سنا وهي تشعر بالضيق، حمل مالك الحقيبة وصعد خلفها ووضعها في الصالة وخرج، استبدلت ثيابها وجلست مكتئبة حزينة.... مر يومان على ذلك كانت تجلس معهم في الأسفل وتصعد لشقتها آخر اليوم، وكان مالك ينام بغرفته القديمة، طرق مالك عليها الباب فأحست وكأن روحها ارتدت، كم هي تحتاج لوجوده بقربها!.. جلس أمامها وقال:
- جئت لأتحدث إليك في أمر.
قالت بتساؤل: أمر؟ أمر ماذا؟!.
قال لها: أمر مهم، أمر حياة كاملة.
قالت بسعادة: وأنا كلي آذان صاغية!.
صمت قليلًا وقال بحماس :
-ما رأيك بفاطمة؟!
برقت عيناها وقالت: فاطمة؟!!.
قال:
- نعم، فاطمة صديقتك، كم هي فتاة رائعة!.
قامت من مكانها بغضب وقالت: ولماذا تسأل أنت عن فاطمة؟
تطلع إليها وقال: لأنني أراها عروسًا مناسبة!!.
صعقتها الكلمة فاقتربت منه وهي تشعر أن روحها تتسرب منها في تلك اللحظة، فلا تتخيل حتى مجرد تخيل أن يشاركها أحد في مالك.. إنه رجلها منذ الصغر، قالت بصوت يشبه البكاء:
-عروس لمن؟!
أدرك مالك ما بها فاقترب منها وقال لها:

- أتظنين عروسًا لمن؟!
لم تستطع منع دموعها تلك المرة وقالت: لا أعرف.
قهقه مالك بالضحك عاليًا وشهقت هي بالبكاء وقالت له: طلقني إذن!.
قال لها: أطلقك؟!!.
ثم ضحك ثانية واقترب منها أكثر، ومد كفه ومسح دموعها برفق وقال لها:
- عروس لمحمود يا ذات الضفائر!!.
صمتت طويلًا وهي تنظر إليه وما زالت دموعها تسيل بغزارة، قالت بشفتين مرتعشتين:
- مجرد التفكير في أنك تفكر بإنسانة أخرى يقتلني يا مالك.
قال لها:
-وما بالك أنتِ بما فعلتِ بمالك؟! لم تشعري أنك قتلتِ مالك ومزقت قلبه.
هتفت ببكاء:
- لقد تعلمت درسًا قاسيًا يا مالك، قاسيًا جدًا، ويكفي بعدًا لأنني أصبحت لا أطيق ذلك.
قال لها:
- القدر الذي جمعنا بعد افتراق، واستحالة يعلم كيف كان قلب مالك في بعد ذات الضفائرعنه، يعلم كيف كان يحترق كلما ظن أنها ستكون لرجل غيره.
ثم غاب عنها قليلًا وعاد يحمل تلك المذكرة، قال:
- اقرئي هذه لتدركي ما السبب الذي جعل محمود يتركك يوم عرسك.
وتركها مالك وخرج، فتحتها فرأت في أول صفحاتها كلام مدون بتاريخ قديم.. قديم جدًا، منذ أن رآها أول يوم وهي طفلة، منذ أن رأى أول دمعة بعينيها، مضت في قراءتها ودموعها تسيل وقلبها يخفق، وتذكرت كل كلمة قالتها له، وأحست أنها لم تحبه اليوم أوالأمس بل كانت تحبه منذ أن جذبته من يده وقالت ستكون زوجي يا مالك، وكأن القدر كتب لها تلك الكلمة وخبأها حتى تكبر، خرجت من الشقة ودلفت لغرفته وكان يصلي، انتظرته حتى انتهى من صلاته، وجلست بجانبه فوق سجادة الصلاة وأمسكت بكفه وقبلتها، وقالت ببكاء:
- أنا آسفة يا مالك، والله لو خيروني بينك وبين رجال العالم لاخترتك، ولتعلم أنني لم أفكر بأحد غيرك، أنا أحبك ليس من الآن بل منذ عشر سنوات مضت، منذ أن قلت لك سأكبر وسأتزوجك، وربما قبل ذلك.
نظر مالك لوجهها وقبل رأسها، فدلف محمود لداخل الغرفة ظنًا منه أن مالك موجود داخلها بمفرده، فلما رآهما تنحنح وعاد للخلف خشية أن يحدث أي حرج، أشار مالك لمحمود بالدخول وقال له:
- لا يوجد أحد غريب، هذا أنا أخوك وهذه زوجة أخيك.
رفعت سنا رأسها قبالة محمود:
- بل قل أخته يا مالك.
سعد محمود بما سمع وأحس أن حملًا ثقيلًا سقط من على ظهره، محمود بسعادة:
- طالما أنه لا يوجد أحد غريب بينا، أنا رأيت فاطمة وأعجبتني كثيرًا، واليوم سنذهب لخطبتها إن شاء الله يا مالك.
سعدت سنا وسعد مالك أيضًا، وخرج محمود من الغرفة ليزف البشرى لوالدته، احتضنت سنا مالك ووضعت رأسها فوق صدره وقالت:
- ذات الضفائر ملك لك اليوم وحتى نهاية عمرها.
مالك أردف قائلًا: بل ملكتي.
أبقت رأسها فوق صدر مالك وقتًا طويلًا، أردفت قائلة ولم ترفع رأسها:
- مالك، محمود سيتزوج وهو أحق الآن بشقته.
صمت مالك قليلًا وقال:
- وأنا ليس لدي شقة الآن لتعيشي بها ياسنا.

صمتت قليلًا وقالت: لكن هذه الغرفة غرفتك.
قال لها: نعم غرفتي.
قالت: إذن سنعيش بها سويًا.
أردف مالك قائلًا: ولكنها صغيرة ولا تليق بك يا ملكتي.
قالت وهي تنظر إليه: المهم أن أكون بجانبك حتى وإن كنت سأعيش في جحر يا مالك.
رفع وجهها قبالة وجهه وقال: محمود سيتزوج في الشقة التي تعلو شقتك، ولتعلمي أنني أنا من قمت ببناء وتجهيز كلتا الشقتين، وأنت ستعيشين كما أنت في شقتك.
أردفت قائلة: شقتنا يا مالك، أنا وأنت وطفلنا.
قال لها: إن شاء الله.
قالت له: هيا بنا إلى عشنا.
تنهد بعمق وقال: سأبقى هنا حتى تضعي المولودز
قالت بإصرار: وأنا سأبقى معك إذن.
هتف قائلًا: أنا لا أريد أن أرهقك وأزعجك، وأود أن أتركك على راحتك في هذه المرحلة.
قامت من مكانها وقالت بعصبية: مالك، سأحرق هذه الغرفة بما فيها!.
قهقه بالضحك وقال: اهدئي يا مجنونة!.
قالت: أنا مجنونة إن تركتك تبعد عني لحظة أخرى، لا يا مالك، لا أود العيش لحظة إلا وأنت بجانبي.
تنهد مالك وهو يستمع لنبرة صوتها وينظر لعلامات وجهها وهي تتحدث إليه، أدرك حبه بداخلها فقام من مكانه وقبل رأسها وقال: اهدئي، سأذهب معك ياحبيبتي.
تم كتب كتاب فاطمة على محمود وتم الاتفاق على الزواج الذي سيتم بعد انتهاء امتحانات آخرالعام، وكم كانت فاطمة سعيدة جدًا وخاصة لأنها ستعيش مع سنا في بيت واحد، مضت الأيام سريعًا وكانت سنا قد أوشكت على الوضع، جلست تتناقش مع مالك في أمر الامتحانات، هتفت بإصرار: سأجتاز الامتحان يا مالك.
مالك: لا تناقشيني يا سنا في هذا الأمر، سأؤجل لك المواد للعام القادم، سلامتك أنت وطفلنا أهم شيء عندي.
- يا مالك، الامتحانات تقدمت هذا العام خمسة عشر يومًا وأستطيع أن أخوض أكثر من نصفها، إن شعرت بأي شيء سأطلب منك أن تؤجلها لي.
مالك هتف بحب:
- يا سنا، إني أخشى على تعبك وجهدك يا حبيبتي، لا أحتمل ذلك أبدًا، سأكون قلقًا عليك في كل وقت، أريدك أنت وطفلنا بخير، لا يهمني شيء آخر.
اقتربت سنا منه ولفت ذراعيها حول رأسه ونظرت لعينيه، وقالت:
- ثق بذات الضفائر، ستحافظ على طفلك وستخوض الامتحان بنجاح.
وما كان من مالك سوى الهزيمة أمام إصرارها..
- ولكن متى شعرتِ بالألم ستتوقفين فورًا عن الذهاب للامتحان.
أومأت سنا برأسها وقبلت جبينه وقالت:
- ستشعر بألمي إن تألمت ياقلبي.
سافرا وأقاما بنفس الشقة التي أقاما بها في امتحانات نصف العام، كان الخوف والقلق ينهش قلب مالك عليها، كانت تتألم وتخبئ عنه ذلك ولكنه كان يشعر بها، كان مالك يقوم بتحضير الطعام وتنظيف الشقة، كانت تحاول مساعدته بما تستطيع، كان يرفض مساعدتها ويقول لها:
-استريحي أنت وأنا سأقوم بكل شيء، وأنا طالب في الكلية كنت أقوم بكل هذا فما المانع أن أقوم به لمساعدة ذات الضفائر وحبيبتي وزوحتي وأم أولادي؟
قالت له بعد صمت طويل:

- ذات الضفائر مدينة لك بكل حياتها يا مالك، أنت في كل حياتها، أخبرني كيف أرد لك كل هذا؟ ليتني أعيش ألف عمرٍ بجانبك وأكون فيه خادمتك.
ربت على ظهرها بحنان وهمس بحنان:
- كل رجل يفعل هذا مع زوجته.
أردفت قائلة بحب:
-أنت لست رجلًا، أنت ملاك يا مالك!.
بينما يجلسان وتمسك هي ببطنها أردف قائلًا:
- ذات الضفائر، تبقى لنا ثلاث مواد هل تعتقدين أنها ستمر على خير؟
نظرت لبطنها المنتفخ وقالت: آمل ذلك.
كان ينتظرها بقلق خارج لجنة الامتحان، خرجت وهي تشعر بالألم، تتوكأ على نفسها في المضي، قال لها:
- يبدو أنك ستلدين اليوم!.
قالت بصوت يشبه التأوه:
-لا أعرف لكنني أشعر بألم في بطني وظهري.
مالك:
-فلنذهب للطبيبة الآن.
كشفت عليها الطبيبة وقالت لها:
- هذه حالة وضع خلال اليومين الآتيين، ستلدين في أية لحظة.
سنا وهي تتألم:
- لدي مادة أخيرة لم أمتحنها أيتها الطبيبة.
أردفت الطبيبة قائلة:
-أنتِ في حالة استعداد للوضع في أية لحظة، فكوني حذرة.
خرجت سنا من داخل غرفة الكشف ولم تخبر مالك بما قالته الطبيبة، سألها مالك بقلقك
- ماذا قالت لك الطبيبة؟
- ابتسمت في وجهه: الطبيبة قالت الولادة بعد أربعة أيام.
بما يعني أنها تستطيع بعد غد دخول المادة الأخيرة، لم يغمض لها جفن من الألم لمدة ليلتين متتاليتين، كان مالك يشعر بتقلباتها فقال لها:
- لا تذهبي تلك المادة، أخاف عليك، أرجوك يا سنا!.
قالت له بابتسامة مصطنعة:
- اطمئن، لا أشعر بأي تعب.
حاول أن يمنعها مالك من الذهاب ولكنها أصرت كالعادة، ذهب مالك وامتحن مادته وعاد وهو يشعر بالخوف والقلق عليها ، خرجت من اللجنة وهي تستند على ذراع فاطمة، وفور أن رأت مالك قالت ببكاء:
-أشعر أنني سألد الآن، أغثني يامالك!.
وانطلقت صرخاتها، حملها مالك وأسرع بها للخارج ومن خلفهما فاطمة، دلفوا لداخل سيارة أجرة فزادت صرخاتها وتصبب من وجهها العرق، فقال مالك لسائق السيارة:
- أسرع من فضلك أسرع!.
أسرع السائق حتى وصلوا للمبنى الذي توجد به عيادة الطبيبة، حملها مالك وصعد بها، كان صوتها قد تحشرج من كثرة الصراخ، وضعها فوق أقرب أريكة فصرخت في مالك وقالت:
- الحقني، سألد الآن سألد!!.
الممرضة بخوف:
-أدخلها بسرعة، يبدو أنها ستلد الآن!.

لكن لم يسعفه الوقت، توالت صرخاتها دون انقطاع وأصبح العرق يتصبب من كامل جسدها، فما كان من مالك إلا أن يمد يديه منتظرًا نزول الجنين، وبعد صرخة عالية انزلق الجنين بين يدي مالك، وانطلقت منه (وأوأة) صغيرة، فأحس مالك أن اطرافه تثلجت وأن الدنيا دارت من حوله، جاءت الطبيبة مسرعة من الداخل وابتسمت عند رؤيتها لمالك وهو يمسك بالطفل العاري الملطخ بالدماء، وهو في مفاجأة وذراعاه ترتجفان، قالت له:

- أنت شخص عظيم!.

أمسكت الممرضة بالطفل ونظفت جسده، وحمل مالك سنا التي كانت في شبه فقدان وعي، ووضعها فوق سرير بداخل غرفة الكشف ودمعة تتسرب من عينيه، سأل الطبيبة:

- هل ستكون بخير؟

جاء صوت سنا من خلفه تقول بضعف:

- أنا بخير يا حبيبي، لا تقلق.

تطلع إليها بحب وقبل جبينها وقال:

- حمدًا لله على سلامتك ياحبيبتي.

فسألته مبتسمة:

-طفلك ذكر أم أنثى؟

أردف مالك:

- لا أعرف حتى الآن، ما كان يهمني شيء سوى سلامتك.

قبلت يده فجاء صوت الطبيبة:

- مبارك عليكما طفلكما الجميل!.

سألتها سنا:

- ذكر أم أنثى؟

جاء صوت فاطمة وهي تقول بسعادة:

- أنجبت ذكرًا يا أم الولد!.

بقيت سنا يومًا كاملًا في عيادة الطبيبة وبجانبها مالك وفاطمة، اتصل مالك وأخبرأهله بما حدث، فسعدوا جميعًا وانتظروا متلهفين عودته هو وزوجته والصغير، عاد مالك يحمل الطفل الصغير وبجانبه سنا، كان مالك يشعر بسعادة لا تضاهيها سعادة، توضأ وصلى شكرًا لله على ما وهبه من نعم، وتلا بعض سور القرآن، حملت سنا صغيرها وهتفت قائلة:

- ألم أقل لك أن ذات الضفائر ستنجح في خوض الامتحانات وستحفظ لك طفلك؟!.

تنهد مالك بعمق وقال لها:

-قولي الحمد لله.

قالت: الحمد لله أنك زوجي ورزقني الله منك ذرية!.

علا رنين هاتفها وكانت والدتها المتصلة، هنأتها ولامتها على ما فعلت، فلم تكن أمها موافقة على ذهابها للامتحانات وهي بهذه الحالة، قالت لها:

- أمي، طالما أن مالك بجانبي فإنني أستطيع تحمل أي شيء وكل شيء.

اطمأنت عليها والدتها وحمدت الله على سلامتها وطفلها، قالت لها:

- لابد أن تعودى إلى بيتنا حتى نرعاكِ أنتِ وطفلك، وبعد سبعة أيام عودي لبيت زوجك.

أردفت سنا:

- لا يا أمي، سآتي لكم بعد ذلك، أهل مالك ينتظرونا متلهفين لرؤية حفيدهم.

والدتها قالت:

- كنت سأسعد لو أتيتِ إلى هنا حتى أرعاكِ وأرعى طفلك، ولكن أهل زوجك أولى أن يروا حفيدهم أولًا.

سنا:

-اطمئني يا أمي، مالك بجانبي وهو يرعاني جيدًا.

أغلقت والدتها الخط ووضعت سنا الصغير فوق السرير وقامت من مكانها، قال لها مالك:
-لا تتحركي أرجوكِ!.
قالت: مالك، لا تخف ياحبيبتي صدقني الآن لا أشعر بأي ألم، أتعرف.. سأقص لولدنا عندما يكبر ماذا فعلت، سأقول له أن أباك قام بدور الطبيبة وأنقذك من السقوط على الأرض القاسية، كما أنقذ أمك من الهلاك قديمًا.
اقترب مالك منه وقبله فوق جبينه، وتلا عليه بعض آيات من القرآن، وفي الصباح عادوا للبلدة وعادت معهم فاطمة، دخلت سنا عليهم البيت وهي تحمل الصغير وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، ومالك يحتضنها ويحاوطها، استقبلتهم عزة شقيقة مالك وزينب زوجة أخيه بالزغاريد والتهاليل، وبكت نوال من فرحتها وهي تحتضن طفل مالك فكم تمنت أن ترى له طفلًا، قالت:
-الحمد لله على أنني رأيت أولادك قبل موتي يا مالك!.
انحنى مالك وقبل يدها وقال:
- أطال الله عمرك يا أمي!.
أردفت سنا بسعادة قائلة:
- سأنجب لك العديد من الأطفال يا خالتي بإذن الله!.
مالك وهو يشير لسنا بالتحذير:
- ليس قبل أن تنتهي من دراستك يا سنا كما اتفقنا
قالت له:
- لا عليك، أستطيع الإنجاب والدراسة.
قال لها:
- لن أعيش المعاناة مرتين، لا تعلمين كم كنت قلقًا عليكِ في الأيام الماضية!.
قالت له:
-أمرك يا سيدي.
وضحكت وضحك الجميع، نوال:
- هيا اصعدا لشقتكما حتى تستريحا.
جاء صوت محمود وهو يقول:
-دعوني أمسك بهذا الصغير، بل وأنا من سأختار له الاسم أيضًا!.
أردفت سنا قائلة:
-مالك اختار له اسمًا يا محمود.
صمت محمود قليلًا وقال:
- أسعدكما الله به وأقر عينكما له.
سنا:
-ألم ترد أن تعرف ما الاسم الذي اختاره مالك؟
محمود:
- أي اسم سيكون جميلًا على هذا الملاك.
قالت سنا:محمود
فقال محمود: نعم
قالت:
- أقصد اننا أسميناه محمود!.
محمود بسعادة: حقًا!!.
مالك:
- نعم حقًا، محمود الصغير ومحمود الصغير أيضًا، أنتما الاثنان أولادي يا محمود.
قترب محمود من أخيه واحتضنه بشدة، صعدت سنا لشقتها وتركت لهم الصغير، تنهدت بعمق وراحة وقالت:

- الحمد لله وأستغفر الله عما كنت أنوي فعله، وأستغفر الله على كل ذنب اقترفته بقصد أو بدون قصد، اللهم أدم علي نعمك وعطاياك وأدم مالك في حياتي.
صعد مالك خلفها يحمل الصغير وهو لا يصدق أنه يحمل ولده بين يديه الذي أنجبه من حبيبته التي أغرم بها منذ الصغر!.. وضع مالك الطفل واقترب من سنا وقال:
- تحققت كل أحلامي التي تمنيتها، كيف أشكر الله على كل هذه النعم؟!
سنا:
- فنقل الحمد لله يا مالك.
سرعان ما مرت سبعة أيام وذبح مالك عقيقة لمولوده ووزعها على أهل بلدته، جاء أهل سنا وزوجات إخوتها، هنأوها ومنحوها هدايا كثيرة، سعدت سنا بزيارتهم وودهم لها، جلس مالك بجانب والدته داخل غرفتها وأردف قائلًا:
- أمي، أود أن آخذ مشورتك في أمر.
نوال:
-تفضل يا حبيبي
- أمي، أريد التبرع ببيتنا القديم حتى تقام عليه وحدة صحية تفيدنا وتفيد البلد.
ربتت أمه على كتفه وقالت:
- الخير فيك مثل أبيك يا مالك!.
قال لها:
- أيعني أنك موافقة يا أمي على ذلك؟
قالت:
-نعم يا حبيبي أنا موافقة، ولا تستأذن مني في فعل الخير.
قبل مالك يدها وقال لها:
- أنتِ كل الخير يا حبيبتي.
انتهت صلاة الجمعة وكان مالك يصلي في الصف الأمامي، أشار مالك بيده للجمع وقال:
- أهل بلدتي الكرام، أود أن أطرح عليكم موضوعين خاصين بالقرية، فمن فضلكم اسمعوا لي قليلًا.
ولأن مالك شخص معروف بخلقه الحسن وقف الناس يستمعون إليه، أردف مالك قائلًا:
- كما أنتم تعلمون أن قريتنا لا توجد بها وحدة صحية، ولا توجد بها مدرسة إعدادية، وكم من الخسائر التي تحدث في أرواح أولادنا وبناتنا بسبب هذا، كم من تلميذ يروح في حادثة وهو ذاهب للمدرسة الإعدادية في المركز!.. وكم من شخص مريض لم نجد له مكانًا يعالجه ويسعفه!..
قال رجل من أهل القرية:
- أستاذ مالك، وما بوسعنا أن نفعل نحن؟ الحكومة تولي ظهرها لبلدتنا!.
أردف مالك قائلًا:
- الحكومة وحدها لن تتحرك، لابد أن نتحرك نحن أولًا معها، لدينا مدرسة ابتدائية قديمة مغلقة ولسنا بحاجة لها لأن الحكومة بنت مدرسة ابتدائية جديدة، فلماذا لم نهدم تلك المدرسة القديمة ونبني مكانها مدرسة إعدادية حدًا للخسائرمن أرواح أولادنا وبناتنا؟ لماذا لا تكون مدرستنا في قريتنا ونوفر الوقت والجهد الذي يبذلونه والمسافة التي يقطعونها في الذهاب للمدرسة الإعدادية؟ ونختصر قطع كل هذه المسافة ونغلق باب مخاطر الحوادث التي يقع فيها تلاميذنا كل عام دراسي؟.
هتف رجل آخر:
- وحتى إن هدمنا المدرسة القديمة، هل ستوافق الحكومة على بنائها؟
قال مالك:

- الحكومة لن تتحرك إلا بمساعدتنا وبمطالبتنا نحن، كل منا يتبرع بما يستطيع حتى تتحرك الحكومة، لابد أن نساعد الحكومة حتى تساعدنا، وأما عن الوحدة الصحية سنقيمها في بيتنا القديم ولن تحتاج سوى جلب الأجهزة وهذا بمساعدتنا جميعًا أيضًا، فهل أنتم توافقوني الرأي؟.
رأى الجميع أن ما قاله مالك فيه خير ومنفعة لأهل البلدة، رحب الجميع بما قاله مالك وتعهد شخص بلم المبالغ من أهل البلدة، وأثنى الناس على قول وفعل مالك، ومن ناحية أخرى تسلم مالك جائزة أفضل معلم، لم تكن جائزة من جهة حكومية ولكنها جائزة اشترك في عملها جميع طلاب المدرسة الإعدادية لحبهم لمالك وشخصه الطيب الرحيم، سعد مالك بهذا وسعدت سنا أيضًا، وأحست أنها فخورة به لأنه حقًا معلم رحيم وأب رحيم وزوج رحيم، وأخيرًا ظهرت نتيجة آخر العام وجلس مالك أمام سنا حزينًا مكتئبًا، قالت له:
- مالك، لا تحزن يا حبيبي، حتى وإن رسبت هذا العام يكفي أنني نجحت في أن أكون أمًا.
قام مالك واحتضنها بسعادة وقال:
- لقد نحجتِ ياذات الضفائر.. نجحتِ وأنجبتِ!!.
احتضنته سنا وقالت:
- حقا نجحت؟!!
قال لها:
- حقًا حبيبتي!.
هتفت فيه بفخر:
- نجحت لأن معلمي أنت وزوجي أنت.
- وأنا أيضًا نجحت، لأن ذات الضفائر زوجتي وأم ولدي.
قالت له:
- ستدرس لي العام القادم في الجامعة يا حبيبي.
أردف قائلًا: لا.
قالت:
- لماذا طالما نحجت بتفوق فأنت تستحق ذلك؟
قال لها:
-لأنني لن أترك تلاميذي الذين أحبهم ويحبونني، سأظل مدرسًا كما أنا بالمدرسة الإعدادية.
سنا:
- ولكن العمل في الجامعة أفضل من المدرسة.
أردف مالك بعد صمت:
- العمل في المدرسة أفضل بالنسبة لي لأنني لا أود أن أعلم فقط المادة العلمية بل أحاول أن أزرع الأخلاق والرحمة فيهم وهم لازالوا صغارًا، أريد أن أشعر أنني أديت الرسالة.
وقفت سنا أمامه تتأمله طويلًا، فقال لها:
- هذه النظرة تذيبني ياسنا، كفى!.
قالت: أحبك يا مالك وأود أن اصرخ بها!.
قال لها: لا تصرخي حتى لا تيقظي هذا المكار الذي يأخذك مني كل الوقت، وأنا أريد أن أحظى بك ولو لبضع دقائق.
ضحكت بدلال وقالت:
- أتغار منه؟!.
لف ذراعه حولها وقال:
- أغار من نفسي عليك!.
البيت مكتظ بالمدعوين والمهنئين جاءوا ليحضروا فرح محمود وفاطمة، حل المساء وأتى محمود يمسك بيد عروسه وجلسوا في حديقة البيت، وانطلقت أصوات الأنغام الصاخبة، كانت ليلة من أجمل الليالي التي أقيمت في القرية، السعادة أصبحت تعم البيت، سنا وفاطمة وزينب كن

يتقاسمن عمل المنزل ، هدمت المدرسة القديمة وبدأوا في بناء المدرسة الإعدادية بمشاركة أهل البلدة، كما جلبوا أيضًا أجهزة طبية ومعدات ووضعوها في بيت مالك القديم بعد ترميمه وتجهيزه ودهانه ليكون وحدة صحية، وعين طبيب حديث التخرج من القرية نفسها، سعد أهل القرية وأثنوا على مالك وفعله في الخير، مالك كان يحمل ولده الصغير وشعر فجأة بألم يضرب رأسه ودوار خفيف، لاحظت سنا عليه ذلك فسألته:

- ما بك يا مالك؟

قال لها وهو يحاول أن يخبئ ما يشعر به:

- لا شيء حبيبتي.

سنا:

- هل عاودك ألم الرأس مرة أخرى يا مالك؟

مالك:

-ألم خفيف وذهب فور أن سمعت صوتك.

سنا بخوف:

- مالك، لابد أن تجري كشفًا، وسأذهب معك للطبيب.

قال:

- أنت تهولين الأمر، إنه مجرد صداع وسيذهب بسرعة.

سنا بخوف:

- مالك، في الصباح سنذهب للطبيب أرجوك.

مالك بهدوء:

- حبيبتي لا تقلقي.

ونظر لولده الذي بدأ ينتبه للكلام ويقرقر، وهتف فيه بحب:

- قل لأمك أن وجودها بجانبي يذهب عني كل ما هو سيء.

أشرق الصبح ونشرت الشمس أشعتها الذهبية على الكون، استيقظ صغير سنا ومالك ليداعب نسمات الصباح بكفيه وقدميه الصغيرتين، وينظر بعينيه الجميلتين من حوله، واستيقظ مالك وحمله وطبع قبلة حنونة فوق جبينه، كانت سنا ما زالت نائمة، حمله مالك وراح يهدهده ويلاطفه حتى لا يزعج أمه النائمة، همس في أذنه وقال:

- أتعلم يا محمود أنني حملت أمك في صغرها على كتفي؟ لم تكن صغيرة مثل حجمك ولكنها كانت صغيرة وبريئة وكانت بضفائرها، وأخبرك بسر آخر عنها.. ولكن لا هذا يكفي، لربما تستيقظ أمك المجنونة وتسمعني وأنا أقص إليك قصتنا الطويلة التي بدأت منذ أكثر من أحد عشر عامًا، لكن يكفي يا ولدي أنني أقول لك أنني أحببتها طفلة ووعدتها أنني سأنتظرها في المستقبل البعيد، وها أنا قد وفيت بالوعد وانت أتيت من أجل هذا الوفاء، لا أعرف أن كانت ستتكرر قصتنا عبر الزمن مع أشخاص آخرين أم أنا وأمك حالة فريدة؟!.

وجد مالك ذراعين تلتفان حول خصره ووجه يسند فوق كتفه، وذات الضفائر تهمس في أذنه:

-بم تتهامسان من دوني؟

مالك:

- لا شيء يا ذات الضفائر.

أردفت قائلة:

- حبيب ذات الضفائر يترك هذا الصغير ويقوم ليستحم لأننا سنذهب للطبيب اليوم.

تنهد مالك بعمق وقال:

- لا أعرف ما سر قلقك وإصرارك على أنني أذهب للطبيب؟!.

أردفت قائلة:

- مالك، أرح قلبي ياحبيبي واذهب للطبيب حتى نطمئن.

مالك:

- سأذهب، ولكن تعالي هنا ما هذا؟
نظرت لما بيده وتصنعت الدهشة، مالك بلوم:
- لماذا لم تتناولي الحبوب المانعة للحمل؟!
سنا:
- أخ نسيت، ولكن اطمئن لن يحدث شيء!.
قال لها:
- اجتماعاتك أنت وأمي تقلقني وأشعر أنك تخبئين شيئًا، وقلت لك لا أريد أن أعيش في قلق مثل الذي عشته، كنت أموت من الخوف عليك.
سنا رفعت رأسها من على كتفه، أردفت:
- لا تخف يا حبيبي.
هتف فيها:
- ثم إن محمود ما زال صغيرًا ويحتاج رعايتك، إياك أن تفكري في الإنجاب الآن أتسمعين؟.
أردفت مبتسمة:
- الحقيقة يا مالك أود أن ننجب اثني عشر طفلًا!.
ضحك مالك وقال:
- اثنا عشر طفلًا!!. وبدلًا من أن تكوني ذات الضفائر تصبحي أم أربعة وأربعين!!.
قهقهت ضحكًا وقالت:
- وأنت حتمًا ستتزوج من امرأة أخرى.
نظر لعينيها بحب وقال:
- أنت بالنسبة لي كل نساء العالم يا ذات الضفائر!.
تنهدت بعمق وهي تريح وجهها على كتفه وأردفت قائلة:
- وأنت أبي الذي رباني، وأخي الحنون وصديقي ومعلمي وحبيبي، أنت لي كل شيء.
تنهد مالك بعمق وقال:
- حبيبتي، الدنيا لا تدوم على حال.
التقطت ولدها من بين يديه ووضعته فوق السرير وجذبته من يده بقوة حتى أوصلته للحمام، وقالت له:
- هيا يا كسول حتى لا تتأخر، استحم مالك وخرج، ارتدى ملابسه وكانت سنا استبدلت ملابسها تتأهب للذهاب معه..
مالك: إلى أين؟
قالت له:
- سأذهب معك.
صمت قليلًا وقال لها:
- سأذهب بمفردي ياسنا
سنا بإصرارك
- سأذهب معك يا مالك
أردف مالك قائلًا: الجو حار جدًا والولد لن يتحمل الخروج في هذا الجو، ربما يصاب بحمى.
قالت له سنا:
- لا تحاول اختلاق الحجج يا مالك، سأذهب معك للطبيب.
مالك: حبيبتي، سأتحدث إليك لا تقلقي
سنا: ولكن يا مالك....
مالك وهو يلوح لها بيده: اعتني بمحمود جيدًا
ندت دمعة من عينها فقلبها غير مطمئن على مالك، نظرت للأعلى ودعت الله له بالصحة والعافية، وأن يخبره الطبيب بأنه بخير، ثم نظرت لشريط الحبوب المانعة للحمل وقالت:

- سامحني يا مالك لأنني أكذب عليك، لم أتناول ولا حبة منه فأنا أريد أن يمتلأ البيت بأولادنا.
احتضنت ولدها وجلست تنتظر بقلق منه اتصالًا... ذهب مالك لطبيب لطب المخ والأعصاب، دلف لغرفة الكشف، أجرى عليه الطبيب الكشف وطلب منه إجراء أشعة وفحص، أجراهما مالك وعاد مرة أخرى بالنتائج للطبيب، نظر الطبيب للأشعة وسأل مالك:
- منذ متى ويساورك هذا الألم؟
أردف مالك: منذ مدة ولكنني كنت أتناول بعض المهدئات فيذهب.
تنهد الطبيب بعمق وقال: يبدو أنك رجل متعلم.
مالك بدأ الشك يساوره أردف قائلًا: ومؤمن بقضاء الله.
أردف الطبيب بحزن وقال: هل أنت متزوج؟
مالك: الحمد لله ولدي طفل.
الطبيب: بارك الله لك فيه
ثم صمت الطبيب ونظر ثانية للأشعة التي أمامه، ورفع بصره وهو يهز وجهه:
- يحزنني أن أخبرك بحقيقة مرضك أستاذ مالك.
مالك بعد صمت:
- بل أخبرني أيها الطبيب حتى أكون على دراية بما أنا فيه.
الطبيب تنهد بعمق ثم قال: لديك ورم خبيث بالمخ في مرحلة متأخرة، ونسبة النجاح في استئصاله لاتتعدى خمسة بالمائة، وفي حالة عدم استئصاله يموت المصاب به بعد ستة أشهر فقط من الإصابة والقرار يعود لك.
لم ينبس مالك في تلك اللحظة، ومر عليه شريط عمره كله في ثانية واحدة، واستقر آخر شيء أمامه وجه سنا وهي ابنة التسع سنوات تبتسم في وجهه، تسربت من عينه دمعة جففها مسرعًا حتى لا يراها الطبيب، الطبيب:
- أعتذر لك لكن في هذه الحالة لابد أن نخبر المريض بحقيقة مرضه ليقرر ماذا سيفعل.
مالك حاول أن يكون صامدًا ويستقبل مرضه مؤمنا أردف قائلًا:
- سأعيش ما تبقى لي بجانب أهلي وزوجتي، الحمد لله على كل حال.
ثم قام وخرج وترك الطبيب متأثرًا بحالته وقراره، عاد مالك لبلدته ولكنه لم يعد للمنزل مباشرة، بل ذهب لشجرة الصفصاف وبكى تحت جذعها بكاءً طويلًا، ودعا ربه أن يثبته ويصبره على ابتلائه، علا رنين هاتفه، سحب نفسًا عميقا وضغط زر الإجابة وقال بصوت حاول أن يخرجه:
- مرحبًا حبيبتي ذات الضفائر.
أردفت سنا قائلة:
- مالك طمئني عليك، لماذا لم تتصل بي؟ أخبرني ماذا قال لك الطبيب؟
سالت دمعة على وجنته ولكنه غالب حزنه وابتلع ما يشعر به وقال بصوت اصطنع فيه المرح:
-قال لي دواؤك في قرب ذات الضفائر منك واهتمامها بك ولو قليلًا، حتى نصف ولو نصف اهتمامها بمحمود.
سنا هتفت قائلة:
- مالك، أرجوك أخبرني ماذا قال لك الطبيب ولا تمزح، فإنني أموت قلقًا عليك ياحبيبي.
مالك:
- قال لي قل لزوجتك ألا تطلب منك الذهاب مرة أخرى للطبيب، أنت لم تكن مصابًا إلا بدور انفلونزا فقط.
سنا:
- أحقًا يا مالك ما تقول؟!
مالك: حقا يا قلب مالك.
سنا: أمازلت عند الطبيب؟

مالك: لا.. بعد قليل سأعود للبيت.
وخلال عودة مالك للبيت مر يتفقد المدرسة التي تم فيها بناء الدورالأول، وبعد قليل دلف للبيت ودخل غرفة والدته التي كانت تجلس على سجادة الصلاة تذكر وتسبح على مسبحتها، ألقى عليها مالك السلام وجلس بجانبها وأمسك يدها وقبلها وقال لها:
- أمي هل أنتِ راضية عني؟
قالت وهي تمسح على ظهره:
- راضية عليك يا حبيبي.
مالك بحزن:
- إن كنت يومًا أغضبتك يا أمي سامحيني.
أردفت قائلة بقلب أم يستشعر:
- مالك ما بك يا حبيبي؟!!
هتف قائلًا:
- أود أن أشعر أنني لم أقصر معك يا أمي.
نوال وهي تمسح على ظهره بحنان:
- ومتى قصرت في أي شيء ياحبيبي؟ أنت تراضي الكل يا مالك الله يرضى عليك.
قبل يدها مرة ثانية وخرج وصعد للأعلى ودلف لشقته، وجد سنا تنتظره مزينة معطرة ترتدي أجمل ما لديها، فقال مازحًا وهو يقترب منها:
- يبدوا أنك ستنفذين كلام الطبيب من الآن!!.
احتضنته وقالت:
- اشتقت لك، كنت خائفة عليك ياحبيبي!.
ربت مالك على ظهرها وقال لها:
- مم تخافين حبيبتي؟
تنهدت بعمق وقالت:
- لا أعرف لكنني قلقة وأشعر بانقباض قلبي.
مالك وهو يقبل يدها:
- لا يوجد في حياتنا ما يخيف يا أم محمود.
- سأعد لك العشاء.
قال لها:
- لا أريد عشاءً بل أود فقط أن تظلي بجانبي.
جلسا بجانب ولدهما وقالت:
- أنا بجانبك دائمًا وأبدًا يا مالك.
نظر مالك لولده وقال محادثًا نفسه.. "الأمر ليس بيدي ياحبيبي، كنت أتمنى أن أربيك وتكبر بين يدي وأفرح عندما تتخرج، وأزفك لعروسك وأفرح بأحفادك، لكن الأجل لم يمهلني، لكنني مطمئن عليك، أعلم أن أمك ستربيك كما لو كنت موجودًا معكم، ستقص لك قصتنا إلى أن أنجبناك"...
جاء صوت سنا وهي تقول:
- عائلتي الصغيرة لقد أحضرت لكم العشاء!.
أمسك مالك بيدها وقبلها وقال:
- سلم الله لنا هذه اليد.
سنا:
- بل سلمك الله أنت لنا ياحبيبي.

نظر لها طويلًا، كان يشعر أنه يود احتضانها كل لحظة ويبكي بين ذراعيها، ولكنه أبى ومضى نحو المائدة، وحاول أن يتناول الطعام حتى لا تشك في الأمر، تنهد مالك بعمق ونظر لها وهتف قائلًا:
- سنا، أنت سعيدة معي؟
وضعت سنا ولدها وقالت:
- ومن أسعد مني يا مالك؟.
مالك: ألم تشعري بالندم ياسنا لأنك أصبحت زوجة لي؟
سنا بتساؤل:
- ما بالك اليوم يا مالك تسأل أسئلة غريبة؟!!.
ضحك وقال:
- مجرد دردشة يا زوجتي الحبيبة.
أردفت سنا قائلة:
- لا تسألني عن أشياء أنت تعلمها، كنت سأكون نادمة لو لم تكن أنت معلمي وحبيبي وزوجي، أنت يا مالك عوضًا عن أبي الذي افتقدته وأخي الذي لم أشعر بحنانه، وزوجي وأبو ولدي، أنت كل شيء يا مالك وتسألني إن كنت نادمة؟!.
قبل مالك جبهتها وقال:
- وأنت شمس حياتي ياحياتي.
مضت الليلة وأشرق الصبح، قام مالك وتوضأ وصلى ودعا ربه فأحس بشيء من الطمأنينة، حمد الله وسبحه واستغفره، واقترب من ولده وقبله، واستيقظت سنا وتوضأت وصلت وجلست تتلو بعض آيات من القرآن، ووصلت لتلك الآية:
(وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدًا وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت)..
اهتز قلب مالك لتلك الآية، وندت دمعة من عينه أخفاها قبل أن تراها سنا، تناول إفطاره وهبط للأسفل وجلس بجانب والدته يتحدث إليها ويلاطفها ويقبل يدها وجبهتها، ويتحدث إلى إخوته ويوصيهم بالخير في كل مكان والرفق بالضعيف والفقير ومساعدة الناس بما يستطيعون، لم يكن هذا الكلام غريبًا على مالك، هو دائمًا يوصي إخوته بذلك ويعامل أمه بذلك ويعامل الناس بهذه المعاملة الحسنة، سرعان ما تمضي الأيام على مالك، لم يتبق إلا القليل.. كان يخبئ أمر مرضه، الألم كان يساوره من وقتٍ لآخر رغم أنه كان يخفي كل هذا عن أمه وإخوته وعن زوجته، ولكن ذلك اليوم كان الألم أقوى منه وربما أجله قد حان، سقط على الأرض ونظره معلق بكل شيء حوله، سنا كنت في الطابق الأسفل تقضي بعض أعمال المنزل مع باقي نسوة البيت، وبعد أن انتهت صعدت ودلفت لشقتها، جالت بنظرها بحثًا عن مالك لتدعوه للطعام، لم يكن في مرأى بصرها، مضت نحو غرفة المعيشة وجدته ملقى على الأرض وذارعيه ممدتين، فصرخت صرخة قوية اهتزت لها أرجاء البيت، فزع أهل المنزل بصوت صراخ سنا وصعدوا مهرولين للأعلى، كانت سنا تحتضن مالك وتصرخ من قلبها، صرخت والدته لما رأته، اقتربت منه وقلبت جسده الساكن يمينًا وشمالًا وهي تقول:
- ماذا حدث لك يا مالك؟ ما الذي لحق بك يا ولدي؟!!
دفع محمود وإسلام سنا وأمهم بعيدًا وحملاه إلى السيارة، وذهبت سنا خلفهم تنوح بالبكاء والعويل، ذهبوا به لأقرب مشفى، أجرى عليه الطبيب الكشف وحولهم لطبيب مخ وأعصاب وأجري عليه الطبيب الآخر الكشف وخرج من الغرفة حزينًا متأثرًا ليخبرهم بما كان يخبئه مالك عنهم طوال الأيام الماضية، وأن حالته متأخرة جدًا والشفاء أمر شبه مستحيل، واستئصال الورم في الوقت الحالي مجازفة لإنهاء حياته القليلة بسرعة، ولا ينصح الطبيب بإجراء العملية فتقريبًا النتيجة واحدة إلا إذا حدثت المعجزة.. ونجاح تلك العملية لا يتعدي واحد بالمائة، أخبرهم أن ينقلوه للبيت حتى يعيش أيامه أو ساعاته الأخيرة بين أهله، كانت سنا تستمع لكلمات الطبيب وتصرخ من روحها وقلبها وتقول.. لا... وكأنها ترفض ما يقوله الطبيب، وإسلام ومحمود يقفان

وهما يبكيان بكاءً شديدًا غير مصدقين ما يقوله الطبيب، دلف إسلام ومحمود بنحيب عال ليحملا مالك للسيارة ويعيداه للبيت كما أوصاهم الطبيب، لكن سنا وقفت أمامهما وقالت بصراخ:
- لن تأخذا مالك حتى ينتظر الموت، مالك لن يموت.. لن يموت أتسمعان؟!..
حاول إسلام تهدئتها ولكن سنا كانت كالمجنونة، وقفت أمام السرير الذي يرقد عليه ومدت ذراعيها وقالت صارخة:
- لن تأخذوه أبدًا، سأطلب من الطبيب أن يجري له العملية.
محمود ببكاء:
-اتركيه يعيش آخر لحظاته في راحة يازوجة أخي النتيجة واحدة كما سمعتِ من الطبيب الآن!.
سنا بصراخ:
- اخرج من هنا يا محمود، اخرجوا جميعًا، لا أود أن أرى أحدًا منكم، سأبقى معه بمفردي.
دفعها إسلام برفق وأمسك بمالك الذي يغيب عن الوعي، وهم أن يحمله فمضت سنا نحو النافذة وقالت صارخة:
- لو حملته يا إسلام وخرجت به سألقي بنفسي من النافذة، أقسم بالله سألقي نفسي من هذه النافذة الآن!!.
إسلام حاول أن يهدئها ولكنها كانت كالمجنونة لا تعي بما تقول وبما تفعل، جاء الطبيب فتعلقت به وراحت تقبل يده برجاء وهي تقول:
- أجر له العملية الآن أرجوك.. أرجوك!!
رق الطبيب لحالها وسالت دموعه من حزنها ورجائها، فربت على ظهرها وقال لها:
- أمر الله يا ابنتي لكن نجاح العملية في هذه الحالة شبه منعدم.
قالت له وهي تمسك بيده مرة أخرى ودموعها تسيل أنهارًا:
- أجر له العملية أرجوك أرجوك، آخر محاولة أرجوك!
صمت الطبيب قليلًا وقال:
- هذا النوع من العمليات حساس وخطير جدًا، ولا يتم إجراؤه هنا بل له مستشفى متخصص بالقاهرة، ولا أنصحكم بالسفر به فحالته لا تحتمل ذلك ولا تحتمل إجراء عملية.
سنا وكأنها تتحدى كل شيء حتى الموت قالت:
- سأسافر به ولكن أخبر تلك المشفى بحالته حتى يجهزوا كل شيء لإجراء العملية، أرجوك أتوسل إليك أن تفعل.
صمت الطبيب طويلًا ورفقا بحالها كتب لها أمر التحويل وهو متأكد من أنه لا فائدة بما تفعل، قد تأخر الوقت كثيرًا وزوجها في آخر مرحلة وفي آخر أيام وربما آخر ساعات من حياته، كان محمود قد لان لإصرارها على السفر رغم اعتراض إسلام على ذلك، ولكنهم أذعنوا لأمرها في النهاية حتى لا يشعروا بالتقصير تجاه مالك، كان بعض أهل البلدة قد ذهبوا من خلفهم وسمعوا كلام الطبيب فذاع الخبر في أرجائها وحل الحزن على أهلها جميعًا، ودعا له الكبير والصغير والفقير والغني والضعيف والمسكين، والتلاميذ وكل روح كان مالك يومًا رحيمًا بها بالشفاء وبرحمة الله عليه، اكتظ بيت مالك بالنساء والرجال ووالدة مالك تنوح وشقيقته وزينب وفاطمة التي تحمل صغير سنا ومالك وتعتني به كما لو أنها أمه، حمله إسلام ومحمود ووضعوه برفق داخل السيارة وركبت سنا بجانبه ووضعت رأسه فوق صدرها ولفت ذراعيها حول خصره، وركب إسلام بجانب محمود وانطلقوا بالسيارة، الطريق طويل والسفر يستغرق ثمان ساعات كاملة حتى يصلوا للقاهرة وللمشفى، مضت أربع ساعات وسنا متشبثة بمالك، فتح مالك عينيه قليلًا وهمس في أذنها بصوت ضعيف وهو يقول:
- يكفيني من الدنيا أن أموت بين ذراعي ذات الضفائر!.
قبلته فوق جبينه وفي كل جزء من وجهه وهتفت بتحد:
- لا لن تموت يا مالك، لن تموت، ستحيا قلبي لا يكذب يا مالك.

غاب مالك مرة ثانية في اللا وعي فوضعت يدها فوق صدره تتحسس أنفاسه، وكم كانت أنفاسه ضعيفة وكأنها تود الخروج بلاعودة، فناجت ربها في نفسها وتضرعت إليه ودعته بقلب مخلص ومحترق، وذكرت أمن يجيب المضطر إذا دعاه غير الله الرحمن الرحيم، وظلت تردد (يارب.. يارب) إلى أن وصلوا للمشفى وحمله إخوته ودلفوا به، وكان المشفى بعلم من اتصال الطبيب الذي حوله وشرح خطورة حالته وإصرار أهله على إجراء العملية ، مضى إسلام على التقرير الذي ينفي مسئولية المشفي عند حدوث أية مضاعفات للمريض، وبعد فحوصات وأشعات أجريت لمالك ورغم أن كلام الأطباء الذين سيجرون له العملية لن يختلف عن كلام الطبيب المحول من جانبه ولكن طالما أهله مصرين من يدري لعل الله يخلف كل الظنون، نظرت له سنا وهو محمول على الترولي امام الممرضات يدفعن به لغرفة العمليات، قالت هامسة:

- لا أعرف ماذا سيحدث لك ولكنني مؤمنة أنك ستتمسك بالحياة من أجلنا ومؤمنة أن الله رحيم وهو الذي يمد قلبي بالاطمئنان والتمسك بحياتك.

دلفوا به للداخل فوقف إسلام في وجه سنا وقال لها معاتبًا:

- لن ألوم إلا أنتِ إذا حدث لأخي مكروه وهو تحت أيدي الأطباء، أنتِ من أصررتِ على ذلك.

محمود أمسك بإسلام وأبعده عن سنا التي كانت تغمض عينيها بمناجاة ربها، ورغم حزنها قلبها مطمئن وبه شيء من السكينة ،أغلق محمود هاتفه لكثرة الاتصالات من أهل البلدة وكذلك إسلام، جلسوا جميعا منتظرين قضاء الله في مالك، الأطباء ينظرون بعضهم لبعض، ليست العملية الأولى التي يجرونها بنفس الحالة، ولكن قلما تحدث المعجزة وتنجح، هم يقومون بإجراء تلك العملية محاولة أخيرة لإحياء روح شارفت على الاحتضار، وهن نفس مالك ويبدو أنه سينقطع نهائيًا، رآها تقترب منه بضفائرها وتبتسم في وجهه، اقتربت منه وجذبته من يده وقالت له:

- قم يا مالك، ستنتظرني في المستقبل البعيد.

ولحظات ثم ما لبثت رآها عروسًا زفت إليه وبطنها انتفخ بطفله، وأنجبت له ولدًا ورأى طفلًا آخر تمسك به، لكن مهلًا قالها في لا وعيه.. إننا لم ننجب سوى طفل هل ستتزوج بعد موتي؟!

رأى طفلان يقترباه منه ويقبلان وجهه وينادونه بأبي، ومن خلفهم تقف ذات الضفائر تبتسم له فابتسم لها وبدأت أنفاسه تعود شيئًا فشيئًا، ونظر الأطباء ثانية لبعضهم ثم أتموا إجراء العملية التي استغرقت خمس ساعات كاملة لم تتحرك فيها سنا ولم يتحرك إسلام ومحمود منتظرين كلمة القدر، خرج الأطباء والعرق يتصبب من وجوههم، لم تسرع إليهم سنا ولم تسألهم عن حاله بل ظلت مكانها، وأسرع محمود وإسلام للأطباء بقلوب منفطرة يسألون عن حال مالك، أخبرهم الطبيب أن نجاح العملية لا يظهر بعد إجرائها مباشرة، قالوا:

- ليس أمامنا سوى أن ننتظر ونرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

لم يخفف كلام الأطباء حزنهم على أخيهم بل جلسوا بعيون باكية وقلوب منفطرة، أما سنا فكانت تجلس القرفصاء وتصمت دون حراك.. دون كلام.. دون بكاء، وضع مالك في غرفة العناية المركزة رأسه ملفوف بالقطن الأبيض ممدد فاقد الوعي وأجهزة كثيرة ملتصقة تشير بصافراتها على أنه ما زال على قيد الحياة، تمر الساعات ثقيلة عليهم سنا لم تتذوق الطعام منذ يومين كاملين حتى خارت قواها وفقدت وعيها، حملها محمود الذي لم ينقصه نكبة أخرى وذهب بها للطبيب، كشف عليها وأمر أن تعلق لها المحاليل وزجاجات الجلوكوز، وأخبر الطبيب محمود أنها في حالة سيئة جدًا وتحتاج عناية أكثر من ذلك، محمود بتساؤل وحزن:

- كان الله في عونها زوجها يرقد بين الحياة والموت.

الطبيب بحزن:

- شفاه الله وعافاه.

محمود:

- وما الذي أصابها أيها الطبيب؟

أخبره أنها حامل في شهرها الثاني، وأنها هزيلة جدًا تحتاج إلى تغذية فبكى محمود بكاءً شديدًا وقال للطبيب:
- يخرج الحي من الميت!.
ربت الطبيب على محمود:
- ادع له الله فالأمر كله يرجع إليه الآن.
جاء للمشفى إخوة سنا وعدد من رجال البلدة للوقوف بجانبهم في تلك الظروف، دلف عليها شقيقها محمد في الغرفة التي ترقد بها بعدما أخبره إسلام بما حدث فوجد محمود يجلس حزينًا على مقعد بالقرب من سريرها، فسأله عن حال مالك، أجابه محمود بأسى:
- لا جديد
وسأله ما أصاب أخته فأخبره محمود أنها لم تتذوق الطعام منذ ثلاثة أيام فسقطت، وأخبره أيضًا أنها تحمل طفل مالك الثاني الذي ربما يأتي للحياة يتيم الأب، ربت محمد على كتف محمود ليواسيه وقال له:
- مصيبتكم هي مصيبتنا ومالك كان من خير الرجال وأرجل الرجال.
ثم هتف فيه:
- اخرج يامحمود فإن أهل البلدة مجتمعين وكن قويًا الامر لله من قبل ومن بعد.
خرج محمود والحزن يلفح قلبه، احتضنه زوج عزة أخته وبكى لحال مالك فإن في قلب (مجدي) زوج عزة معزة كبيرة لمالك، بل ويعتبره أخًا له، سأل مجدي عن حال زوجة مالك فأخبره محمود أنها بحالة سيئة، سلم عاطف على محمود ودلف هو الآخر ليطمأن على حال شقيقته، كان يجلس محمد في الغرفة وهي ممددة ومعلق لها المحاليل، حزن عاطف من أجلها وقال:
- أختي ما زالت صغيرة على تحمل هذا الشقاء.
تنهد محمد بعمق وقال:
- اطمئن يا أخي، لن ندعها تشقى، ولن نتركها بمفردها ولن نتركها هنا دقيقة واحدة بعد ذلك.
عاطف بتعجب:
- ماذا تقصد؟!
محمد:
- سنأخذها معنا.
عاطف: هل سنعيدها معنا يا أبا خالد وزوجها في هذه الحالة؟!!.
محمد بصوت حازم:
- نعم ستعود معنا، فبأي صفة نتركها بين رجال غرباء تنام بينهم بمفردها؟.
عاطف:
- ولكنهم إخوة زوجها وزوجها يرقد مريضًا، ولا يصح أبدًا أن تتركه.
محمد بنظرة صارمة:
- زوجها بين الحياة والموت، وربما يموت في أية لحظة وهذا أمر الله يا أخي، فكيف نترك أختنا هنا بمفردها أو حتى في بيتهم؟
عاطف:
- لا أوافقك الرأي، حتى وإن كان ذلك فلا يصح أن تتركه وهو في تلك الظروف، اتركها تبقى بجانبه حتى يحكم الله في أمره.
محمد:
- أنت مجنون، أترك أختي تقيم بمفردها مع شابين؟ تريد أن تأكل الناس وجوهنا؟!.
عاطف رد بأسى:
- وهل هذا ظرف تتحدث فيه الناس يا أخي؟! اتركها يكفي ما هي فيه.
محمد:

-لو مات زوجها الناس ستأكل وجوهنا لو تركناها دقيقة في بيتهم بعد موته، ولذا قررت أن آخذها من الآن وسنربي ولدها والطفل الذي ستضعه كأولادنا وسنكرمهما من أجلها ومن أجل مالك.

عاطف في مفاجأة:

- هل ستنجب طفلًا آخر؟!

محمد:

- نعم هذا ما أخبره الطبيب لمحمود.

عاطف بحزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يخرج الحي من الميت.

محمد:

- المهم الآن أن نخبر إخوة زوجها أننا سنعاود بها.

حاول عاطف منع محمد من إخبار محمود وإسلام بذلك لكن محمد أصرعلى إخبارهم، مضى محمد نحوهم وأخذ إسلام ومحمود جانبًا وقال لهما:

- أعلم أنكما في ظرف لا يسمح بالكلام أو اللوم على أي شيء، ولكنني أيضًا أرى الأمور بنظرة مختلفة.

إسلام:

- ماذا تقصد يا أبا خالد؟

رد محمد بحزن:

- سآخذ أختي وولدها لبيتنا، وإن شفي زوجها ستعود إليه وتعيش خادمة تحت قدميه، وإن...

وصمتت قليلًا:

- وإن لم يشف فلا يصح ولا يجوز أن تبقى بينكما، بيت أبيهاأولى بها هي وولدها والطفل الذي ستنجبه.

إسلام بغضب:

- ابن أخي وزوجته وطفله القادم لن يخرجوا من بيتهم مهما كانت الظروف، أتسمع يا أبا خالد، عيب عليك قول هذا الكلام وأخي ما زال على قيد الحياة!.

محمد بهدوء:

- وأنا لم أقل أني سأحرمكم من أولاد أخيك، أنتم أهلهم وأحق بهم لكن الولد ما زال صغيرًا والطفل القادم في بطنها، وعليها رعايتهما حتى يشتد عودهما وبعدها يعودان لأهلهما.

إسلام:

- أنت تفصل في زوجة أخي وحياتها وكأن أخي قد مات!.

محمود أسكت إسلام وقال بهدوء:

- إن أرادت العودة معكم لن نمنع ذلك، ولكن لن تأخذها إرغامًا يا أبا خالد.

بعينين ثقيلتين نظرت سنا حولها فأردف عاطف قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك ياحبيبتي.

نظرت في صمت حزين ولم ترد، قامت من مكانها تترنح، أسندها شقيقها حتى وصلت لغرفة العناية التي يقف أمامها محمود وإسلام ومحمد يتناقشون في أمرعودتها مع شقيقها، ذهب إليها محمد فور أن رآها وقال لها:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، لكن يا ابنة أبي وجودك هنا الآن ليس له فائدة، أنت تاركة ولدك الرضيع هو يحتاج لك الآن أكثر من مالك، فمالك بين يدي الله.

نظرت له في صمت لا تفهم ماذا يقصد ، ونظرت لمحمود وقالت له بصوت ضعيف:

- ألا يوجد جديد عن مالك؟

رد محمود بأسى:

- ننتظر رحمة الله.

محمد:
- سيطمئنونك أولًا بأول عن حالته في الهاتف، ولكن هيا الآن بنا أمك تنتظرك في البيت.
عادت للخلف وقالت: لا.. لا.. لن أتحرك من هنا قبل أن أطمئن على مالك.
صمت محمد قليلًا وقال:
- أنتِ هنا بمفردك تقيمين مع شابين فلا تجعلي الناس تلوم علينا، لولا اشغالي لبقيت معك ولكن كما تعلمين ليس لدي وقت.
سنا التي اختبئت خلف محمود وقالت ببكاء:
- لن أترك مالك، وهؤلاء إخوة مالك ليسوا بأغراب وهم مثل إخوتي.
محمد وهو يجز على أسنانه أشار لعاطف أن يصطحبها بقوة فلا يصح ما تفعله ،عاطف أردف قائلًا:
- والله يا أخي الذي لايصح هو ما تفعله أنت، لا تقسُ على أختك وتحرمها من البقاء بجانب زوجها سواء كان سيشفى أو كان لاقدر الله غير ذلك.
ربت عاطف على ظهرها وقال لها:
- أصيلة ياحبيبتي، لا تتركي زوجك أبدًا، ابقي معه وتحت قدميه.
انتحبت بالبكاء وجلست القرفصاء مكانها وعلقت نظرها بالجدار الزجاجي الذي يرقد خلفه مالك، وما كان من محمد إلا أن يتركها بعد رجاء عاطف ووعده أنه سيأتي ليأخذها إن طالت مدة غيبوبة مالك، كم كانت ساعات مريرة تمضي على سنا!!.. كم هي مؤلمة لحظات الانتظار وانتظار ماذا الحياة أو الموت، ولكن دائما ما كان شيء يطمئن نفسها ويؤكد لها أنها فعلت الصحيح، لا تجزم ذلك لكنها مضت خلف إحساسها الذي لم يخب يومًا، جاء الطبيب ليكتب التقرير عن حالته التي لم يجد بها جديد، ما كانت سنا تسأل الطبيب عن حال مالك بل كانت تحدث ربها عنه، وكانت الإجابة في قلبها في السكينة التي تشعر بها، محمود جلس أمامها وقال لها:
- يا زوجة أخي كنت أفضل عودتك مع محمد وعاطف فولدك يحتاجك الآن وطفلك القادم يحتاج منك رعاية لنفسك، وأنت هنا تقتلين نفسك.. أنت لا تأكلين ولا تشربين.
قالت بتعجب: طفلي القادم؟!.
محمود بسعادة في عمقها حزن:
- نعم طفلك وطفل مالك كما أخبرني الطبيب أنك تحملينه.
وضعت يدها فوق بطنها وسالت دمعة من عينها في صمت...
مرت عشرة أيام، جاءت والدة مالك إليهم تحمل ولد مالك حتى تطعمه أمه، كانت حالة نوال سيئة ويتمزق القلب عند رؤياها فأعادها إسلام للبلدة حتى لا تسوء حالتها أكثر من ذلك، وأعاد معها طفل مالك التي كانت متشبثة به، وبقيت سنا ومحمود بجانب مالك، كانت سنا تقف ملتصقة بالجدارالزجاجي فخيل لها أن مالك رفع كفه!!.. فأحست أن قلبها قفز داخلها وبرقت عيناها تنظر له بترقب لعله يحركها ثانية، ولعل ما رأته حقيقي وليس بالتخيل أو التمني، دلفت الممرضة ودارت حول الأجهزة المعلقة تطمئن على أنها تعمل أو لا تعمل، فوجدتها كما هي بحركتها ولكنها وجدت شيئًا غريبًا، المريض يفتح عينيه!!.. نظرت له وهي غير مصدقة وتساءلت.. "هل ما زال على قيد الحياة حقًا؟!! خمسة عشر يومًا لم يتحرك ولم تبد عليه الحياة!!"..
فخرجت مسرعة ودلفت لداخل مكتب الطبيب وأخبرته بما رأته، فهرول الطبيب لداخل غرفة العناية المركزة بسرعة، خفق قلب سنا وأحست أن روحها ستنتزع منها عندما رأتهم يدلفون للداخل، نظر الطبيب لوجه مالك فوجده ينظر لسقف الغرفة ويحاول تحريك يده، وقف الطبيب وأردف قائلًا:
- لكل أجل كتاب!.
اقترب منه الطبيب وأزاح عن فمه جهاز التنفس الصناعي وقال له:

- حمدًا لله علي سلامتك، أو حمدا لله على عودتك للحياة مرة أخرى!.
هتف مالك بأنين وضعف:
- أين أنا؟!
الطبيب مبتسمًا:
-أتظن أنك في الآخرة وأنا الملك المكلف بحسابك؟!
نظر له مالك بصمت فأكمل الطبيب ضاحكًا:
- لكن وجهي لا يبدو ملاكًا أليس كذلك؟!.. أنت ياعزيزي في مشفى وقد أجرينا لك عملية لا يتعدى نجاحها واحد بالمائة، وكنت أنت هذا الواحد بالمائة، ليس أمامي سوى أن أقول الحمد لله، سأخرج لزوجتك الآن وأتصل بوالدتك وأقول لهما بماذا كانوا يدعون حتى تنجو من موت محقق؟ أو يخبروني ماذا أنت كنت تفعل في دنياك ليبارك الله في عمرك؟!.
خرج الطبيب ووقفت سنا تزدرد ريقها أمامه وقلبها يخفق بشدة، قلبها الذي يحدثها بالأشياء قبل وقوعها، نظرت له بصمت، كان محمود يغط في النوم، ظل الطبيب ينظر لسنا بصمت هو أيضًا مما زاد من خفقان قلبها، تنهد بعمق وسألها:
- بماذا كنت تدعين لزوجك؟!
قالت ببكاء: ماذا حدث؟!
الطبيب:
- أخبريني أولًا بماذا كنت تدعين لزوجك؟
سنا بلهفة:
- كنت أقول يارب.
خلع الطبيب نظارته وقال:
- والرب استجاب للعبدن ادخلي لزوجك فقد استفاق!!.
سنا غير مصدقة أمسكت بيد الطبيب وهزته بقوة وقالت:
- بالله حقًا ما تقول أيها الطبيب؟
قال لها مازحًا:
- زوجك يغار أن رآك تمسكين بيدي، والحقيقة من حقه يغارعليك!.
بكت ذات الضفائر بكاءً حارًا فاستشعر الطبيب درجة حبها له، أردف قائلًا برفق:
- كفاك بكاءً وادخلي لزوجكن وصلي شكرًا لله الذي استجاب لدعائك وبربك لاتنسيني من دعائك أن يرزقني الله بزوجة وفية تحبني مثلما تحبين زوجك!.
دخلت سنا الغرفة وهي تشعر أن روحها ستخرج منها وقلبها سيقفز أمامها، مضت نحو مالك وقدماها تتعثر، وقفت أمامه ونظرت إليه طويلًا دون أن تتحدث فأشار لها بيده فجلست على الأرض بجانب سريره تحتضن يده وتقبلها ببكاء حار في صمت، فأحيانا لا نجد الكلمات التي تعبر عما نشعر به فنصمت ونترك لدموعنا العنان، مالك الذي كان يشعر بها هتف بضعف:
- كفى يا ذات الضفائر، لقد جذبتني من يدي وأعدتني من هناك!.
كانت تنظر إليه بصمت فما كان في قلبها لا يصفه كلام ولا بكاء ولا صراخ، مسح على وجهها بحنان وقال لها:
- سننجب ولدًا ثانيًا في المستقبل يا ذات الضفائر، رأيت ذلك.
قالت ببكاء:
- إنه ببطني يا مالك، ولدك الثاني ببطني!.
ابتسم مالك بسعادة وشكر الله في نفسه كثيرًا، خرجت من الغرفة وأيقظت محمود وأخبرته ببكاء أن مالك قد استفاق، محمود ارتطم بالجدار وهو لا يصدق!!.. دلف مسرعًا للداخل وجده مستفيقًا فانحنى عليه وقبله وهو يبكي بكاءً شديدًا، مسح مالك على صدره بحنان وقال:
- أنا بخير ياحبيبي، الحمد لله.

واصل محمود البكاء وهو يتصل بأمه ويخبرها أن مالك قد استفاق، سقطت أمه مغشيًا عليها من الفرحة، سالت الدموع في البيت لكنها دموع الفرحة.. بعد اليأس يأتي الفرج العظيم، سافر إسلام ومعه والدته لترى ولدها الكبير وسندها ونور عينيها، دخلت عليه الغرفة، قبلت وجهه وجسده ويديه وجسدها يرتجف، قبل مالك يدها ومسح على رأسها بحنان ومضت نوال نحو سنا لتقبل يدها على ما فعلت، فقالت سنا ببكاء:

- هذا بفضل رضاكِ عنه ودعائك له، أنا من أود أن أقبل يدك!.

وانحنت على يدها وقبلتها، اقترب إسلام من شقيقه وارتمى في حضنه وبكى كطفل صغير وجد والده الذي ضيعه، فربت مالك على ظهره بحنان وقال:

- لو مت أعلم أنك كنت سترعي ولدي وأمه.

إسلام:

- لا تقل هذا يا مالك، بل ستظل أنت من ترعانا وتظلنا بظلك.

مالك نظر لسنا:

- أين ولدي يا سنا؟ اشتقت لرؤيته.

أردفت والدته قائلة:

- زوجتك تركته وتركت كل شيء وبقيت بجانبك.

نظر لها مالك:

- أتركت ولدك لتبقي بجانبي؟! ألهذه الدرجة...

كان يود أن يقول لها "ألهذه الدرجة تحبينني؟!!"..لم ترد عليه سنا ولكنها تنهدت تنهيدة تحكي كل ما تحمله، بعد أيام تحسن وضع مالك بعض الشيء، كان الطبيب الشاب يزوره كل يوم وكانت حالة مالك تتحسن يومًا بعد يوم متعجبًا كان الطبيب سعيدًا بذلك التقدم في حالة مالك، وكانوا يزيلون له الأجهزة واحدًا تلو الآخر، كانت سنا دائمة الجلوس في الغرفة مع مالك، لم تكثر معه الحديث حتى لا يجهد، كان يشعر بكل ما هي فيه، ظلت تعتني به وتسهر بجانبه مع الممرضة، عادت نوال للقرية وبعثت بصغير سنا مع إخوتها وأمها التي سافرت تزورها وتزور زوجها في المشفى، احتضنت ليلى ابنتها وبكت لما رأتها بتلك الحالة، وقالت لها:

- يا ابنتي وجهك شاحب وأصبح جسدك هزيلًا، لا نريد أن يشفى زوجك وتسقطي أنت في دوامة المرض، انتبهي لنفسك جيدًا، أنتِ لديك طفل صغير يطعم منك وتحملين في بطنك جنينًا يتغذى منك أيضًا.

سنا:

- لا تقلقي سأكون بخير عندما يعود مالك بكامل صحته وعافيته.

أردفت ليلى:

- إن شاء الله سيشفي قريبا يا حبيبتي.

دلف الطبيب الشاب لغرفة مالك وبعد فحصه قال:

- ما شاء الله، لقد تحسنت جدًا يا بطل!.

ونظر لوالدة سنا وقال لها:

- أأنتِ والدته؟

أردف مالك بضعف:

- بل والدة زوجتي.

تنحنح الطبيب الشاب وهو يقترب منها وقال ضاحكًا:

- أليس لديك فتاة أخرى غير متزوجة؟!!

ليلى بتعجب قالت: لماذا؟!

الطبيب الشاب:

- لأتزوجها ياحاجة، أنتم فصيلة نادرة في هذا الزمان!.

نظرت سنا للأرض خجلًا، أما مالك فقد شعر بالغيرة قليلًا لكنه يعلم أن الطبيب يمازح فقط، محمد شقيق سنا أردف قائلًا:
- البلدة تنقصك، والبلدة كلها كانت حزينة من أجلك يا أبا محمود.
مالك:
- أعزك الله يا أبا خالد.
محمد:
- الحمد لله الذي نجاك، لا تعرف كيف كانت حالة زوجتك عليك!.
مالك وهو ينظر إليها:
-أعلم.. أعلم دون أن تخبرني.
اقتربت منه سنا وقربت إليه ولده فقبله مالك وقبل كفيه الصغيرتين، وقال:
- الحمد لله الذي نجاني بفضله ورحمته.
عاد شقيق سنا ووالدته وترك لها ولدها الذي اشتاقت إليه كثيرًا، كانت الدراسة قد بدأت من شهر ونصف وسنا لم تخط للجامعة ولم تفكر حتى بها، احتضنت سنا ولدها واحتضنت ذراع مالك وقالت:
- اللهم لا تحرمني منهم يا الله!.
قبل مالك رأسها وقال:
- أحتاج آلاف الأعمار أعيشها بجانبك فقط لأخبرك أنني أحبك!!.
همست بحب:
- وأنا أريد يا مالك أن ترافقني الحياة والآخرة إن شاء الله.
قبل كفها واحتضنها وظل ينظر لعينيها فقالت له:
- تربكني تلك النظرات لا تنس أننا ما زلنا بالمشفى ولسنا في بيتنا!.
مالك تنهد بعمق وقال:
- حبك يغلبني ولا أستطيع أن أخبئه يا ذات الضفائر.
دلف الطبيب الشاب فوجدهما ينظران لبعضهما بعمق، فهتف:
- إحم إحم.. يبدو أنني جئت في وقت غير مناسب!!.
قامت سنا من مكانها، حملت صغيرها وابتعدت عن سرير مالك في خجل، اقترب منه الطبيب وقال:
- أعتذر.
وبدأ بفحص مالك وطمأنه على حالته ثم قال مازحًا:
- الحب يمنح حياة أخرى، وأنت لديك زوجة وطفل....
فأكمل مالك ضاحكًا:
- وطفل آخرا قادم أيضًا!
هتف الطبيب الشاب:
- ربما سأحقد عليك الآن، فإنني سأدخل في عامي الخامس والثلاثين ولا توجد حتى قردة في حياتي!.
ضحكت سنا وضحك مالك وقال له:
- رزقك الله بزوجة صالحة وذرية صالحة.
الطبيب الشاب:
- يبدو أنني لن أتزوج إلا وأنا في سن السبعين، ليس لدي وقت كما ترى من العيادة للمشفى ومن المشفى للعيادة، نساعد في شفاء المرضى ليعيشوا هم حياتهم وتضيع حياتنا نحن!.
أردف مالك قائلًا:
- اختطف لك من الزمن بعض اللحظات، لا تترك نفسك في دوامة العمل.
الطبيب الشاب:

- ليس لدي وقت، نحن فقط ننظر للسعداء ونحقد عليهم من بعد كما أحقد عليك الآن!.
ضحك مالك وخرج الطبيب واقتربت منه سنا ثانية، قال لها مالك:
- أكنتِ تخدعينني كل هذه الفترة وأنتِ لم تتناولي الحبوب المانعة للحمل؟!
قالت له مبتسمة:
- لو أخبرتك لكنت أرغمتني على اتخاذها.
مالك:
- حبيبتي، أنتِ لديكِ مسؤليات كثيرة، أنسيتِ أنك ما زلت تدرسين وما زال محمود صغيرًا؟ كيف ستنجبين طفلًا آخر وعمره ستة أشهر فقط؟!.
أردفت سنا قائلة:
- عندما ألد سيكون عمره عامًا وشهر.
قال لها:
- سيكون صغيرًا، حرام عليكِ سيحرم من حنانك وطعامك وهو طفل عام واحد!.
قالت له بثقة:
- لن أحرمه من شيء، لا تخف سأعتبر نفسي أنجبت توأمًا ولن أحرمه شيئًا أبدًا.
قال لها:
- ولكن سيكون هذا عبئًا عليكِ، ولا تنسي أمر الدراسة.
قالت له:
- اطمئن، لن ألد إلا بعد انتهاء الدراسة بشهرين كاملين.
قال لها بغيظ:
- أنتِ كنت تخططين لكل شيء إذن؟!
سنا بخبث:
- نعم ياحبيبي كل شيء!
ثم هتفت قائلة:
- مالك، لا تفكر في شيء، لا يهمني الآن سوى صحتك وأن تمر هذه الأزمة من حياتنا.
تنهد مالك بعمق وقال:
- حبيبتي، وأنتِ بجانبي يهون علي كل شيء، الألم والمرض والبلاء والابتلاء.
أغمضت عينيها وقالت:
- كنت أموت كل ثانية وأنت غائب عن الحياة!.
مالك:
- أعلم يا حبيبتي.
سنا:
- لا أود أن أتذكر شيئًا مما حدث غير أنك أمامي الآن وستتعافي كليًا قريبًا إن شاء الله.
مالك:
- حبيبتي كفاك وعودي للبلدة، استريحي أنتِ أرهقتِ وأجهدت بما يكفي.
أردفت قائلة:
- لن أعود إلا وأنت في يدي.
صمت مالك قليلًا وقال لها:
- عندما أشفى تمامًا سنذهب سويا نعتمر ونزور رسول الله صلى الله عليه وسلم.
أردفت سنا قائلة: صلى الله عليه وسلم حقًا يا مالك؟!.
قال لها:
- حقًا حبيبتي سنعتمر سويًا
احتضنته سنا وقالت:
- كنت أتمناها والله يا مالك وأنت بجانبي.

- كل ما تتمنينه أشعر به ياحبيبتي.
نظرت طويلًا لعينيه دون أن تتكلم، أمر الطبيب لمالك بالحركة قليلًا، كانت سنا تمسك بيده وتجعله يخطو بعض الخطوات في نفس الغرفة دون الخروج منها، كم كان الطبيب الشاب ودودًا رحيمًا وكم فرح برؤية طفل سنا ومالك وأصبح صديقًا له يقبله كل يوم ويجلب له اللعب!.. مرت ثلاثة أسابيع تحسن فيها وضع مالك جدًا وتوقف عن تناول معظم الأدوية، وأصبح مسموحًا له بأن يمشي خارجًا، وقف أمامه الطبيب الذي أصبح صديقًا له وليس فقط طبيبًا، وهتف قائلًا:
- لقد تحسن وضعك يا مالك وأصبحت صحيحًا معافى، واقترب وقت خروجك من المشفى، لا أعرف أأهنئك أم أحزن على فراقك وفراق محمود هذا الملاك الصغير الذي تعودت عليه؟!
أردف مالك قائلًا:
- بل أنا الذي سأحزن لفراقك أيها الطبيب الطيب، ليت كل الأطباء يتعاملون بمثل ما تتعامل أنت مع مرضاك.
الطبيب الشاب:
- الطب مهمة إنسانية أولًا قبل أن تكون مهنة.
مالك:
- كل مهنة هي مهمة إنسانية قبل أن تكون مهنة.
الطبيب:
- صدقت، المهم لا تقلق لن ابتعد عنكم، سآتي وأزوركم في قريتكم، وأود أن أجد لي عروسًا منكم!.
ضحك مالك وقال:
- ليست لدينا ما تناسبك في القرية، ليست لدينا طبيبات حتى الآن!.
أردف الطبيب:
- ومن الذي قال أنني سأتزوج من طبيبة؟ أنا أريدها ربة منزل، أريد أن أجدها في أي وقت عندما أعود تحضر لي الطعام، تسهر بجانبي في مرضي، تحزن لحزني تفرح لفرحي.. تتألم لألمي.
أردفت سنا في حياء:
- وما يمنع ذلك حتى وإن كانت طبيبة أو ضابطة أو مهندسة أو وزيرة أو رئيسة؟ المرأة لا تقصر في واجباتها وحقوق بيتها وزوجها مهما كانت مهنتها أو مركزها.
وأكمل مالك:
- العمل بالمشاركة أجمل أيها الطبيب، زوجتي في السنة الثالثة من دراستها ولديها طفل وطفل آت ولم تقصر أبدًا في حقي أو في حق بيتها أو دراستها.
نظرت سنا لمالك وقالت:
- لولاك ما استطعت فعل أي شيء.
أردف مالك قائلًا:
- ولولاكِ ما كنت أنا هنا الآن
استطرد الحديث بينهما حتى نسيا الطبيب الذي كان يتحدث معهما، نظر إليهما الطبيب بابتسامة وخرج في هدوء، تعافى مالك وعاد برفقة ذات الضفائر التي أقسمت أنها لن تعود إلا به، استقبله أهل القرية بسعادة وحب وكم كان مالك شخصًا محبوبًا وودودًا وكريمًا، مالك أسعده كل هذا الحب الذي رآه وأحسه في أعين الناس وقلوبهم، وأخيرًا صعد مالك وزوجته وولده إلى عشهم الصغير، تسربت الدموع على وجهها وضمت مالك لها وكأنها تخشى ضياعه لما تراءت لعينيها صورته وهو ملقى على الأرض فاقد الوعي، تذكرت كل الألم الذي مرَّ بها، كل وجع كتمته واستبدلت كل آهة بكلمة (يارب.. يارب)، مسح مالك دموعها برفق وقبل رأسها وقال لها:

-أنا هنا.. ما زال أجلي باقًيا ياحبيبتي، وحتى إن مت أودك أن تكوني قوية وأن تمتثلي لأمر الله وتصبري.
سنا برجاء:
- كفى يا مالك، أنا أصبر على أي شيء غير أنك تبتعد عني!.
تنهد مالك بعمق وقال:
- لا أود أن أشعر بحبك أكثر من ذلك يا سنا.
وأمسك بكفها ووضعه على موضع قلبه:
- إن قلبي هذا يحترق من داخلي كلما أحسست أنني تسببت في ألمك وحزنكز
همست بحب:
- لحظة بجانبك يا مالك تمحو عمرًا كاملًا من الألمز
قبل يديها وجلسا سويًا ينظران لولدهما، قالت:
- أشعر الآن أنني أملك الدنيا وما عليها.
نهض مالك من مكانه وقال:
- المهم الآن يا حبيبتي أن تعودي لدراستك، فاتك الكثير.. وأما أنا فقد أصبحت الحمد لله بخير كما ترين.
قالت له:
- لن أذهب هذا العام، سأؤجل للعام القادم، أود أن أبقى بجانبك.
قال لها:
- ومن قال أني سأتركك؟ سأذهب معكِ كما ذهبت معك العام الماضي.
أردفت قائلة:
- العام الماضي ذهبت معي لأنك كنت تمتحن مثلي، ولكن تلك المرة لماذا تذهب معي؟
- لأكون بجانبك وأذاكر لك ما فاتك؟
وضعت صغيرها فوق السرير وراحت تختبئ بين ذراعيه، قالت له:
- مالك، أود أن أذهب لشجرة الصفصاف.
ضحك مالك وقال لها:
- ذات الضفائر ما زالت طائشة!.
قالت له:
- لا أمزح يا مالك، أود أن أذهب لشجرة الصفصاف.
قال لها:
- ربما اشتقتِ لأن أحملك وأمضي بك فوق الجذع!.
تنهدت بعمق وقالت:
- أود أن أسترجع كل لحظاتنا الجميلة وأكررها حتى لا تصبح ذكرى أبدًا.
صمت مالك قليلًا وقال:
- عمر كامل يا ذات الضفائر، منذ كنت فتاة التسع سنوات وانا شاب الثانية والعشرين، أتعلمين كم الفرق بيني وبينك؟
أردفت قائلة وهي تدفن وجهها بين كفيه:
- ولا لحظة، روحي كانت معقودة بروحك من قبل أن نأتي للحياة، ولدت أرواحنا سويًا.
مسح فوق رأسها وقال:
- الفرق بيننا ثلاثة عشرعامًا، يعني أنت ابنتي ولست زوجتي!.
قالت له:
- وأنت ولدي الأكبر.
اسيقظ ولدها الأصغر محمود فأردف مالك قائلًا:
- استيقظ مفرق الجماعات وهادم اللذات!! وولدك الأكبر بدأ يغار من ولدك الأصغر.

ضحكت وهي تحمل ولدها من فوق السرير وهتفت قائلة:
- لا تقلق ياحبيبي، قلبي يسعكم جميعًا، سأمنح كل منكم الحب الذي يكفيه.
مالك:
- دمتِ في حياتينا شمسًا يا سنا، ياسنايا
مرت الأيام وخاضت سنا الامتحانات بمساعدة فاطمة ومالك الذي كان يراجع لها ويهتم بولده أثناء امتحانها، نجحت بتقديرات متوسطة لكن كانت فرحتها فرحة عارمة، فالمهم عندها مالك ومحمود وكل شيء بعد ذلك يعوض، انتفخ بطنها وأوشكت على الوضع.. فاطمة:
- أنتِ مجنونة حقًا ياسنا!! ولدك صغير وما زلت تدرسين، ليس لديك الحق في إنجاب طفل آخر.
نظرت سنا لبطنها وقالت:
- ولن يكون الأخير، سننجب أنا ومالك أطفالًا كثيرة وسأطلق عليهم (أبناء الحب).
جاء صوت نوال هاتفًا:
- نخشى عليك يا ابنتي من الجهد والتعب، وحتى أنك ترفضين الراحة وتقومين بعمل المنزل معنا.
سنا:
- يا خالتي وجود مالك بجانبي يمنحني طاقة فأشعر أنني أستطيع فعل أي شيء وكل شيء في الحياة.
وجدت ذراعيه تلتفان من حولها من الخلف ويهمس في أذنها:
- أحبك يا ذات الضفائر!!
أمام والدته وفاطمة، ولم يستحِ أن يفعل ذلك أمامهما!!.. شعرت بالخجل منهن فصمتت ولم تتحدث وقلبها يخفق بشدة، ابتسمت فاطمة وتركت المطبخ وخرجت كما أن نوال فعلت ذلك، فقالت له معاتبة:
- كيف تفعل هذا أمامهما؟!
قال لها:
- وأفعله أمام كل العالم.
مرر يده فوق بطنها وقال:
- الحمد لله أنك خضت الامتحانات ولم تضيعي آخر يوم فيها كما فعلتها من قبل.
أردفت باهتمام:
- مالك، صحيح أود أن أخبرك بشيء.
قال لها: أخبريني يا سنايا.
قالت له:
- تعلم غضب أمي مني عند وضعي لمحمود بعيدًا عنها.
أدارها لوجهه وقال:
- ماذا تقصدين؟
صمتت قليلًا وقالت له:
- اسمح لي أن ألد هذه المرة ببيت أبي؛ فأمي تشدد على ذلك.
تنهد بعمق وقال:
- ارضي أمك، هم أهلك أيضًا ويريدون أن يفرحوا بك.
قالت له بسعادة:
- أعلم أنك شخص كريم!!.
ومضت من أمامه، أردف قائلًا:
- لكنك لا تعلمين أن غيابك عن نظري يقتلني قتلًا!.

رتبت سنا ملابسها وملابس صغيرها في الحقيبة استعدادًا للذهاب لبيت أبيها كما أخبرت مالك، جلس مالك أمامها وقال لها:
- ما زال الوقت مبكرًا على ذهابك، أنتِ في نهاية الشهر الثامن فقط.
أردفت قائلة:
- يا مالك اشتقت لبيت أبي، منذ متي لم أذهب إلى هناك؟!
أومأ مالك بالموافقة ولكنه غير راضٍ من داخله عن ذهابها بيت أبيها من الآن، قالت له:
-أخبرتهم أنني غدًا في الصباح سأذهب لهم، ستأتي معي أم أنني أتصل بأخي ليأتي ويأخذني؟
هتف قائلًا:
- سأذهب معك.
ونام على حافة السرير موليًا لها ظهره وهو يشعر بالضيق، كيف تستطيع أن تبعد عنه كل هذه الأيام؟!!.. أحست سنا بما فيه فتبسمت ضاحكة من فعلته، فهمست بحب:
- أعرف أن ولدي الكبير يصعب عليه مفارقة أمه، ولكن كما ترى يا مالك البيت هنا أعماله كثيرة وكان الله في عون الجميع، ولا أريد أن احملهم عبئًا فوق أعبائهم؛ في بيت أبي أمي ستساعدني في حمل محمود حتى أستطيع التفرغ للطفل القادم.
اعتدل مالك وجلس وأردف قائلًا:
- قلت لك اذهبي، ماذا أفعل غير ذلك؟!
هتفت وهي تنظر لعينيه:
- قولك هذا من خلف قلبك، وأنا لا أود أن اذهب وأنت غير راض عن ذلك.
تنهد بعمق وقال لها:
- راضي يا سنا.. اذهبي.
سنا بحنان:
- شهرًا واحدًا لا أكثر سأغيبه عنك، وسنعود بعدها لعشنا أنا وأولادك.
نظر إليها بصمت فوضعت يدها على صدره وقالت:
- يا مالك، بالله عليك كيف وأنت تحبني كل هذا الحب تركت أخيك يأتي لخطبتي؟ بل وأنت من أتيت لتخطبني إليه؟!!.
صمت طويلًا وقال:
- وكيف لك وأنتِ تحملين لي كل هذا الحب وافقتِ عليه؟!
تنهدت بعمق وقالت:
- عندما كان يذكر اسمك كنت أشعر بوخز في قلبي، وما كنت أعرف سببًا له، الآن عرفت السبب وأيقنت أنني ربما مولودة بحبك.
مالك معاتبًا لها:
- لذلك تودين الابتعاد عني كل هذه المدة!.
قالت له:
- أشهر واحد تعتبره مدة يا مالك؟!.
تنهد بعمق وأردف قائلًا:
- الوقت يصبح ثقيلًا بدونك، اللحظات تمر كأنها سنوات قاتمة موحشة لا حياة فيها.
قبلت كفه دون أن تتحدث فلا تجد من الكلام ما تستطيع الرد به على حب مالك الذي تشعر به..
محمود يجلس في الصالة يشاهد شاشة التلفاز، جلست فاطمة بجانبه وأردفت قائلة:
- محمود، أود أن أذهب للطبيبة حتى أعرف سبب تأخر الحمل حتى الآن.
محمود متعجبًا:
- ألم تكوني أنتِ من تريدين ذلك؟ وقلت أنك لا تريدين الإنجاب إلا بعد انتهاء دراستك ولم يتبق لك إلا عام واحد ومن الأفضل أن تنتظري بعد هذا العام؟!.

فاطمة بلهفة:
- لا يا محمود، أنا أود الإنجاب بسرعة!.
محمود متعجبًا:
- أما كنت تلومين سنا في الصباح؟ ماذا حدث؟!.
فاطمة مبتسمة:
- لكنني أشعر بسعادة عندما أنظر لولدها، وحتى عندما أنظر لبطنها أود أن أشعر بشعور الأم وأحمل طفلي بين يدي.
محمود:
- طالما أردت ذلك نذهب للطبيب غدًا.
سنا أردفت قائلة:
- مالك، ماذا لو تم زواجي بمحمود؟ كيف كنا سنعيش في بيت واحد وأنت تحمل لي كل هذا الحب وأنا أحمل لك كل هذا الحب؟!.
تنهد بعمق وأردف قائلًا:
- الله كان يعلم بقلب مالك فأعادك لي يا فتاتي.
سنا بتردد:
- مالك.. أود أن.. أعترف لك بشيء.
مالك بتعجب:
- تعترفين؟! اعترفي.
أردفت سنا قائلة:
-نعم، عندما علمت بحملي في محمود كنت متخبطةً في المشاعر والأفكار، وكنت أشعر بالإهانة من الطريقة التي تم بها زواجنا، وكنت أشعر بالحسرة لما فعله بي أخوك محمود فحاولت أن أتخلص من ذلك الجنين الذي كان نتيجة هذا الزواج المهين، ذهبت لطبيبة وطبيب..
وقصت له ما حدث لها مع الطبيب فقام مالك من مكانه يشتعل غضبًا من طلب الطبيب لزوجته وقال لها:
- كيف تسمحين لنفسك أن تذهبي لطبيب بمفردك؟ ماذا كنت تظنين أنه سيظن بك ليتجرأ ويطلب منك ذلك؟ لكن الحق ليس عليه الحق عليك أنتِ من سمحت له بذلك وذهبتِ تتصرفين من عقلك وكأنك بدون رجل!.
قامت من مكانها وقالت له:
- حبيبي، اهدأ لم يحدث شيء وتعلمت درسًا قاسيًا في تهوري وعنادي.
ونظرت لصغيرها وقالت:
- وها هو ولدنا بيننا.
مالك بحزن:
- كنت ستحرميني من طفلي دون أن تخبريني، كم أنت قاسية!.
قالت له:
- أتظن أنني عندما أقبلت على ذلك ما كانت روحي تتمزق؟ أن تقرر التخلي عن جزء من قلبك وروحك شيء صعب جدًا يا مالك، لكن الحمد لله لم يرد الله بذلك وأعادني لصوابي وحفظ ابنك بل ووهب لك طفلًا آخر.
هدأ مالك قليلًا واقترب من ولده واحتضنه وقبل كفه الصغير وهو نائم، ربتت على ظهره سنا وقالت:
- كل شي يخصك يعود لك يا مالك، القدر يحفظ لك أشياءك، أعادني إليك وحفظ لك ولدك.
هتف مالك شاكرًا بقول:
- الحمد لله، لكنك متهورة ومجنونة وطائشة، ورغم أنك أقبلتِ على أن تكوني أمًا لطفلين إلا أنك مازلت تفكرين بعقل طفلة!.

أردفت مبتسمة:
- وأنت مفتون بي رغم كل هذا!.
نظر إليها في صمت فإنها لم تكذب في الوصف..
أشرقت الشمس وحمل مالك الحقيبة في ضيق ووضعها داخل السيارة وهبطت سنا ببطنها المنتفخ تحمل صغيرها، سلمت على أهل البيت قبل خروجها وودعتهم، يبدو أمر غيابها عن مالك شهرًا كاملًا أمرًا هينا لها، ويبدوا لمالك أمرًا محرقا لقلبه لكنه لابد أن يحتفظ بشيء من ثباته أمامها وأمام الجميع، جلست بجانبه في السيارة تعدل من هندام طفلها في صمت ، وصلا لبيت أبيها، كانت أمها تقف أمام البيت لعلمها بمجيئها، أمسكت من بين يديها محمود وقبلته عدة قبلات واحتضنت ابنتها بسعادة ودلفوا للداخل، كان (أشرف) ابن خالة سنا والذي يكبرها بعامين والذي قضت معه سنوات طفولتها يجلس بجانب عاطف شقيقها بعد عودته من بلد عربي، وفور أن رأى سنا هب واقفًا وابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه وقال:
- سنا.. ما هذا يا إلهي؟! القصيرة تزوجت وأصبح لديها طفل وستنجب طفلًا آخر!!.
ابتسمت سنا وقالت:
- أشرف، حمدًا لله على سلامتك يا ابن خالتي.
وأقبل أشرف على مالك وسلم عليه، جلس أشرف وجلست سنا بجانب أخيها وجلس مالك بجانبها، تحدث أشرف كثيرًا عن الأيام التي قضوها سويًا وكم كانت سنا طفلة شقية جدًا، مالك أحس بالضيق فنظر لسنا وقال لها:
- سأذهب الآن والولد يحتاج للراحة.
قامت سنا ومضت خلفه إلى الباب وقالت له:
- أمي كانت تجهز لنا الغداء، سأخرج إن لم تبقى وتتناوله معنا.
مالك:
- لا أشعر بالجوع حقًا، اعتذري منها واعتني بنفسكز
وتركها وخرج ذاهبًا لشجرة الصفصاف، جلس تحت جذعها حزينًا مهمومًا ، ابتسم لائمًا نفسه وقال:
- ما بك يا مالك وأنت الرجل الرزين الثقيل؟! ماذا تفعل بك وماذا يفعل بك غيابها؟ إنك لم تتركها إلا منذ لحظات لماذا تشعر بكل هذا الحزن والأسى؟!.
أمسك بالهاتف واتصل بها متعللًا الاطمئنان على ولده، أجابته وكان صوت أشرف يخالط صوتها فأدرك مالك أنه مازال موجودًا هناك، قال لها:
- كيف حال محمود؟
قالت له:
- بخير..
وصمتت قليلًا ثم أردفت قائلة:
- الجو بدأ يبرد، كفاك جلوسًا تحت شجرة الصفصاف يا مالك وعد للبيت!.
أصابته الدهشة فكيف عرفت أنه يجلس تحت شجرة الصفصاف؟! ..
مالك بتلعثم:
- وكيف عرفت أنني هناك الآن؟
قالت له:
- كلما شعرت بالضيق تذهب وتجلس تحت جذعها.
أردف:
- ومن قال لك أنني أشعر بالضيق؟
تنهدت بعمق وقالت:
- أخبرني قلبي ياقلبي، عد يا مالك فإن أصابك برد سيصيب ثلاثة معك أتسمع يا حبيبي؟!

شعر مالك أنه يود أن يقفز عاليًا وقال محادثًا نفسه.. "أعدت مراهقًا يا مالك؟ إنها زوجتك يا رجل وليست فتاة تحبها وتخشى أن يختطفها منك غيرك، وستعود إليك بعد شهر أو حتى بعد عام"..

أخرجه صوتها من شروده وهي تقول له:

- مالك، أعلم أن بعد ذات الضفائر عنك يؤلمك كثيرًا، ولكن عليك أن تجد لها العذر وستعود لك قريبًا وهي تحمل طفليك.

ثم أنهت المحادثة وهي تؤكد عليه بالعودة، عاد مالك للبيت وذهب لغرفته القديمة ليفتح من جديد مدونته القديمة وينهل من حبه لذات الضفائر سطورًا كثيرة، كانت تلك السطور عزاءه الوحيد في بعدها عنه، مر شهر كامل، مر كأنه دهر على مالك لكنه لم يقم بزيارتها ولا مرة خلال هذا الشهر، والدته فقط هي من كانت تذهب إليها وتطمئن على حالها وتطمئنه عليها، لم تلمه سنا على ذلك ولم تطلب منه أن يزورها، جاءها المخاض وجاءت خالتها وجاء أشرف ابن خالتها وقالت لها والدتها:

- سنذهب للطبيب بسيارة ابن خالتك.

أردفت سنا قائلة وهي تتأوه:

- لا يا أمي، أخبري مالك ليأتي ويذهب بي.

والدتها:

- وهل هذا وقت عناد؟ أوشكت على الولادة يا ابنتي.

أمسكت سنا بهاتفها واتصلت بمالك وهي تئن من الألمن أخبرته أنها تلد الآن، فذهب لها مسرعًا ، حملها وأجلسها داخل سيارته وجلست بجانبها والدتها، ذهب من خلفهم أشرف ووالدته، دخلت سنا غرفة الولادة وكانت الولادة متعسرة، كان مالك يقف وقلبه يقف معه وهو يقول (يارب) ، كانت والدة سنا تبكي وهي تحمل صغير مالك وسنا الذي لم يكف عن البكاء والصراخ، كانت الأصوات كلها تتداخل في عقل مالك.. صوت صرخات سنا وصرخات صغيره وبكاء والدتها.. لم يعد يحتمل، ربت أشرف على ظهر خالته وقال لها بصوت مسموع:

-ما كان يجب عليك أن تزوجيها في هذا السن يا خالتي، سنا ما زالت صغيرة على كل هذا البلاء هي لم تكمل الواحدة والعشرين من عمرها وسيصبح لديها طفلان كيف لك أن توافقي على هذا؟ وربما زوجها الذي يكبرها بأعوام عديدة يرى أن العمر قد تقدم به ويريد الإنجاب بسرعة فأرغمها على حمل طفل آخر وطفلها الأول لم يكمل إلا عامًا، أي قسوة هذه وأي جبروت على هذه المسكينة؟!

ونظر لمالك وقال:

- أنت المسئول أمامي إن حدث لابنة خالتي مكروه!.

مالك كان يحترق من داخله كلما مر الوقت ولم يخرج الطبيب، قال بهدوء حاول أن يصطنعه:

-ابنة خالتك التي تتحدث عنها زوجتي وأم ولدي، وتهمني أكثر من أي شخص آخر.

أشرف قال بصوت مرتفع :

-لأنها زوجتك أقول هذا.. ظلمها أهلها وهي وحدها تعاني من هذا الظلم.

جاء صوت محمد حازمًا:

- كفاك يا أشرف، ومن الافضل أن تأخذ خالتي وأمي وتعيدهم للبيت.

أردفت والدة سنا ببكاء:

- لن أذهب وأترك ابنتي.

وأردفت شقيقتها:

- لن أتردك أختي هنا يا محمد حتى نطمأن على أختك.

فقال محمد بغضب:

- فليصمت أشرف يا خالتي، يكفي مالك هم زوجته الآن ليس من حق أشرف أن يقول هذا الكلام، ونحن ازددنا شرفًا بزواج أختنا لمالك.

أردف أشرف قائلًا:
- محمد، أنت تهرب من الحقيقة، إن هذا الذي يقف أمامك تزوجها ليغطي على فعلة أخيه، وهي لم تستطع أن تقف أمامكم ولا أمامه فتزوجته مرغمة لا بإرادتها.
أردف محمد بحزم:
- اصمت يا أشرف.
مضى مالك خارجًا وترددت في ذهنه الكلمات، أحقًا ما كان يجب عليه أن يتزوجها؟ أحقًا تعيش مرغمة عليه وهو السبب لما هي فيه الآن؟ ، قلبه يؤلمه لأنها تئن ولا يستطيع فعل شيء من أجلها ، صوت وأوأة أخرى تأتي من الداخلن انتفض قلب والدتها وقلب مالك الذي أتى ثانية وتعلقوا بباب الغرفة، خرج الطبيب من الداخل وكانت الممرضة تحمل الطفل، دلف مالك مسرعًا دون أن يسأل الطبيب، اقترب منها وقبل كفها، كان وجهها متعبًا شاحبًا ، قالت له بضعف:
- ولدك أتعبني هذه المرة.
ندت دمعة من عينه فابتسمت في وجهه وقالتك
- يقال أن بكاء الرجل ضعف، وأنا أقول أن بكاء الرجل حب.
دلفت والدتها وخالتها، احتضنتها والدتها وهي تبكي، فقالت لوالدتها:
- أنا بخير يا أمي ولا أريد منكم كل هذا القلق علي، سأنجب أطفالًا كثيرة ويجب أن تتعودوا على هذا.
أردفت والدتها:
- كانت ولادتك متعسرة، والحمد لله أنك نجوت هذه المرة، لن أدعك أن تهلكي نفسك في سبيل الإنجاب.
جاءت الممرضة تحمل الصغير بعد أن ألبسته ووضعته بجانب سنا، فنظرت إليه بحنان وقالت لمالك:
- يشبهك كثيرًا يا مالك.
نظر إليه مالك وقبل يده وتلا في أذنه بعض آيات من القرآن.
سناك
- ماذا ستسميه يا مالك؟
مالك:
- اختاري أنت له الاسم، فأنت من حملته وتحملتِ كل هذا الألم من أجله.
أردفت قائلةك
- وأنت من شعرت بألمي فألمنا أصبح متساويًا.
نظر لوجهها طويلًا قال لها:
- نسميه مؤمن
ابتسمت وهتفت: اسم جميل!.
قضت سنا نصف اليوم بعيادة الطبيب وأعادها مالك لبيت أبيها، سنا كانت تشعر أن مالك سعادته ينقصها شيء، ذهبت لها فاطمة وزينب ووالدة مالك للاطمئنان عليها ولتهنئتها، حملت فاطمة الصغير وهي تشعر بسعادة وتقول:
- أشتاق لأكون أمًا يا سنا.
سنا:
- غريب!! ألم تلوميني على حملي الثاني؟!
فاطمة:
- غيرت رأيي الآن.
فضحك الجميع والجميع أحس بالسعادة، من الغريب أن مالك لم يذهب إليها ثانية، مرأسبوع كامل لم يتصل بها ولم يطمئن عليها ، كان مالك يجلس مهمومًا فسألته والدته:

- ما بك يا مالك؟ وجهك حزين وحالك غير حالك؟ ومن المفترض أن تكون سعيدًا جدًا لأن الله رزقك الصحة اولًا والأطفال فأخبرني ما بك؟!
تنهد بعمق وقال:
- لا شيء يا أمي.
أردفت نوالك
- لماذا لم تذهب لزوجتك ولم أراك حتى تتصل بها لتطمئن عليها وعلى أطفالك؟!
تنهد مالك بعمق وقال:
- أمي...
وسكت قليلًا ثم قال:
- سأطلقها!!.
نوال وهي تشهق: ماذا تقول ؟!
مالك بهدوء:
- أقول ما سمعت يا أمي.
نوال بعد صمت طويل:
- مالك أنا أعاملك على أنك رجل وليس ولدي، وأعلم أنك عندما تقول كلمة تكون فيها قد وصلت لقرار بعد تفكير، وأنا أسألك لماذا اتخذت هذا القرار؟
تنهد بعمق وقال:
- ربما كان من الخطأ أن أتزوجها منذ البداية، الفتاة تصغرني بأعوام كثيرة وأفكارنا مختلفة، وكل شيء فيما بيننا مختلف.
نوال بتعجب:
- واكتشفت هذا بعد بعد أن أنجبت منها طفلين؟! هل جننت يا مالك؟ تريد أن تترك زوجتك وأولادك لأنك اكتشفت أنها مختلفة عنك؟!
مالكك
- أولادي عندما يكبرون سيعودون إلي يا أمي، وأما هي...
تنهد بعمق وقال:
- ربما تتزوج
نوال بغضب:
- مالك، ما الذي دهاك؟ الفتاة لا تحبك بل تغرم بك وتحاول إسعادك بشتى الطرق، رأيت ماذا فعلت عند مرضك وكيف تتحامل على نفسها لتسعدك!.
كلام والدته زاده إصرارًا فهو حقا لا يريد أن تتحامل على نفسها من أجله، هتف بحزن:
- ربما لأنها أصبحت في الأمر الواقع فتقبلته كما هو.
صمتت نوال وأردفت قائلة:
- وهل أنت ستستطيع؟
مالك:
- سأستطيع ماذا يا أمي؟
نوال وهي تضيق عينيها:
- هل ستستطيع أن تعيش بدونها؟
ووضعت يدها على قلبه وقالت:
- أنا أعلم جيدًا بم تشعر يا مالك أنت غائب عن الحياة منذ أن غابت عنك.
مالك:
-كفى يا أمي!
نوال:

- لا ليس كفى، قرارك غير مبرر ويخالف كل شيء، هذه الفتاة فعلت بك ما لم تستطع أي واحدة غيرها فعله، وأنت رهنت عمرك كله من أجلها، وإن لم تتزوجها ما كنت لتتزوج أبدًا لا تظن أنني لا أدري، اهدأ يا مالك ولا تخرب بيتك.

مالك:

- لقد اتخذت القرار يا أمي وانتهي الأمر.

تحدث زوجات أشقاء سنا عن انقطاع مالك وعدم سؤاله عنها، كانت تقول لهم سنا أنه منشغل هذه الأيام وهي تعلم أنه غير منشغل، ولكن تشعر منذ ذاك اليوم أن هناك خطبًا، احتفلت سنا بليلة السابع مع طفلها، وأتت عائلة مالك بأكملها، تجمعت مع عائلة سنا، كان اليوم جميلًا سعد فيه الجميع، انتهى اليوم وعاد أهل مالك للبيت، أردف محمود:

- مالك، أنت تجلس هنا؟ ظننت أنك ستذهب اليوم لتحتفل وتقر عينك بولدك!.

مالك:

- أشعر بالتعب بعض الشيء.

أتت نوال من الداخل وقالت لمحمود بصوت عالٍ:

- أخوك يريد أن يطلق زوجته يا محمود!.

محمود وهو لا يصدق:

- مالك هذا الكلام صحيح؟!

صمت مالك وقال بجمود:

- نعم سأطلقها

محمود ساخرًا: أتريد أن تطلق سنا التي تركتها أنا من أجل أنك تحبها؟ والحب الذي رأيته فيها لك لم أره من امرأة لزوجها قبلك؟!

مالك بجمود وصمود:

- لا تحدثوني في هذا الأمر ثانية.

سنا أطعمت صغيريها وناما، وجلست تتحدث إلى والدتها قالت:

- أمي، ماذا حدث يوم ولادتي؟

الأم: ماذا تقصدين؟

سنا:

- مالك يا أمي يحزنه شيء ولا أعرف ما هو.

صمتت الأم قليلًا وقصت لها ما حدث من أشرف، ففهمت سنا سر تغير مالك فتبسمت ضاحكة وقال محادثة نفسها.. "فهمت الآن ما سر حزن ولدي الأكبر!"..

أشرق الصبح، علا رنين هاتفها فضغطت زر الإجابة وقالت:

- حبيبي اشتقت إليك!.

تنهد بعمق وقال لها:

- لقد وصلت لقرار ربما سيكون مريحًا لكلينا.

سنا بتعجب:

- وما هو قرارك يا زوجي؟!

صمت طويلًا وقال:

- الانفصال!.

سنا:

- موافقة!.

مالك أغلق الهاتف بحزن وهو غير مصدق أنها قالت موافقة، قامت واستبدلت ملابسها ورتبت ملابسها في الحقيبة وملابس أطفالها، وأخبرت عاطف شقيقها أنها ستعود اليوم لبيت زوجها لأن حماتها مريضة، اعترضت والدتها لكنها أصرت على العودة، عادت سنا لبيت زوجها، رحب بها الجميع وسعد برؤيتها وأوصتهم ألا يخبروا مالك بمجيئها، اتصلت بمالك وقالت له:

- من فضلك طالما ستطلقني أجلب لي ما تبقى من ملابسي وأشيائي.
صعد شقته وقلبه ينزف دمًا، كان يود أن ترفض الطلاق وتتمسك به، كان يود أن تقول له أحبك، كانت فاطمة تتهامس مع زينب وهما تضحكان، فتح باب الشقة ودلف لغرفة المعيشة ففوجئ بوجود طفليه فوق السرير!.. اقترب منهما وقبلهما وقال..
"هل ستترك أولادها لأربيهم؟ ومن الذي أتى بهم إلى هنا؟"..
خرجت عليه من الغرفة الثانية بكامل زينتها واقتربت منه وجلست بجانبه، وحاوطته بذراعيها وقالت بابتسامة عريضة:
- أعتذر لولدي الأكبر لأنني غبت عنه كل هذه المدة!.
مالك ود أن يتحدث فوضعت يدها على فمه وقالت:
- مالك، لن أتركك حتى لو أردت أنت ذلك، أتسمع؟ سنعيش معًا لن يفرقنا أحد ولن يفرقنا شيء، سننجب أطفالًا كثيرة وسنشيخ معًا وسنحمل أحفادنا سويًا، إنني يا مالك لن أتركك ولو اجتمع الناس كلهم علي أن يفرقونا لست بمفارقتك.
خارت قوى مالك واستسلم لها ولحبها، وضعف أمام كلماتها، وترك لها نفسه تحاوطه بحبها وذراعيها وقد وفت وعودها وعاشا سويًا عمرًا طويلًا..
وهكذا انتهت قصة ذات الضفائر....
صوت والدتها يردد اسمها عدة مرات، استيقظت فزعة تنظر من حولها، قامت مسرعة تنظر لنفسها في المرآة فوجدت نفسها ما زالت صغيرة بضفائرها، وكل ما مر كان حلمًا طويلًا ولكنه حلم جميل!!!.
ألبستها أمها مريول المدرسة وحملت حقيبتها وخرجت، استيقظ هو الآخر ينظر حوله ويبحث عنها بجانبه ويبحث عن ولديه لكنه لم يجد شيئًا، وأدرك أنه كان يرى حلمًا لكنه كان حلمًا طويلًا وجميلًا، وليته ما كان حلمًا، خرج من الغرفة وهو غير مصدق أنه كان يحلم كل هذا وما مر عمره، استبدل ملابسه وخرج من بيته فوجدها تقف بمريولها وبضفائرها تنتظره في البرد القارص، نظر لها طويلًا واقترب منها وقال لها:
- مالذي جعلك تقفين هكذا ياذات الضفائر؟
قالت له وهي ترتعش من شدة البرد:
- جئت لأقص لك ما حدث بالأمس وما رأيته.
تبسم ضاحكًا وقال لها:
- لا تقصي شيئًا، ما رأيتِه رأيته أنا أيضًا!.
فقالت ببراءة وعيناها تلمعان:
- ومتى سأعيش معك كما رأيت؟
صمت طويلًا وقال لها:
- لا تفكري الآن بالأمر، المهم أن تتفوقي في دراستك، سنلتقي هناك في المستقبل البعيد!.
قالت ببراءة:
- وأين هذا المستقبل؟!
قال لها مبتسمًا:
- سيأتي بعد عشر سنوات أو ربما أقل.
تبسمت ضاحكة وفردت يديها في الهواء ومضت من أمامه تداعب الكون وتمضي مسرعة فخانتها قدماها وسقطت، فأسرع نحوها ورفعها وقال لها:
- انهضي يا مستقبلي الآتي!.
لم ينتظر مالك مرور العشر سنوات بل تقدم لخطبتها وهي في السنه الثالثة من المرحلة الثانوية، وتزوجها بعد عامها الأول في الجامعة، وكان يغار عليها بشدة، وانجب منها ستة أطفال أربعة أولاد وفتاتين..